جى فارچيت

محمد على

مؤسس مصر الحديثة

المجلس الأعلى للثقافة

المشروع القومى للترجمة

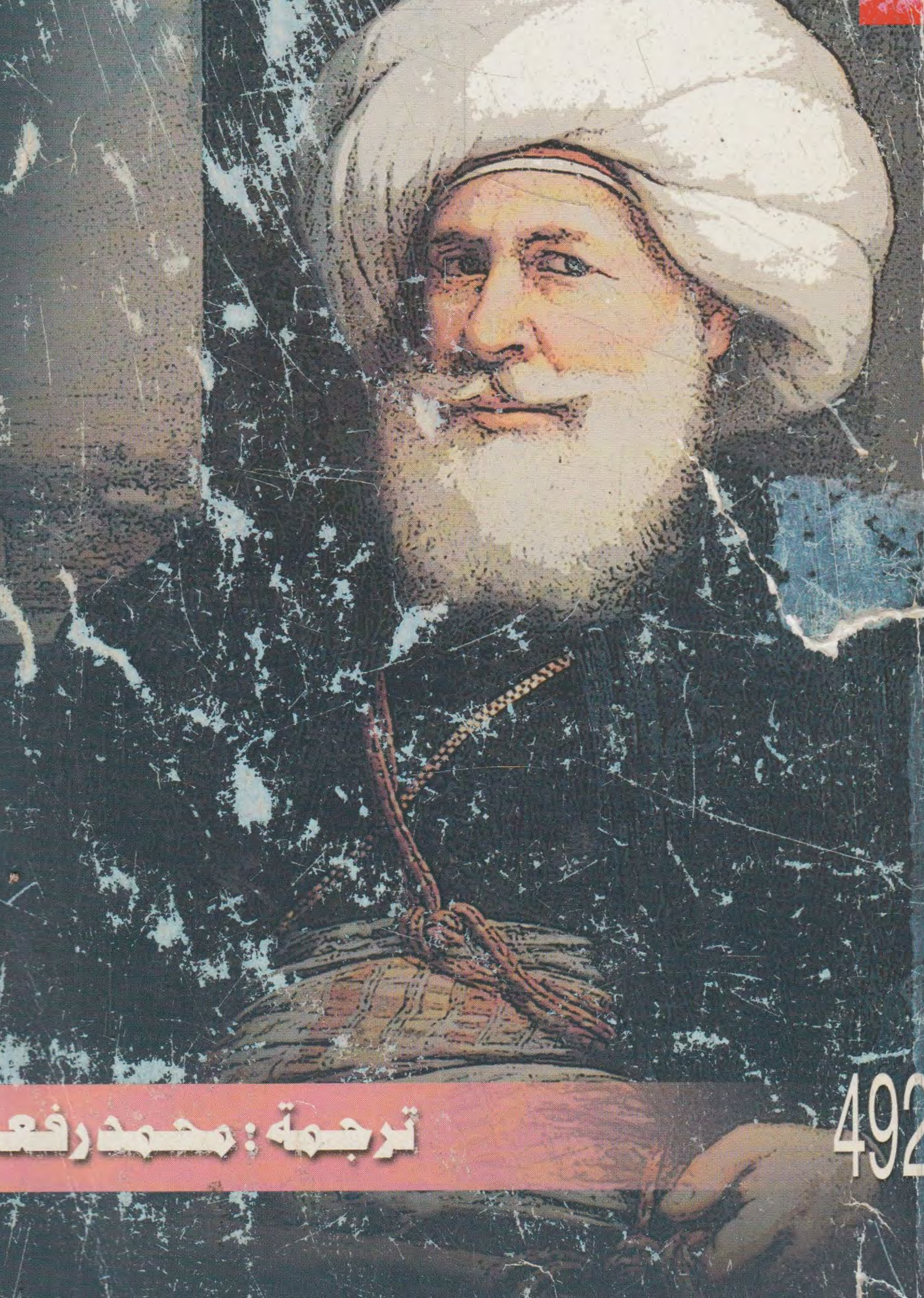

492

ترجمة : محمد رفعت عواد

المشروع القومى للترجمة

محمد على

مؤسس مصر الحديثة

تأليف : چى فارجيت

ترجمة : محمد رفعت عواد

المجلس الأعلى للثقافة

المشروع القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- العدد ٤٩٢
- محمد على مؤسس مصر الحديثة
- چى فارجيت
- محمد رفعت عواد
- الطبعة الأولى ٢٠٠٣

هذه ترجمة لكتاب :
MÉHÉMET ALI
GUY FARGETTE
L'Harmattan

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة
شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo
Tel : 7352396 Fax : 7358084.

تهدف إصدارات المشروع القومى للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة .

المحتويات

مقدمة المترجم	7
المقدمة	9
الفصل الأول : الحملة الفرنسية على مصر	15
الفصل الثانى : محمد على الإنسان ، الاستيلاء على السلطة وبداية عهد	25
الفصل الثالث : كيف حكم مصر؟	45
الفصل الرابع : تكوين إمبراطورية المرحلة الأولى (١٨١١ - ١٨١٢م)	59
الفصل الخامس : التدخل المصرى فى اليونان (١٨٢٣ - ١٨٢٧م)	75
الفصل السادس : التأثير الفرنسى فى مصر	91
الفصل السابع : التنظيم الاقتصادى	109
الفصل الثامن : تكوين إمبراطورية المرحلة الثانية (١٨٢٧ - ١٨٣٩م)	129
الفصل التاسع : محمد على والسودان	153
الفصل العاشر : بالمرستون	165
الفصل الحادى عشر : الحياة فى مصر فى عهد محمد على،	179
الفصل الثانى عشر : نهاية حكم محمد على، نتائج معاهدة لندن	201
الختام	215

مقدمة المترجم

سعدت جداً بتكليفى بترجمة كتاب «محمد على مؤسس مصر الحديثة» للمؤلف الفرنسى «چى فارچت» لأنى وجدت فيه شهادة موضوعية وموقفًا نزيهًا تجاه رجل تضاربت حوله الآراء بين مؤيد ومعارض سواء فى الداخل أو الخارج .

بدأت النهضة فى مصر على يد محمد على فى نفس الوقت الذى بدأت فيه النهضة فى اليابان . ولولا المؤامرات وتدخل الدول الاستعمارية للقضاء على المكاسب التى حققها محمد على لمصر لكان لها شأن آخر .

ولا يسعنى إلا أن أستشهد بما جاء فى جريدة الأهرام فى باب «حديث الصيام» فى رمضان عام ١٣٤٨ هـ الموافق يناير - فبراير عام ١٩٣٠م تحت عنوان : الحاج محمد على باشا .

«لا نزاع مطلقًا أن محمد على كان نعمة الله على مصر وكان مجدداً فى الدين والدنيا وكان أن ازدهرت مصر فى عصره إلى أن أصبحت جنة الشرق ومصدر هدايته ونوره .

ولاه المصريون أمرهم مما لا يزال أثراً خالداً فى بيوت السادات - آل مكرم وآل البكرى والسادات - وكان أن رفضت تركيا أن تجيب المصريين إلى رغبتهم فى تولية محمد على شئونهم ، ولكن المصريين صمدوا حتى ولى أمرهم وقد مكن الله لمحمد على فى الأرض ويسر له الغلبة على المصاعب ، وقد كان فى ظلم المماليك وتخريبهم ما قضى على مصر تماماً لولا نعمة وفود محمد على رحمه الله .

ويطول بنا المقام لو أننا حاولنا سرد جميع أعمال محمد على العظيمة فى سبيل تكوين المملكة المصرية من منابع النيل إلى مصبه ، والإشراف على الحجاز وكريد

وما إليهما ، ولكن المؤلم فى هذا التاريخ كله أن دول أوروبا لمّا شعرت بما وصل إليه محمد على من العظمة ، وأنه سيتخذ من مصر مقراً لامبراطورية عظيمة قد لا يسهل التغلب عليها فى الشرق اتفقت الدول الأربع ، انجلترا والنمسا وروسيا وبروسيا أى ألمانيا ، على تهديد محمد على إذا لم يقبل شروط الصلح التى وضعتها تركيا . ولكن محمد على رفض رفضاً باتًا أن يؤخذ بتهديدهن إذ تبين أن كل ما ترمى إليه هذه الدول هو حرمانه من ثمرة انتصاره العظيم .

فى سنة ١٨٤١ أملى الحلفاء بشروطهم التى أسموها معاهدة (لوندرة) على محمد على وأنذروه بأنه فى حالة الرفض سيضطرهم إلى رمى الإسكندرية بالقنابل ، وقد كانوا يرغبون جداً فى إنفاذ هذا التهديد ، وفعلاً اضطر العزيز محمد على إلى إمضاء معاهدة لوندرة المظلومة وقد منحته حق التمتع بحكم مصر والسودان هو وذريته ، ولكنها حددت جيشه إلى ١٨ ألفًا وحظرت عليه بناء سفن حربية .... إلخ .

ومع ذلك فاسمعوا يا سادتى القراء وما أشبه الليلة بالبارحة . لم يسع بريطانيا بالرغم من هذا البلاء الذى أنزلته بمصر طمعًا فى امتلاكها إلا أن اعترفت لمحمد على بخدماته الجليلة للعالم بأسره ، فأهدت إليه مدالية خاصة نقشت على أحد جانبيها صورة محمد على وكتب على الجانب الآخر الكلمات الآتية (إلى مشجع التعليم والتجارة والإصلاحات وحامى الرعايا الأجانب وأموالهم ومعيد الطرق البرية إلى الهند) ، فإذا كان هذا هو رأى إنجلترا فى محمد على ، فما رأى الأمة المصرية التى أنقذها من بلاء كاد يمحقها جميعًا ، وأبدل خوفها أمنًا وجوعها شبعًا وجدبها نماء وخصبًا » .

مقدمة

فتنت مصر بسحرها على مر العصور كل من زارها، وراودت خيال الفرنسيين وأصبحت حلم المسافرين إليها خاصة فى نهاية القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر ؛ فمن حملة بونابرت الشهيرة إلى رحلة شاتوبريان الشاعر الرومانسى ، والاكتشافات المذهلة لشامبليون عالم الآثار الشهير وكذلك الفترة الممتعة التى قضاها الأديب الروائى جوستاف فلوبير (Gustave Flaubert) فى مصر .

وما إن يجتاز المسافر نقطة العبور وينهى الإجراءات الإدارية الكثيبة حتى ينبهر بالموقع الفريد للقاهرة ونهرها وشواطئه الساحرة ومآذنها العديدة للمساجد وشوارعها الممتدة وسكانها الذين تعج بهم الشوارع ، كما تبدو الأهرامات عن بعد على مسافة غير بعيدة من المدينة . وإذا كانت تلك الصورة تعطى انطباعا عن ذكريات الماضى البعيد ، فإنها لا تزال ماثلة فى كل لحظة وفى كل منعطف من شوارعها ، وتجذب السائح حتى أيامنا هذه .

كانت مصر فى نهاية القرن الثامن عشر تعطى انطباعًا بأنها فى حالة سبات عميق لم تستيقظ منه منذ قرون طويلة وظهرت الآثار الدالة على الحضارات المدهشة وقد دفنت تحت الرمال . وعبّر بونابرت عن إعجابه عندما وصل إلى مصر ووقف أمام الأهرامات وأبى الهول قائلاً : « أيها الجنود ، إن أربعين قرنًا من الزمان تنظر إليكم » .

عرفت مصر منذ نهاية العصر الفرعونى الذى انتهى عام ٥٢٥ (ق . م) . ثلاثة قرون من السيطرة الإغريقية وسبعة قرون من الحكم الرومانى وثمانية قرون من الحكم العربى ، ولم تكن الإمبراطورية الفرعونية هى التى واجهت الإسكندر الأكبر ولا البطالمة الذين عرفوا يوليوس قيصر وكذلك الأمويين والطولونيين والفاطميين الذين حكموا

البلاد بعد الغزو العربى ، كما لم يلتق صلاح الدين بالفراعنة عندما استرد بيت المقدس من أيدى الصليبيين .

وقد حلت دولة المماليك محل السيطرة العربية ، يرجع أصل المماليك إلى عام ١٢٣٠م عندما قرر أحد سلاطين الدولة الأيوبية شراء حوالى ١٢ ألف من الشباب من جورجيا أو الشراكسة من القوقاز ليكوّن بهم نواة جيش شجاع ومدرب على فنون القتال . وكان يطلق على هؤلاء الشباب المماليك (ومعناها إنسان تم شراؤه) وسرعان ما أصبحوا قوة داخل البلاد التى كانت فى حالة تفكك ، وقبضوا على زمام الأمور وخلعوا السلطان واستولوا على السلطة عام ١٢٥٠ م ، وأنشأوا حضارة تتسم بالترف والبذخ وشيّدوا مبان لازالت حتى أيامنا هذه فى داخل القاهرة . وأخيراً غرق العصر المملوكى فى غياهب اللامبالاة والفوضى وهزمهم السلطان العثمانى سليم الأول عندما دخل مصر عام ١٥١٧ م وأمرهم بأن ينادوا به خليفة للمسلمين وأبقى على نظامهم على أن يكونوا تحت سيطرته .

الوضع فى مصر فى نهاية القرن الثامن عشر :

تولى المماليك القيام بالتنظيمات الإدارية للبلاد حيث قسموها إلى ٢٤ إقليم وعينوا حاكماً من المماليك على رأس كل إقليم ويطلق عليه لقب « بك » . كانت الأقاليم الأربعة والعشرون تشكل ما يعرف باسم الديوان وهو عبارة عن مجلس الحكومة برئاسة الباشا الذى كان يعينه سلطان الإمبراطورية العثمانية ، وكان على البكوات أن يدفعوا إتاوة للسلطان ولكن بمرور الزمن تحرروا من هذا الالتزام الذى كان يكلفهم الكثير ، كان السلطان فى حاجة دائمة للأموال لتحسين وضع الإدارة والجيش والإنفاق على الحريم .

فى عام ١٧٩٨ م ، نزل بونابرت على أرض مصر وكانت البلاد فى ذلك الوقت تحت حكم جماعى مكوّن من اثنين من البكوات هما :

- الأول (إبراهيم بك) ويحمل لقب رئيس الأمة (شيخ البلد) .

– الثانى (مراد بك) أمير الحج وقائد الجيش .

كان السكان فى ذلك الوقت يتكوّنون من عرب وأقباط .

وكان الأقباط يشكلون نسبة ٧ ٪ من عدد السكان وتعدادهم لا يتجاوز مائة وخمسون ألفًا ، أما العرب وهم الأغلبية فكانوا حوالى مليونى نسمة واستقروا فى أرض مصر عقب الغزو العربى عام ٦٤١ ميلادية ، وكانوا إما حضر أو بدو ، ويشكل الحضر الأغلبية الساحقة حيث كانوا يسكنون فى المدن والدلتا ووادى النيل وكانوا إما فلاحين أو تجاراً ، أما البدو الرحل ، فكانوا يقطنون فى الصحراء يرعون الأغنام والإبل ، وكانت أعمال النهب والسلب جزءاً من نشاطهم التقليدى ويغيرون من وقت لآخر على سكان المدن . وبالرغم من عمليات الابتزاز الموسمية التى يقوم بها هؤلاء البدو ، فقد كان لهم دور فى النشاط التجارى الذى كان سائداً فى العصور الوسطى عن طريق قوافلهم القوية التى تقوم بنقل البضائع بين البحر الأحمر ووادى النيل والقاهرة ، مما ساعد على ربط مصر بجيرانها الرئيسيين مثل سوريا والعراق والجزيرة العربية أو السودان . وبدون هؤلاء البدو الرحل ، كانت البلاد ستظل معزولة عن العالم العربى ولا يتم اتصالها بالعالم الخارجى إلا عن طريق ميناء الأسكندرية والطريق البحرى . كان المجتمع المصرى قبل الحملة الفرنسية ينقسم إلى فئتين متمايزتين وهما الحكام والمحكومين .

فالحكام : من الأرستقراطية التركية والبكوات المماليك ولهم السلطة والنفوذ وعاشوا فى عزلة اجتماعية عن سائر فئات المجتمع .

أما المحكومون المصريون : فهم من الأقباط والعرب .

والغريب أن يظل عدد المماليك ثابتًا (حوالى اثنا عشر ألفا) ليس بسبب قوانين صارمة كانت تفرض عليهم فى ذلك الوقت وإنما بسبب التحديد الطبيعى للمواليد وهو أمر يدعو للدهشة فى ذلك الوقت .

كان يتم اختيار المماليك عند شرائهم من الشبان الذين يتميزون بالصحة والجمال ويلتزمون بالمحافظة على لياقتهم البدنية ، وكانت نساؤهم – بحكم العادات الاجتماعية

يملن إلى الكسل وعدم الحركة مما جعلهن بدينات وبالتالى فقدن الجاذبية ، الأمر الذى أدى إلى ابتعاد أزواجهن عنهن واللجوء إلى وصيفاتهن الشابات كتعويض عن زوجاتهن . نسى المماليك أصولهم وبلادهم الأصلية التى جاءوا منها وكان كل همّهم المحافظة على قدرتهم وسطوتهم وثرواتهم غير ملتزمين بأى أيديولوچية ، بل كانوا عبارة عن عصابة جبارة يستغلون البلاد لأغراضهم الشخصية . وقد طلب السلطان من الباشا أن يعهد بتكليف عدد كبير من الموظفين يتولون وظائف السلك الدبلوماسى والجيش والمالية .

يجتمع العرب والأتراك فى المسجد لأداء الصلاة كلهم سواسية أمام الله واضعين جنبًا خلافاتهم ومشاجراتهم لحين الخروج من المسجد .

وتذكرنا العلاقات التى كانت قائمة عن بعد بين الإمبراطورية العثمانية ومصر بتلك التى عرفناها فى منتصف القرن العشرين بين القدس الاستعمارية الأوروبية ومستعمراتها عندما بدأت تلك المستعمرات تتمتع بنوع من الحكم الذاتى ، إلا أن الفرق بينهما يتمثل فى أن تركيا لم تفكر فى ذلك العصر فى إجراء أى تطور فى القوانين والتشريعات الخاصة بالحيازات ، هذا بالأضافة إلى أن الإسلام يشكل رابطًا بين تلك الدول خاصة فى مواجهة الأوروبيين .

أما بالنسبة للقوات العسكرية فى مصر ، فإنها كانت تابعة للسلطة فى أستامبول ؛ وكانت مكوّنة من فرق برية تركية مقيمة فى القاهرة وتتبع مباشرة الوزير الأعظم أى رئيس الوزراء العثمانى ، كما كان يوجد أسطول ترسى سفنه فى أبى قير تحت إمرة قبطان باشا (الأميرال الأعظم للأمبراطورية) . أما المماليك فكان لهم جيش خاص بهم يعسكر فى القاهرة ويتلقى أوامره من إبراهيم بك أو فى الوجه البحرى ويتلقى أوامره من مراد بك .

إلا إنه فى نهاية القرن الثامن عشر حدث لمصر حدثان أيقظاها من سباتها العميق وربطا الماضى التليد الملئ بالحضارة المصرية بالحاضر الجديد .

– الحدث الأول : الحملة الفرنسية والنتائج التى ترتبت عليها .

– الحدث الثانى : مجىء محمد على إلى مصر، وتوليّه الحكم، وإعطاؤه مصر حكمًا ذاتيًا، طالما انتظرته مصر منذ قرون طويلة . وقد ساعد التدخل العسكرى لنابليون بونابرت فى مصر على إتاحة الفرصة لمجىء محمد على إليها كقائد عسكرى ضمن الحملة التى أرسلها العثمانيون، وتمكن بعدها من الاستيلاء على السلطة .

الفصل الأول

الحملة الفرنسية على مصر

مقدمة

كيف يمكن تصور القيام بعملية كبيرة كهذه بمجرد خروج فرنسا من الثورة ولم تنته بعد الانقلابات التى جاءت نتيجة لتلك الثورة ؟

ربما بسبب تواجد أسباب متنافرة ، اتحدت فيما بينها مما ساعد على الإعداد لهذه الحملة غير المتوقعة .

أصل الحملة

ظهرت الفكرة منذ أيام لويس الخامس عشر عندما فكر شواسول (Choiseul) وزير العلاقات الخارجية فى الانتقام من إنجلترا عندما خرجت فرنسا مهزومة فى كندا على يد الإنجليز ، وبموجب معاهدة باريس ١٧٦٣ م ، أجبرت فرنسا على ترك ممتلكاتها فى أمريكا باستثناء لويزيانا وجزر الأرخبيل ، وبذا انتهت أحلام فرنسا بالتوغل فى أمريكا على الرغم من أن استقرار فرنسا فى أمريكا كان قويًا كما ذكر بييرجاكسوت (Pierre Gaxotte) فى كتابه عن لويس الخامس عشر أن أمريكا إن لم تكن فرنسية فعلى الأقل تظل ناطقة باللغة الفرنسية ؛ ولكى ينتقم الفرنسيون من ذل الهزيمة التى لحقت بهم على يد الإنجليز ، قررت أن تقطع الطريق التجارى المؤدى إلى الهند وذلك بدلاً من استئناف القتال فيما بين انجلترا وفرنسا . ولكى يتم ذلك تقوم فرنسا بغزو مصر لضرب مصالح انجلترا الحيوية فى الهند عن طريق مصر ، وبذا فقد

انتصر مشروع غزو مصر ليحرم انجلترا من الحصول على أسواق لتصريف منتجاتها وتقويض الامبراطورية البريطانية فى الشرق وإقامة إمبراطورية فرنسية هناك وتسهيل مرور التجارة الفرنسية إلى الشرق بدلاً من طريق رأس الرجاء الصالح الذى يسيطر عليه الأسطول البريطانى . ولذا فإن احتلال فرنسا لمصر يمثل طعنة قاسية للصناعات والتجارة البريطانية وحرمانها من إقامة علاقات سريعة وقوية مع أكبر مستعمرة بريطانية وهى الهند .

وطوال القرن التاسع عشر وحتى افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ م ظلت انجلترا تخشى قيام فرنسا بقطع الطريق الرئيسى إلى الهند وبالتالى تهديد مصالحها الحيوية. لقد كان مشروع غزو مصر مجرد فكرة تختمر فى الأذهان لأن الوزير شواسول لم تكن لديه الإرادة السياسية على تنفيذ هذا المشروع ، وبذا فكرت فرنسا فى إيذاء عدوها اللدود وذلك عندما ثارت المستعمرات الأمريكية ضد الوطن الأم ، فقدمت فرنسا مبادئها الجديدة للثوار والمتمثلة فى الحرية والأخاء والمساواة ، وأصبح لافاييت بطلاً قومياً للولايات المتحدة الجديدة فى أمريكا .

واجهت الثورة الفرنسية صعوبات داخلية وتهديدات خارجية على حدودها ، ولذا لم يكن يدور فى خلد أحد القيام بمغامرة لغزو مصر إلا عندما تبنى تاليران عام ١٧٩٧م الفكرة التى نادى بها شواسول واقتنع بها نابليون بونابرت وحصل على مساندة وتأييد حكومة الإدارة التى كانت قائمة فى ذلك الوقت فى فرنسا وذلك بمهاجمة انجلترا .

وفى نهاية عام ١٧٩٧ م درس إمكانيات إنزال بحرى على شواطئ انجلترا عن طريق المانش لكن سرعان ما تراجع عنها لأن الأسطول الأنجليزى فى ذلك الوقت كان قوياً بدرجة كبيرة ولذا فقد تمّ استبدال الهجوم على شواطئ إنجلترا بالتوجه إلى الشرق لغزو مصر ، وكان أحد أعضاء حكومة الإدارة يحلم بجعل مصر ولاية فرنسية ، إذ كانت من قبل ولاية رومانية .

شعرت حكومة الإدارة فى فرنسا بتخوف كبير من بونابرت نتيجة لشعبيته الكبيرة وانتصاراته فى أوروبا، ولذا لم تمانع فى تركه يقوم بمغامرة فى الشرق البعيد لتأمن امتداد نفوذه وشعبيته فى أوساط الشعب الغربى ، وبالإضافة إلى ذلك ، كان هناك

رأى آخر وضعته حكومة الإدارة فى الاعتبار وهو أن مصر عليها أن تتطلع إلى عصر النور الذى هب على فرنسا فى نهاية القرن الثامن عشر والذى صاحب الثورة الفرنسية وأن الرأى العام الفرنسى يشعر بالخزى من ترك دولة كان لها السبق فى الحضارة منذ آلاف السنين تجد نفسها الآن فى سبات عميق مكبلة فى أحضان الإمبراطورية العثمانية ، ولهذا السبب فقد راهنت الحملة على إيقاظ وإحياء ماض عظيم وإنجاز مهمة حضارية فى قطر يحتاج إلى النمو ورفع شأنه وإعلاء قدره ؛ ذلك هو الجانب الاستعمارى فى العملية .

وعلى ذلك فإن نابليون بونابرت بدافع التحريك والإغراء من جانب حكومة الإدارة لم يكتف بالحملة العسكرية بل أدخل فيها بصورة غير مسبوقة عدداً كبيراً من العلماء والمهندسين ، ومن علماء الرياضيات فورييه (Fourrier) وعالم الطبيعيات جوفروى – سانت هيلار (Geoffroy Saint - Hilaire) واثنان من العلماء اللذين أسسا كلية الهندسة هما مونج (Monge) عالم الهندسة والكيميائى بيرتوليه (Bertholler) . وقد بقى عدد كبير منهم فى مصر وقاموا بأداء دور رئيسى كمستشارين لدى محمد على الذى لم يتردد فى منحهم مسئولية إعداد الخطة الأولى . لم ينس تاليران (Talleyrand) أن مصر لم تكن فى ذلك الوقت دولة مستقلة ولكنها تشكل جزءاً من الأمبراطورية العثمانية ، وقد لعبت الدبلوماسية الفرنسية دوراً بارزاً فى إبلاغ الحكومة التركية وإحاطة السلطان علماً بأن الحملة لم تكن موجهة إليه ولكنها موجهة بصورة غير مباشرة ضد إنجلترا . خاصة وأن السلطان حليف تقليدى لفرنسا . وفى الواقع ، فإنه رغم التحفظات الشفهية من جانب الدبلوماسيين ، فإن فرنسا عقدت العزم على مهاجمة إحدى ممتلكات الإمبراطورية العثمانية ولولا حالة الضعف التى كانت عليها تلك الإمبراطورية ، ما تمكنت فرنسا من تنفيذ الحملة على مصر .

سبب آخر ساعد على إسراع فرنسا بالقيام بتلك المغامرة . فقد ذكر الاقتصادى الأمريكى بيتر جران فى كتابه « مصر فى القرن التاسع عشر » أن الزراعة فى جنوب فرنسا فى حالة تدهور ، وقد حدثت اضطرابات وهياج فى مارسيليا فى سنوات ١٧٩٠م نتيجة للمجاعة . وترى السلطات الفرنسية والأوساط الاقتصادية أنه من الضرورى انتهاز الفرصة للاستيلاء على الأراضى الزراعية الممتازة فى دلتا مصر وذلك

بعد ثلاثين عامًا من استيلاء فرنسا على الأراضى الجزائرية ، وهذا دليل آخر على الطابع الاستعمارى للعملية .

وأخيراً ، هناك سبب شخصى دفع نابليون بونابرت إلى الاهتمام بمصر .

فقد ذكر هنرى لورنس (Henry Laurens) فى كتابه « الحملة على مصر » أن فرويد فكر فى دافع آخر بالنسبة لبونابرت : « يرى فرويد – فى هذا الهوس من جانب بونابرت على الشرق وخاصة بالنسبة لمصر – تأثير العقدة النفسية الكامنة لدى بونابرت عن يوسف عليه السلام » ، الرغبة فى الانتقام من أخيه الأكبر حيث كان يرى فى يوسف منافساً له وبذلك صب عليه كراهيته ، وبعد انتقال الكراهية إلى مواضيع أخرى ، انقلبت الكراهية إلى حب ، لذا قرر التوجه إلى مصر أرض اختيار يوسف كما جاء فى التوراة أو يتزوج بونابرت من جوزفين . وهذا التخبط من جانب بونابرت إنما يظهر عقدته النفسية التى يستمد منها كل قوته .

بدء تنفيذ الحملة :

بعد أن حصل نابليون بونابرت على موافقة حكومة الإدارة ، بدأ بتجميع قواته بسرعة تدعو للدهشة . تم تشكيل الجيش من ٣٥ ألف رجل منهم ألفى ضابط جميعهم لديهم خبرة طويلة فى فنون القتال ومن الذين اشتركوا فى الثورة الفرنسية ، ووضع الأسطول تحت قيادة القائد العام : ١٣ سفينة حربية كبيرة وحوالى أربعين سفينة قتال أخرى بالإضافة إلى ٣٠٠ سفينة نقل . تحرك الأسطول من ميناء طولون فى ١٥ مايو ١٧٩٨ م ، وكان نابليون على ظهر السفينة « الشرق » وهى سفينة أمير البحر ويصحبه جنرالات الجيش والعلماء .. كان نابليون على يقين من نجاح حملته من خلال مناقشاته الممتعة مع العلماء والقادة، كما أن نجمه الاسكندر الأكبر أعطاه مزيداً من الثقة فى نفسه .

فى البداية ، تم كل شئ على مايرام ، فقد تجنب الأسطول الفرنسى بمهارة أسطول القائد البريطانى نيلسون الذى اندفع لملاحقته ولم يتمكن من ملاقاته فى البحر

الأبيض المتوسط ، فى يوم ٢٧ يونيه ١٧٩٨ م نجح نابليون فى النزول بقواته فى وقت واحد فى الموانئ المصرية الثلاث : الاسكندرية ودمياط ورشيد .

تعقب الجيش فلول المماليك الذين لم يكن لديهم أدنى خبرة فى الدخول فى حرب حديثة واستولى الجيش الفرنسى على القاهرة فى ٢٧ يوليه ١٧٩٨ م ، ورغم ذلك فقد كانت المعارك ضارية ، فقد أنهك الفرسان المماليك المهرة الجنود الفرنسيين وساعد على ذلك شدة الحر لأن اختيار الوقت كان فى غير صالح القوات الفرنسية وساعدت حرارة الصيف الشديدة والعطش وسوء التغذية وقلة الحماسة لهذه الحرب على هلاك عدد كبير من قوات نابليون، وكانوا يفضلون الموت دفاعاً عن حدود أوطانهم داخل أوروبا .

أما عن المهمة الحضارية للحملة ، فلم يدرك الجنود ولا حتى الضباط الدور الذى جاء من أجله العلماء فى الجيش واعتبروا ذلك ثغرة لاطائل من ورائها وأنهم بمثابة أوصياء على الحملة ، وكانوا يطلقون عليها اسم « العير البيض » .

اتسمت المواجهة مع المماليك بالشراسة لكنهم فى النهاية هزموا وفروا إلى الصعيد لمواصلة القتال ضد الفرنسيين .

الاحتلال الفرنسى :

بمجرد وصول نابليون إلى القاهرة ، بدأ يتقرب إلى الشعب المصرى ويظهر بمهارة عداءه الشديد لنظام المماليك، وإنه جاء ليخلص المصريين من هؤلاء الأجانب الذين يحكمون مصر ويعمل على تمكين المصريين من حكم أنفسهم .

بدأ بونابرت فى اتخاذ عدة قرارات لإعادة تنظيم الإدارة والحكم فى مصر على نمط ما حدث فى فرنسا بعد الثورة : نقل السلطة إلى الطبقة الوسطى وهم الأعيان فى مصر ، وأنشأ ديوان القاهرة ويتألف من تسعة أعضاء من المشايخ والوجهاء للتداول فى أحوال العاصمة ، كما أنشأ ديواناً مماثلاً بالإسكندرية .

دواوين الأقاليم :

ويتألف فى كل مديرية من المديريات ديوان من سبعة أعضاء للنظر فى المصالح والشكاوى والعمل على منع المشاحنات بين القرى ويتولى جباية الأموال والضرائب على الأهالى .

لم ينس نابليون المهمة الثقافية للحملة فأقام المجمع العلمى المصرى وقد اختار لعضويته خلاصة علماء الحملة فى التخصصات المختلفة مع مجموعة من كبار القادة والضباط العسكريين الذين لهم باع فى العلوم وقد تألف المجمع من أربعة أقسام رئيسية وكل قسم يتألف من اثنى عشر عضواً : قسم الرياضيات - قسم للطبيعيات - قسم الاقتصاد السياسى - قسم الآداب والفنون .

وغرض المجمع العمل على تقدم العلوم والمعارف بمصر وإبداء الرأى العلمى للحكومة فى المسائل التى تستشيره فيها . وبعبارة أخرى العمل على ربط السياسة بالعلم وكذلك عرض المسائل الطبيعية والصناعية والتاريخية ونشرها .

وقد تمكن المجمع خلال فترة الحملة من إقامة مطبعة عربية وأخرى فرنسية وإنشاء جريدتين فرنسيتين إحداهما سياسية باسم (Le Courrier de L'Egypte) (أى الجوانب المصرية) .

شعر المصريون بالرضا لإعادة النظام فى بلادهم وأنهم أصبحوا بمأمن من تعرضهم لإبتزاز المماليك لهم ، واشترك نابليون مع المصريين فى الاحتفال بأعيادهم القومية مثل الاحتفال بعيد وفاء النيل ، وتمادى فى خداع المصريين فأعلن انتماءه للدين الإسلامى دون أن يتنكر للدين المسيحى كما فعل نفس الشئ فيما بعد أحد قواده مينو الذى لم يتردد فى التحول إلى الدين الإسلامى ليتزوج من مصرية .

وفى الوقت الذى كان فيه نابليون منهمكًا بإعادة تنظيم الحكومة فى مصر ، إذا بأمير البحر نيلسون القائد البريطانى يعثر على الأسطول الفرنسى فى ٣١ يوليه ١٧٩٨م متجمعًا فى خليج أبى قير فى المنطقة الواقعة بين الأسكندرية ورشيد فقرر مهاجمته بقوة، وعلى حين غرة استغل عنصر المفاجأة ودمر الأسطول الفرنسى فى

خلال يومين ، ووجد نابليون بونابرت نفسه فى موقف القائد الذى احترقت جميع سفنه وحكم عليه بالهزيمة ، ولم يسترح لهذا الموقف العصيب فى نفس الوقت الذى بدأت العلاقات بينه وبين المصريين تتدهور ، إذ قرر الديوان - بناء على طلب القائد العام - إجراء تعداد وحصر الممتلكات تمهيداً لتوزيع الضرائب العقارية مما أثار حفيظة السكان . كما أن الصعوبات الإدارية التى أوجدها ساعدت على قيام الثورة فى أكتوبر ١٧٩٨ م . وجد نابليون نفسه بدون أسطول ويواجه المسلك العدائى من المصريين ، ولكى يخرج من هذا المأزق الذى وجد نفسه فيه ويجد مخرجاً باتجاهه نحو الشرق . فهل سيجد منفذاً يتوجه منه نحو الممتلكات البريطانية فى آسيا ؟ من غير المحتمل أن يحدث ذلك لأنه يدرك تماماً الوضع الذى وصل إليه .

قام بونابرت فى فبراير ١٧٩٩ م بحركة باتجاه سوريا، و بعد بدايات واعدة ، اتجهت قواته لمحاصرة عكا لكنه لم يستطع اقتحام مدينة عكا لأن الأسطول البريطانى كان يساعدها ضد قوات نابليون ؛ فقفل عائداً إلى مصر ، وفى ٢٣ أغسطس أحس نابليون بونابرت بأنه تعب من الشرق، وفى نفس الوقت بلغت بونابرت المتاعب التى تواجهها حكومة الإدارة فى فرنسا مع النمسا وحلفائها فقرر العودة سراً تاركاً أمر الحملة فى مصر لنائبه كليبر .

النهايـــــة :

واجه نابليون بونابرت الصعوبات التى ألمت به من جانب الأتراك والانجليز بشجاعة كبيرة وحماسة منقطعة النظير ، كما قامت القاهرة بثورة أخرى واتخذ قائد منطقة القاهرة الجديد إجراءات تعسفية لسحق العصيان ، وفى نفس الوقت قدم برنامجاً لمشاريع ضخمة كانت اللبنة الأولى للتنمية الاقتصادية التى سار على منوالها محمد على فيما بعد . ولسوء الحظ اغتيل كليبر فى ١٤يوليه ١٨٠٠ م على يد طالب أزهرى كان جاسوساً للعثمانيين ، وخلفه الجنرال مينو واعتنق الإسلام وتزوج بمصرية ويبدو أنه حاز القبول من المصريين مما أمكن تهدئة المواقف وتخفيف النتائج المترتبة على القهر الذى أوجده كليبر . كان الهدف الأكبر لمينو جعل مصر مستعمرة للجمهورية

الفرنسية ويكون حاكمها، وسوف يتمكن بمساعدة الإدارة العسكرية الفرنسية أن يتعرف على الإدارة اليومية لشئون الأعيان ، لكنه لاحظ أن الولاء يتجه فقط إلى الأتراك والمماليك ، كما أن هؤلاء الأعيان فى انتظار مجىء محمد على لمساعدتهم فى صراعهم ضد الأجانب الذين يستحوذون على السلطة قبل مجىء نابليون بونابرت ، ولم يكن مينويتمتع بالعقلية الفذة أو الذكاء الخارق الذى كان لدى من سبقوه ، ونسى أنه يوجد في بلد فى حالة حرب مع دولته، فدخل فى صراع مع جنرالات الجيش الذين كانوا ينظرون إليه على أنه بيروقراطى أكثر من كونه قائد حربى . لكن الإنجليز لم يتركوا الفرصة تضيع منهم ، فقد رست قوة، إنجليزية – عثمانية، فى ٨ مارس ١٨٠١ لطرد الفرنسيين ، وكان محمد على ضمن القوة العثمانية التى نزلت أرض مصر وهو أول احتكاك له بمصر ، وأرسل السلطان رئيس وزرائه إلى مصر الوزير الأعظم ليؤكد تمسكه واحتفاظه بالسلطة على مصر ، وبعد معارك وصدامات ، تم أسر مينو فى الإسكندرية واستسلم وتنازل عن مصر وغادرت بقايا الحملة الفرنسية مصر عائدة إلى فرنسا فى ٣٠ أغسطس ١٨٠١ م وغادر منهم الأغلبية الساحقة من العلماء باستثناء عدد قليل منهم قرر البقاء فى مصر .

← النتائـــج :

على الصعيد العسكرى لم تحقق الحملة النتائج التى كان نابليون بونابرت يأمل فى تحقيقها ، لكنها لم تفشل فشلاً ذريعًا رغم فقد ١٣ ألف رجل وتدمير الأسطول الفرنسى فى أبى قير على يد نيلسون .

وحققت الحملة تقدمًا كبيرًا فى النواحى العلمية والاقتصادية والسياسية . وقد قام العلماء بجمع معلومات ضخمة عن مصر فى مختلف المجالات، وبناء عليها صدر كتاب « وصف مصر » وهو أول موسوعة حديثة عنها ، وقد استغرق إعداد هذا الكتاب خمسة وعشرين عامًا من الدراسة قبل صدوره ، ويعتبر بداية لدراسة علم المصريات . وبعثور شامبليون على حجر رشيد تمكن من قراءة اللغة المصرية القديمة وما يترتب على ذلك من فتح أبواب التاريخ المصرى القديم .

وقد توسع المجمع العلمى المصرى فى تقديم دراسات وأبحاث شملت العناية بالترع والقنوات وتحسين مياة الرى والشرب وإنشاء المصانع . وأخيراً فإن الدراسات التمهيدية التى تم تنفيذها أتاحت الفرصة لتحقيق أعمال ضخمة قام بها محمد على فيما بعد مثل شق قناة السويس .

ومن بين الخبراء الذين بقوا فى مصر أو عادوا إليها فيما بعد لخدمة مصر. الكولونيل سيف الذى عرف فيما بعد باسم سليمان باشا الفرنساوى .الذى قام بتنظيم الجيش وكلوت بك الذى اهتم بشئون الصحة ولينان دى بيلفون للأشغال العامة، وفى مجال الزراعة وضع الفرنسيون برنامجًا للإصلاح الزراعى لكن لم يتم تنفيذ إلا القدر اليسير . لكن التنظيمات الخاصة بالملكية العقارية قد قلبت رأساً على عقب . فقد أدرك الفلاحون أنهم كانوا مضطهدين ويتعرضون لظلم فادح على يد حكومة أجنبية . وقد ساعدت ثورة الفلاحين ضد التنظيم المعمول به على ارتقاء محمد على السلطة .

وعلى صعيد السياسة الداخلية فقد أيقظت الحملة الفرنسية المصريين من سبات عميق وجعلتهم يرددون كلمتى حضارة وأمة، وهما الفكرتان الرئيسيتان اللتان تبنتهما الثورة الفرنسية وقامت شعوب الشرق باستيعابهما وترديدهما .

وشاهد المصريون الأتراك الأقوياء سادتهم التقليديين يهُزمون على أيدى الأوربيين المسيحيين . وكان ذلك بالنسبة لهم اكتشاف عالم جديد .

وأدركوا أن الاحتلال العثمانى ليس أبديًا بينما كانوا منقادين تحت إمرتهم ثلاثة قرون كاملة .

وظهرت فى نفس الوقت روح وطنية ، فقد أعطى نابليون بونابرت المثل عندما كان يستشير الديوان/فى جميع القرارات السياسية والإدارية ، بينما فى السابق لم يحاول الأتراك أو المماليك أخذ مشورة الأعيان المصريين بل كانوا يحتقرونهم .

ولقد كانت تلك البداية صغيرة جداً على الانفتاح وبالذات إعطاء الفرصة لإنشاء حكومة لمصر بواسطة سكانها الأصليين من المصريين أنفسهم .

وعلى المستوى الدبلوماسى ظهرت مصر من جديد على المسرح العالمى، ولم تعد كما كانت فى القرن التاسع عشر مجرد دولة تابعة للإمبراطورية العثمانية لا حول لها ولا قوة . وأدرك العالم موقعها الإستراتيجى على طريق الهند وفى الشرق الأوسط ، وسوف يعرف محمد على بما لديه من مهارة وعبقرية أهمية ذلك الموقع وقيمته ، غير أن مجيء الحملة الفرنسية على مصر قد ترك أثرًا مفجعًا فى العلاقات بين مصر وفرنسا ، فقد كانت سببًا فى بداية التدخل الإنجليزى فى مصر ، وحتى ذلك الوقت كان التدخل تجاريًا أو دبلوماسيًا فقط ، وفيما بعد ، اشتركوا فى عمليات عسكرية ثم تدرج خلال القرن التاسع عشر إلى التدخل بصورة زائدة عن الحد فى حكم البلاد واستمر هذا الوضع قرابة ١٥٠ عامًا إلى أن حصلت مصر على استقلالها ، وقد عرف محمد على كيف يستفيد من هذا الوضع لصالحه فى علاقته بفرنسا أو إنجلترا .

وهكذا ، فإن الصدمة النفسية التى نتجت عن الحملة الفرنسية قد أوجدت فى مصر حالة أتاحت الفرصة لرجل تميز بالذكاء النادر أن يكتشف موقع مصر الإستراتيجى وأهميتها ويستولى على السلطة ، كما أن اليقظة العنيفة للشعور الوطنى والتقهقر المذهل للعثمانيين قد أوجدوا ضرورة ملحة لمصر أن تختار زعيمًا لها . ومن المفارقات أن يكون محمد على الألبانى الأصل هو الرجل الذى ساقته العناية الإلهية لمصر والذى لا يمت بصلة إطلاقًا لمصر ، تمامًا كما كان نابليون بونابرت غير فرنسى عندما قدم من جزيرة كورسيكا واستولى على السلطة فى فرنسا ، لكن الزعيم المقبل لمصر سيعرف كيف يلعب اللعبة بمهارة ويستخدم ورقة الوطنية والقومية لبلده بالتبنى ، وبالنسبة للعالم الخارجى فقد أحدث مجيء محمد على آثارًا ملموسة حول تطور الأوضاع فى الشرق الأوسط وسياسة القوى العظمى الغربية سواء على الصعيد الإقليمى أو فى أوروبا ذاتها .

الفصل الثانى

محمد على الإنسان ، الاستيلاء على السلطة وبداية عهد

ولد محمد على فى بلدة صغيرة على بحر إيجه فى مقدونيا تسمى قَوَلَهْ عام ١٧٦٩م، وهو نفس العام الذى ولد فيه نابليون بونابرت ومن نفس البلد التى ولد فيها الإسكندر الأكبر ، ويرجع أصل محمد على إلى الجزء الألبانى من مقدونيا فهو ألبانى ومن هنا يعتبر من رعايا الإمبراطورية العثمانية .

عمل والده إبراهيم أغا فى تجارة التبغ وهى الزراعة الأساسية فى هذا الإقليم . كما كان يستأجر سفنًا ، توفى والده مبكرًا وكفله عمه ، كانت حياة محمد على فى شبابه مضطربة وعاصفة مما أكسبه روحًا قتالية كما كان زعيم عصابة من الشبان المتململين مما سبب قلقًا لعمه ، وقد سارع عمه بزواجه وهو فى سن التاسعة عشرة من أمينة فؤاد طوغاى، وهى أرملة شابة وابنة عم حاكم الإقليم والتى كانت سببًا فى تحسين وضعه الاجتماعى والمادى ، أنجب منها ثلاثة أولاد : إبراهيم وطوسون وإسماعيل وتمكن بمساعدة زوجته وثروتها من القيام بتجارة وتصدير التبغ حيث أدار هذه العملية بكفاءة واقتدار ، وعاش طوال حياته يدير الأمور بدقة ومهارة سواء تلك المتعلقة بأموره الشخصية أو ما يخص شئون الدولة .

سئم محمد على من معيشته فى قوله وكان يقضى وقته يتأمل البحر وينظر بحسرة إلى السفن الغارقة والمغادرة ويتطلع إلى تحقيق أحلامه الكبيرة ، ومن حسن حظه أن تقابل مع بعض التجار الأجانب فى الميناء وتعرف على أحد التجار القادمين

من مرسيليا حيث كان يتردد كثيراً على قوله ونشأت صداقة بينهما حيث كان الشاب الألبانى متعطشاً للمعرفة، والتاجر الفرنسى ليون لديه الخبرة التى مكنته من مناقشة بعض المشاكل العالمية فى ذلك الوقت سياسية أو اقتصادية ، وبمجرد تولى محمد على السلطة سارع باستدعاء صديقه الفرنسى إلى مصر لكنه توفى قبل أن يصعد إلى المركب متجها إلى مصر .

كان ابن عم محمد على حاكماً للإقليم ويكن شعوراً طيباً تجاه محمد على ويتفهم رغبته فى السفر إلى الخارج ، واقترح عليه أن يتولى قيادة إحدى السفن الحربية لمطاردة القرصان فى بحر إيجه فقبل هذه المهمة بحماسة شديدة . ويبدو أن حياته كانت هادئة ومتواضعة إلى أن هيأ له القدر أمراً آخر ، ففى عام ١٨٠٠ م طلب السلطان العثمانى من الحاكم أن يجمع من منطقة قوله كتيبة قوامها ٣٠٠ رجل لتنضم للجيش التركى لمحاربة القوات الفرنسية فى مصر . وقد أذعن الحاكم لطلب ابنه بتعيين شاب هادئ الطباع يكون معه لما يتميز به من ديناميكية وطموح، وهذا الشاب هو محمد على . انضم الألبان إلى فيلق قوامه ستة آلاف رجل بقيادة قبطان باشا نفسه وكوتشوك حسين شقيق السلطان سليم فى الرضاعة ، تولى كوتشوك قيادة الأسطول إضافة إلى كونه رجل دولة من الطراز الأول .

نزل الفيلق فى ميناء أبى قير يوم ٨ مارس ١٨٠١ م ، وطوال الرحلة البحرية أصيب ابن الحاكم بدوار البحر وعانى كثيراً من المتاعب ، كما أن المعارك الأولى قد ثبطت من همته فقرر العودة إلى بلده وشجعه محمد على بحرارة على اتخاذ قراره هذا حتى يأخذ مكانه ، وبسرعة فائقة ثم ترقية محمد على إلى رتبة كولونيل ثم چنرال ، واندفعت عجلة التقدم إلى الأمام ولم تعد تتوقف بفضل كفاءته ونبوغه وعبقريته وحسن استغلال الأحداث لصالحه حتى وصل إلى أعلى المناصب ، ويرجع الفضل لأول ترقية حصل عليها إلى تواجد الحملة الفرنسية بمصر التى أتاحت له فرصة إظهار مواهبه العسكرية .

الإنســـــــان :

كان عمره اثنين وعشرين عامًا عندما وصل إلى مصر وهو رجل قصـير القامة ذو ملامح دقيقة وصارمة قوى البنية وجذاب خاصة نظراته ذات التأثير المبهر بعينيه الرماديتين ، كما يتميز بمسلك واضح ونظيف وعلى جانب كبير من الطهارة والنظافة وهو ماكان نادراً فى تلك الأيام فى الشرق حيث يأخذ حمّامًا يوميًا . كان ملبسه يتميز بالبساطة وهو عبارة عن البدلة التقليدية للعثمانيين وعباءة مبطنة بالفرو وروب وبنطلون منتفخ مع عمامة يرتديها بصورة دائمة .

حصل محمد على على تدريب عسكرى بدائى ورُقّى إلى ضابط بعد أن كان من ضباط الصف ، وعندما كان فى السابعة والأربعين من عمره قرر أن يتعلم القراءة لكنه لم يعرف الكتابة بتاتًا ولم يكن يتحدث أى لغة أجنبية بل لم يكن يعرف العربية ، وكانت لديه موهبة الذاكرة القوية وغريزته الفطرية التى تمكنه من معرفة الناس وتقدير المواقف السياسية ؛ هذا فضلاً عن تمتعه بموهبة طبيعية وخيال نادر ونظرة عميقة لآفاق المستقبل تجعله يدرك الأهداف البعيدة ويعمل على تنفيذها وفق إمكاناته ، ومع ذلك فإن حسن إدراكه للأمور تجعله يتوقف عن التمادى فى الاندفاع ويسير حسب مخطط إجمالى يتسم بالفطنة والحذر .

الطبـــــاع :

لم يكن محمد على مغامراً رغم توفر روح المغامرة لديه لأن قراراته دائمًا نتيجة لتفكير ناضج ولا تنفذ إلا بعد مناقشتها لأنه كان محاطًا بعدد من المستشارين المهرة ، كان البعض يقارنونه بالثعلب لما كان لديه من مكر ودهاء وآخرون بالأسد لنشاطه وقوته وروحه العدوانية .

وبفضل روح المؤامرة والدسيسة لديه فقد تمكن من المناورة بمهارة داخل جهاز الحكومة المعقد للإمبراطورية العثمانية ، وعندما تقدم به العمر ، كان يفضل أن يكون محاطًا بشخصيات مثقفة كما كان يستقبل بترحاب العديد من الأوروبيين القادمين لزيارة القاهرة أو الإسكندرية ويحسن وفادتهم ويتمتع بالحديث معهم فى شئون بلادهم السياسية والأنظمة الاقتصادية لديهم . وقد استفاد كثيراً من تلك المحادثات ، وفى

أواخر أيامه انتابته حالة من الضعف والضحك الهستيرى بصورة انفرادية حتى إن زوّاره كانوا يخشونه وأصيب بحالة من السعال التشنجي وبعد أن يفوق منها تعود إليه نظراته الفاحصة والثابتة تجاه زواره .

تميز محمد على بالطموح الشديد لبلاده ولنفسه وبالتعطش الشديد للهيمنة السياسية والعسكرية وبالغطرسة والكبرياء ، وعندما يجد نفسه محاطًا بالوزراء أو قادة الجيش أو كبار الموظفين ، كان يحلو له أن يتهكم عليهم بروح الدعابة سواء أكانوا أتراك أو مصريين . اتبع محمد على أسلوب جديد فى الإدارة الحديثة وذلك قبل اتخاذ أى موقف أو قرار نهائى وهو أن الخطر وعدم الأمان من العوامل المهمة للتقدم: وعليه ، فإن مرؤوسيه كانوا دائمًا على أهبة الاستعداد لتنفيذ أوامره بكل دقة ومدركين لأى مخاطر تعرضهم لفقد وظائفهم وليس بالطبع حياتهم .

وقد يلجأ أحيانًا إلى وسائل عنيفة مثلما حدث فى مذبحة المماليك بالقلعة والتى أظهر فيها قسوة رهيبة وقدرة على السيطرة المباغتة ، فهل اضطر إلى ذلك تحت حجة دواعى المصلحة العليا للدولة ؟ ولا يتفق كريستيان شامب مؤلف كتاب « شامبليون المصرى » معه فى هذا الرأى حيث ذكر فى كتابه أن شامبليون عندما قام برحلة نيلية إلى مدينة طيبة أشار مرشده الذى كان يصطحبه إلى شجرة جميز ضخمة معلق عليها جثث أبرياء مشنوقين لأنهم كانوا غير راضين عن الباشا وآخرين احتجوا على طغيان محمد على وقد وصل عددهم إلى أكثر من ثلاثمائة جثة .

وعلى ذلك لم يقدم التاريخ محمد على على أنه كان طاغية وربما تكون هذه الجثث للصوص الآثار لأن العدالة فى ذلك الوقت كانت سريعة ، وفيما يتعلق بمشاعر الحب فيبدو أن محمد على لم يتبع نهج نابليون فى هذا الصدد حيث لم تلعب النساء فى حياته دورًا بارزًا ، لأن زواجه بأمينة كان زواجًا تقليديًا هادئًا رغم أنها كانت زوجته الشرعية الوحيدة ويعاملها بحب واحترام ، وبعد أن أنجبت له خمسة أطفال ، ترك محمد على بلدته قوله متجها إلى مصر ولم تلحق به زوجته إلا بعد عشر سنوات ، وكان له حريم لرعايته كباشا ومنزل مدنى وآخر عسكرى ، وعُرف عنه أنه كان لديه عشرات المحظيات أنجب منهن ١٧ ولدًا و١٣ بنتًا ، لكن كل ذلك لم يكن شغله الشاغل وإنما كان يهتم فقط بأولاده الشرعيين لحل مشاكل الخلافة من بعده ، وقد حرص على أن يواصل أولاده الآخرين مراحل التعليم .

الديـــــن :

كان محمد على مسلمًا تقليديًا دون تعصب ، وقد سبق كارل ماركس صاحب المقولة الشهيرة « الدين أفيون الشعوب » فشجع المصريين على ممارسة الديانة الإسلامية والتعبد وتركوا له حرية تطوير مشاريعه الكبرى ، وقد ذكر إرنست رينان مؤلف كتاب « مؤلفات كاملة » والذى درس الديانة الإسلامية فى مصر أن « محمد على كان مسلمًا لكن دون تعصب وكان توّاقا للتعرف على تفوق الغرب » وفى الواقع ، كان الغرب بالنسبة لمحمد على نموذجًا يحتذى به ، وقد بذل كل ما يستطيع من أجل أن تنهل بلاده من حضارة الغرب ولكن دون مساس بالإطار الدينى ، وبعد قرن من الزمان، جاء مصطفى كمال أتاتورك فى تركيا ونادى برأى معاكس إذا اعتبر أن الإسلام يشكل عقبة أمام تطوير بلاده .

النقـــود :

هل كان محمد على يحب النقود ؟ فى الواقع تعتبر علاقاته مع النقود غير واضحة ومبهمة ، وذكرت بعض المصادر أن دخله السنوى كان يعادل ٢٠ مليون فرنك فرنسى ، بينما ذكرت مصادر أخرى أن دخله لم يكن يتجاوز تسعة ملايين فرنك فقط ، ولكن ماذا تعنى كلمة « دخل » بالنسبة للباشا إذا كان المرء لا يعرف إجمالى النفقات التى يتحملها أو لا يتحملها كحاكم لمصر ونائب السلطان : العناية بمنزله المدنى وبقصوره وزبائنه إلخ .... ؟ ومع ذلك ، فإن الزوار الأوروبيين كانوا يبدون دهشتهم من خلو قصوره من مظاهر الفخامة ومن كآبة العمارة والآثاث الذى لا قيمة له .

غير أن النظام الاقتصادى الذى وضعه – وارتفع خلال سنوات – أتاح له الفرصة فى أن يغتنى بصورة ملموسة ، « الإصلاحات الداخلية تدل على أن الباشا يحسن استغلال البلد ويديرها كما لو كانت إرثًا شخصيًا له ، فاستدعى خبراء وفنيين للإشتراك فى مسئولية « أملاكه » وبالتدريج ، كان يحتكر الأفرع الرئيسية للنشاط الاقتصادى » ، (عن كتاب مصر اليوم) .

الوطـــــن :

من بين الجوانب الغريبة فى شخصية محمد على تمسكه التام بهويته فى وطنه الجديد ، فقد أصبح هذا الألبانى أكثر مصرية من المصريين بمجرد اختياره زعيمًا لهم، وقارنه المؤرخ المصرى عبدالرحمن الرافعى بنابليون قائلاً : « كان نابليون كورسيكيًا ومحمد على مقدونيا ولكن كل منهما تقمص جنسية وطنه بالتبنى » ، ومع ذلك يوجد خلاف كبير بينهما فكورسيكا كانت فرنسية منذ فترة قليلة بينما مقدونيا إحدى ممتلكات الإمبراطورية العثمانية ولم تكن أبدًا تابعة لمصر .

وأضاف الرافعى قائلاً : « إن أساس الثقافة العربية – المصرية على يد مقدونى أمى لا يعرف القراءة أوالكتابة ومعجب بأوروبا لأمر يثير الدهشة والحماسة عبر التاريخ» ، وقد فرض التحفظ الضمنى للرافعى عن نوع من عدم التعرض لإخلاص محمد على ، وكان على المرء أن ينتظر قرنًا كاملاً حتى مجىء ناصر والسادات لكى يرى مصر وقد تبوأت مكانة مرموقة فى الشئون الدولية . الخلاصة « إن المواهب الشخصية لمحمد على جعلت منه استثناء : فليس لديه أى مستوى تعليمى من أى نوع ولكن ذكاءه السريع وقدرته فى تناول الأحداث التى تتسم بالمواقف التاريخية والتعامل معها تمكنه من تجاوز أى عقبات قد تقف أمامه » .

الاستيـــلاء علـــى السلطـــة :

الوضع بعد رحيل الفرنسيين :

لم يدرك محمد على أن السلطة أصبحت فى متناول يده إلا فى أغسطس ١٨٠١ م بعد رحيل الفرنسيين عندما حضر إلى مصر على رأس لواء ألبانى ولم يكن وقتها سوى جنرال متواضع فى الجيش العثمانى .

أما عن مصر فقد عمت فيها الفوضى لأنه بعد رحيل الفرنسيين وجدت نفسها تواجه المماليك والأتراك إضافة إلى الإنجليز ، غير أن موقف المماليك كان ضعيفًا بسبب قلة عددهم نسبيًا نتيجة للمعارك مع الفرنسيين ، وكانوا يطمعون بدورهم في استعادة حكمهم للبلاد بعد خروج الفرنسيين ، وبالنسبة للأتراك ، فقد تطلع السلطان العثماني إلى إعادة بسط حكمه ونفوذه على مصر ، فهل لديهم الوسائل الكفيلة بذلك ؟

وبالنسبة للإنجليز ، فكان همهم الشاغل هو منع عودة الفرنسيين إلى مصر ولم يكن السلطان العثماني راضيًا عن العملية العسكرية التى قام بها نابليون بونابرت على الرغم من مراعاة الحذر من جانب تاليران والاحتجاجات الودية لحكومة الإدارة ، فهل اتجه الأتراك إلى الإنجليز الذين كانوا مرتبطين معهم بمعاهدة وقعت فى يناير ١٧٩٩ م تتم بموجبها مساندة الأتراك ، كما تنص المعاهدة على ضرورة جلاء الإنجليز عن مصر بمجرد خروج الفرنسيين عن مصر ، ولم ينس نابليون بونابرت هذا الشرط فى المعاهدة ولم يتوانى عن تذكير الباب العالى بهذا الشرط إلا أن الجنرال الإنجليزى هتشنسون قائد القوات الإنجليزية فى مصر لم تكن لديه النية إطلاقًا فى مغادرة مصر وأبدى رغبته فى تأييد المماليك وعودتهم للحكم لأنه رأى من السهل المناورة معهم بدلاً من الوالى الذى أرسلته إستامبول .

بقى الوزير الأعظم وقبطان باشا في مصر لمحاربة المماليك وإخضاعهم لنفوذ السلطان ، وبدأت بوادر حرب أهلية تلوح فى الأفق ، وهو ما يعمل الإنجليز على تجنبه حتى لا يتخذها الفرنسيون ذريعة للعودة مرة أخرى إلى مصر .

إلا أن الوزير الأعظم وقبطان باشا فكرا فى حيلة لإيضاح الموقف ، فقد دعا قبطان باشا قائد الأسطول العثمانى الراسى فى أبى قير إلى حفلة على شرف فرمان « أمر سلطانى » بإعادة الإمتيازات والممتلكات إلى المماليك الذين بادروا بقبول الدعوة والترحيب بها وكانوا من المماليك المتواجدين فى الدلتا ، وما أن تواجدوا فى البحر حتى هوجمت زوارقهم بواسطة سفن الأسطول القوية وأبيد معظمهم .

ومن جانبه لم يهدأ بال الوزير الأعظم ، فقد دعا المماليك المتواجدين فى القاهرة وما حولها إلى إقامة حفل على شرف نفس الفرمان وعندما تواجدوا فى القصر أمر ضباطه بالقبض عليهم ولم ينج منهم إلا نفر قليل ممن توجسوا شرًا من هذه الدعوة

منهم الألفى بك الذى هرب إلى الصعيد ، وهكذا تم التعاون الوثيق بين القائدين البحرى والبرى ، إلا أن هاتين العمليتين أثارتا غضب الإنجليز بشدة وطالبوا بعودة المماليك الذين هربوا من المذبحة إلى الصعيد .

خســـرو باشـــا :

استأنف السلطان المبادرة ، ففى ٨ فبراير ١٨٠٢ م عين خسرو باشا واليًا على مصر وعاد الوزير الأعظم وقبطان باشا إلى القسطنطينية ، كان خسروا باشا رجلاً دمويًا وجشعًا وإداريًا غير حاذق إذ فرض ضرائب باهظة على الشعب الذى يئن من الفقر والضيق الشديدين ، لكن الإنجليز كانوا دائمًا يقظين فأرسلوا الچنرال ستيورات لمهمة تصالح لكنها لم تؤد لأى نتيجة .

جرت محاولات بريطانية أخرى للوساطة لكنها رفضت بأدب ، وأخيراً وفى ١١مارس ١٨٠٣ م تم جلاء الإنجليز عن الإسكندرية وسط شعور تام بالرضا من جانب نابليون بونابرت . وبقى الأتراك والمماليك وجهًا لوجه دون تغيير ظاهرى ومع ذلك حدث تطور داخل الجيش العثمانى ، فالألبان الذين يبلغ عددهم ستة آلاف والذين يشكلون قوة يرأسها طاهر باشا ومحمد على بدأوا يعودون إلى رشدهم ، وبدأ القائدان يتساءلان لماذا لا نستفيد من ضعف الوالى ونعمل لصالحنا ؟ وجاءت الفرصة بغتة فى مايو ١٨٠٣ م ، فقد عبّر الجنود الألبان عن استيائهم لعدم دفع الرواتب لهم وهاجموا الوالى التركى فى قصره إلا أن خسرو هرب إلى دمياط وأخذ سجينًا .

طاهـــر باشـــا :

عين طاهر باشا واليًا مكان خسرو باشا إلا إنه لم يستمر طويلاً فقد عجز هو الآخر عن دفع الرواتب ، واضطر إلى فرض ضرائب وإتاوات على الأهالى فأثار السخط العام . ومن ناحية أخرى احتجت الفرق العسكرية العثمانية (الانكشارية) على أسلوب طاهر باشا فى محاباة فرق الألبان على حسابهم فقتلوه .

بعد مقتل طاهر باشا أصبح محمد على القائد الوحيد للجند الألبان وكان عمره فى ذلك الوقت ٣٤ عاماً وأراد أن يحترم الشرعية ويظهر نفسه مدافعًا عن سلطة السلطان .

وبمهارة كبيرة وبخنوع مصطنع استقبل محمد على الوالى الجديد باحترام والذى عينه الباب العالى مكان خسرو ، وصل على باشا الجزايرلى إلى الإسكندرية فى يولية ١٨٠٣ م وهو عبد شركسى قديم جاهل وقاسى القلب ، فهمه محمد على بسرعة وعرف أنه دون المستوى ووقع بسرعة فى أيدى المماليك واغتالوه بعد ستة أشهر .

وجد محمد على نفسه وهو القائد للوحدة العسكرية الرئيسية فى الصف الأول للمرشحين للخلافة ، ولكن ، ومن أجل ذلك ، فهو فى حاجة إلى حلفاء يساندونه فى هذا المكان ، لذا قرر أن يقترب إلى عدد من المماليك حيث كانوا فى ذلك الوقت منقسمين إلى مجموعتين : البرديسى وينتمى إلى عشيرة مراد بك المفضل لدى الفرنسيين، والألفى بك الذى على صلة وثيقة بالإنجليز والذى كان قد قرر السفر برفقة الإنجليز إلى إنجلترا منذ ثلاث سنوات ، ولأن محمد على كان ميالاً للفرنسيين فقد تحالف مع البرديسى . وفى فبراير ١٨٠٤ م عاد الألفى بك من إنجلترا عقب فشله فى الحصول على تأييد إنجلترا له .

توجس محمد على خيفة من عودة الألفى ، لكن عداء البرديسى للألفى والمنافسة الحادة بين فرق المماليك وفّرت على محمد على الدخول فى صراع مباشر مع المماليك ، فقد قرر البرديسى اعتقال الألفى لكن الألفى هرب إلى الصعيد وأخذ يسعى فى تكوين جماعة تناصره . تولى البرديسى أمور الحكم فى القاهرة .

تحالف محمد على مع العلماء :

كان سكان القاهرة فى ذلك الوقت حوالى مائتى ألف نسمة . فى تلك الأثناء عانت البلاد من أزمة اقتصادية واضطر البرديسى إلى فرض الضرائب الكثيرة على كل الطوائف ، الأمر الذى أدى إلى قيام هيجان وثورة ضد البرديسى والمماليك عموماً مثلما كان الحال قبل مجيء الحملة الفرنسية .

وأمام تطور الموقف العام خشى محمد على أن تصيب الثورة جنوده فجاهر بالانضمام إلى العلماء والمشايخ ونزل بجنده إلى الشوارع واختلط بالأهالى الساخطين .

وبهذه السياسة كسب محمد على عطف الشعب وثقة زعمائه وبدأ الناس ينظرون إليه كرجل عادل يكره الظلم ، وانتهز محمد على موجة الغضب العام ضد المماليك فهاجم مراكزهم فى القاهرة وحاصر بيوت زعمائهم فهرب الجميع إلى الصعيد ، وتأكيداً على عدالة محمد على أمام الناس فقد أمر بإخراج خسرو الباشا السابق من السجن وأرسله إلى القسطنطينية ، واقترح على الباب العالى تعيين خورشيد باشا حاكم الإسكندرية واليًا على مصر ووافق الباب العالى على هذا الاختيار وتم تعيين خورشيد ، غير أن خورشيد الذى كان يراقب الحوادث لم يكن ليطمئن لموقف محمد على فعمل على التخلص منه وطلب من محمد على التوجه إلى الصعيد لمحاربة المماليك كما طلب السلطان العثمانى إرسال فرق عسكرية لتدعم سلطة الدولة فأرسل له السلطان فرقًا أخذت تعبث فى الأرض فساداً ونهبًا ، كذلك طلب من السلطان استدعاء فرق الألبان التى يتزعمها محمد على إلى استانبول فرفض محمد على تنفيذ ذلك بتأييد العلماء .

فما كان من خورشيد إلا أن استصدر من السلطان قراراً بتعيين محمد على واليًا على جدة لكنه لم يمتثل أيضًا استناداً إلى تأييد العلماء .

محمد على والياً على مصر :

اعتبر محمد على أن الفرصة قد سنحت له ولذا لم يعمل على تأجيلها أو إضاعتها ووضع فى اعتباره أن السلطة العثمانية فقدت الثقة وأصبحت سيئة السمعة وأنه حان الوقت للاستيلاء على السلطة وقرر أن يتخلى عن مطالبة العلماء والأعيان بتأييده لأنهم عزلوا خورشيد فى ١٢ مايو ١٨٠٤ م وطالبوا بمحمد على واليًا على مصر ، لم يتعجل بطء الأمور لأن الباب العالى لم يؤكد بعد تعيين محمد على ، لأنه أراد أن يتصرف بمظهر العدالة وبموقف غير عادى لصاحب نفوذ شرقى فى ذلك الوقت ، وقد دل ذلك على عمق نظرة محمد على للأمور لأنه وضع فى حسابه سياق الأحداث الدولية ، فهو

يعرف أن الإمبراطورية العثمانية رغم ضعفها الداخلى فإنها تحافظ على واجهة خارجية متماسكة لحد ما ، واستشعر كذلك العزلة التى بين الدول المختلفة وأن الوقت لم يحن بعد لإعلان التمرد على السلطة القائمة بالوصاية وأن القوى العظمى ستسحقه فوراً إن لم يلتزم بالمحافظة على القوانين العامة والاستقرار .

لم يعرف محمد على كيفية الحصول على موافقة استامبول على تعيينه ، فهو لم ينس أنه جنرال فى الجيش العثمانى ولا يريد أن يتهم فى يوم من الأيام بالتآمر ضد ممثل السلطة المركزية بالقاهرة .

ولهذا فقد ناقش الموضوع مع ممثل الزعامة الشعبية للأعيان عمر مكرم ، ومن المعروف أن الأغلبية الساحقة من الأعيان يتمتعون بالثراء ويتمنون تنمية أعمالهم فى جو من الهدوء السياسى والاستقرار بعيداً عن الحروب الأهلية والاحتلال الأجنبى ، كما يخشون حدوث تمرد شعبى أو عصيان شعبى وعدم استقرار الأمن أو أى حدث يعرقل أنشطتهم التى تدر عليهم ربحاً .

وأصبحت الارض ممهدة أمام محمد على لكى يتعاون مع عمر مكرم ، واقترح أن يحصل الأعيان على تأكيد من السلطان بتعيين محمد على واليًا على مصر ، وإزاء غياب رد فعل استامبول ، أرسلوا التماسًا إلى السلطان يطلبون فيه التصديق على اختيارهم ، وكم كانت دهشتهم عندما وافق السلطان على طلبهم ، ويعترف الباب العالى - ولأول مرة - أنه قد نسى أن المصريين يمكن أن يكون لهم رأى وكلمة مسموعة فى شئونهم الداخلية لبلادهم ، لذا فقد وافق على طلبهم بتعيين محمد على واليًا على مصر بالفرمان الصادر فى ١٨ يونية ١٨٠٥م وخلع خورشيد من وظيفته .

رفض خورشيد الانصياع لذلك بحجة أنه لم يطلع على المستند الأصلى ثم تحصن داخل القلعة بالقاهرة ، فأرسل الباب العالى مبعوثًا هو صلاح بك قطب ثم قبطان باشا بنفسه لمحاولة إيجاد حل لهذا النزاع ، غير أنهما فشلا فى مهمتهما انتهى الأمر بخورشيد بأسره وترحيله إلى الاسكندرية ، وكان خورشيد قد استدعى فرقًا عسكرية لتدعم سلطته فأرسل له السلطان فرقًا عرفت بالدلاة (ومعناه المتهورين المجانين) حيث أخذوا يعيثون فى الأرض فساداً ونهبًا . وعند رحيل خورشيد تبعه

حرسه الشهير هذا من الدلاة حيث عادوا إلى سوريا وقد أخذوا معهم عدداً كبيراً من النساء والجمال .

وبعد خسرو جاء طاهر وعلى الجزائرلى وهو المنافس الرابع الذى استبعد ، واستقر الأمر على محمد على وهو الأجنبى الذى اختاره المصريون زعيماً لهم . استعد لإنشاء أسرته التى حكمت مصر ، قامت ولايته على الشرعية ومساندة الشعب وهما ملاحظتان أساسيتان لرجل يريد فرصة نفسه للأبد كحاكم لمصر ويرى أعماله باقية ، فالرجال الأقوياء يعترفون بالإدراك المستقبلى للأحداث وبالفطنة عند معالجة أى موضوع عن قرب بينما الكثير من رجال السياسة حطموا مستقبلهم ومجال عملهم بجملة غير فطنة تفوهوا بها أو تصرف أحمق أو عدم نضج .

عـــودة المماليـــــك :

رغم أن محـمـد على لم يكن فى أول الطريق ، إلا أن الوضع ظل غـامـضـًا ومضطرباً ، ويبدو أن اعتراف السلطان بالوالى الجديد كان محل اعتراض رغم وجود الفرمان ، وباستثناء القاهرة وما حولها ، ظل المماليك سادة البلاد ، وعندما تأكدوا من عدم وجود السلطة الرسمية ، تشجعوا فى الظهور من جديد ، ففى يوم ١٨ أغسطس ١٨٠٥ م ، توغل أربعة بكوات وأربعمائة مملوك سراً داخل القاهرة ، إلا أن أصدقاءهم المقربين لم يستقبلوهم وأبعدهم العلماء ولجأ عدد منهم إلى مسجد مجاور إلا أنهم أسروا وقتلوا ، ويقال أن محمد على وضع كمينا لهم للتخلص منهم ، وقد فتحت المذبحة التى دبرت لبعضهم الأعين على عدم شعبيتهم ، فانسحب المماليك إلى إقطاعيتهم التقليدية فى الصعيد إلا أن محمد على طاردهم .

حاولت إنجلترا إقناع السلطان بخلع محمد على وإسناد ولاية مصر إلى محمد بك الألفى أو إلى أى والى عثمانى آخر كما كان الحال قبل ذلك ، بحيث تترك الأمور الداخلية للمماليك بدعوى الاستقرار ، استجاب السلطان العثمانى تحت ضغط اللوبى الإنجليزى وأرسل أسطولاً لمصر يحمل أمراً بتعيين محمد على والياً على سالونيك (فى مقدونيا) مع تسليم السلطة دون معارضة أو مقاومة إلى وال عثمانى جاء مع الأسطول فى ١٧ يونية ١٨٠٦ م .

تأكيد بقاء محمد على بمصر :

ظل قبطان باشا متحيراً وعاد ثانية إلى القسطنطينية دون أن يتخذ قراراً واحتاط للأمر بأن أخذ معه إبراهيم الابن الأكبر لمحمد على .

جاء فرمان جديد يؤكد تعيين محمد على واليًا على مصر وتثبيته مقابل دفع أربعة آلاف كيس نقود وألا تظل الموانئ الثلاث الإسكندرية ودمياط ورشيد تحت إمرة الحاكم وإنما تعود الحقوق الجمركية مباشرة لوزير خزانة الإمبراطور .

شرط آخر هو إقامة السلام مع المماليك ، ولم يجد محمد على مشكلة فى ذلك ، وفى الواقع مات الحليف الرئيسى لمحمد على مسمومًا – على الأغلب – من منافسه الألفى بك ، إلا أن الألفى بك مات بعده مباشرة .

وبموت الألفى بك ، انتهت آخر عقبة كانت تواجه سلطة محمد على ، استتب الأمن داخل البلاد ، وبدأ بناء دولة حديثة فى جميع المجالات السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية .

بدايـــة عهـــد :

لم تكن عملية صعود محمد على إلى السلطة أمراً سهلاً بل مرت خلال مسالك وعرة داخلية بحته فى الإمبراطورية العثمانية ، وهؤلاء الذين تدخلوا إما للإساءة بمحمد على أو لتأييده ومنهم المماليك وممثلى الباب العالى وكذلك الأعيان والعلماء المصريون ، وقد أدى العلماء دوراً بارزًا لصالح محمد على ، ولم يكن وصوله إلى السلطة عن طريق نفوذ أو ضغط أجنبى فرنسيًا أو انجليزيًا .

والسؤال الآن .... ماذا كان موقف القوى العظمى فى بداية ١٨٠٧ م فى مواجهة السلطة المصرية الجديدة ؟

وحتى ذلك الوقت لم تكن سوى فرنسا وإنجلترا اللتين يعنيهما الأمر فى المقام الأول ، أما القوى الأخرى مثل روسيا والنمسا ثم بروسيا فلم يتضح موقفهم إلا فيما بعد إزاء ظهور المشاكل .

تأييـــد فرنســـا :

كـان يمثل فـرنسـا فى مـصـر مـاتيـو ديليـسـبس والد فـرديناند ثم ابتـداء من عـام ١٨٠٤م حل مـحله دروفيتى ، وقد أبدى ديلسبس تحفظًا حذرًا تجاه مـحمـد على ، أما دروفيتى الذى حل مـحله ، فقد شـعر أن مـحمـد على سـوف يكسب الجولة فى صـراعه ضد المماليك على الرغم من تأييد الإنجليز الواضح والعلنى لحزب الألفى بك ، لم ينس نابليون مصر لكنه يسعى فى التأكد من وقوف الباب العالى ضد قيصر روسيا ولا يريد أن يقحم نفسه فى الشئون الداخلية للإمبراطورية العثمانية ، وفى أغسطس ١٨٠٦ م أرسل الجنرال سيبا ستيانى وهو كورسيكى الأصل مثله - سفيرا لفرنسا لدى السلطان سليم الثالث وكان نابليون قد أرسل سيبا ستيانى من قبل فى مهمة إلى مصر .

اقترح سيبا ستيانى على السلطان أن تساعده فرنسا عسكريًا لإعادة تنظيم الجيش التركى على أسس حديثة وتجهيزه بأسلحة ومهمات لا يمتلكها الجيش التركى ، وكـان نابليـون يعرف أن السلطان يقدر الحضـارة الغربيـة ، وفـضـلاً عن ذلك ، فـإن السلطان هو وكثير من الأمراء الشرقيين أو الغربيين كانوا مبهورين بالانتصارات التى حققها الإمبراطور نابليون ، وعندما يعرض السفير الفرنسى على السلطان أن جيشه سيتم تجهيزه وتنظيمه مثل الجيش الفرنسى الذى حقق الانتصار فإن ذلك كفيل بإغرائه لأنه إذا أراد المحافظة على وحدة وتكامل أراضى الامبراطورية لابد أن يكون لديه جيشًا قويًا وقوة تدخل فعالة وسريعة ، وكان نابليون ينوى تجهيز الجيش التركى بالأسلحة والمعدات الحديثة ويلى ذلك تحالف موجه ضد قيصر روسيا بالمقام الأول وبعد ذلك ضد الإنجليز .

اتخذ السلطان من هذا العرض موقفًا يتسم بالحذر والريبة وتجنب الموافقة السريعة خوفًا من أن يسبب إزعاجًا لإنجلترا وروسيا .

بذل نابليون بونابرت جهدًا فى محاولة التقرب لاستانبول ومصر رغم مشاعـــر العـــداء ضـــد الاحتـــلال الفرنسى والتى بدأت تتلاشى لأن الرأى العام (الا [illegible]

والتجار والشعب كذلك) يحتفظون فى ذاكرتهم بالأفكار التى نادت بها الثورة الفرنسية والتى انتشرت أثناء الحملة الفرنسية ، عرف دروفيتى أن يلعب بالأوراق التى يحتفظ بها ، فالتأييد المطلق لمحمد على أظهره وكأنه الصديق الحميم لفرنسا .

بدأ دروفيتى ، الإيطالى الأصلى حياته الوظيفية ضابطًا بالجيش الفرنسى ثم وصل إلى مصر عام ١٨٠٣ م كنائب للقنصل ومساعداً لماتيوديلسيبس .

ولم يكن لدى محمد على أى دراية بالسلك الدبلوماسى أو السياسة الخارجية لكنه كان مدركًا لمسئولياته تمامًا وكان دروفيتى لما يتمتع به من شخصية جذابة وأصالة جذوره يرشد محمد على بإخلاص فى هذا المجال ، وترك أثرًا كبيرًا فى توسيع مدارك محمد على فى شئون السياسة الأوروبية دون أن يأخذ رأى رئيسه الأعلى سفير فرنسا فى استانبول بل وكان دائمًا فى صراع مع قنصل إنجلترا ، ومن المعروف أن دروفيتى كان يهتم كثيرًا بالبحث عن الآثار بجانب عمله كقنصل لفرنسا وبقى فى منصبه حتى عهد الإصلاح ، لكنه ظل فى مصر بعد استقالته للتفرغ للتنقيب والبحث عن الآثار ، ثم أعاده لويس الثامن عشر إلى منصبه فى الفترة من ١٨٢١ إلى ١٨٢٥ م وتمكن من جمع عدداً كبيراً من القطع الأثرية رفضتها فرنسا فباعها إلى إحدى الدول الأوروبية الصغيرة الواقعة شمال غرب إيطاليا عام ١٨٢٤ م .

عــــداء محمد على لإنجلترا:

أحدثت المعاملة الطيبة من جانب فرنسا لمحمد على عداء الإنجليز الذين كانوا يبدون تحفظًا شديداً تجاهه ، وقد أعرب القنصل البريطانى الكولونيل ميسريت عن أمنيته بخلع صديق فرنسا وإعادة سلطة المماليك .

فمنذ أن تم سحق المماليك واختفاء الألفى بك - والإنجليز يخشون من غزو الفرنسيين لمصر مرة أخرى . بيد أن نابليون كان مشغولاً بحروبه ضد التحالف فى أوروبا (أوسترليتز ١٨٠٥ وإيلو ١٨٠٧ م) حتى يفكر فى الشروع بعملية تحول نحو الشرق لتهديد طريق الهند وبغض النظر عن الذكرى التى تركتها فى نفسه الحملة الأولى فقد وضع فى اعتباره مراعاة الباب العالى .

ساعدت الظروف نابليون واستغل الفرصة لتحقيق مطامعه وأهدافه عن طريق سيبا ستيانى فى محاولته لتوثيق عرى الصداقة مع السلطان الذى رأى أن الروس يحتلون مولدافيا للدفاع عن محمياتهم ، فأعلن الرومانيون الحرب على روسيا (أوائل ١٨٠٧ م) وانضمت إنجلترا إلى جانب حليفها القيصر وبالتالى زادت روابط التقارب الفرنسي – التركي وهو ما يتمناه نابليون ، وخشيت إنجلترا من حملة فرنسية جديدة على مصر ولكن هذه المرة بموافقة الباب العالى فأسرعت كإجراء وقائى باحتلال ميناء الإسكندرية حيث استولى الجنرال الإنجليزى فريزر على ميناء الأسكندرية بسهولة وبدون مقاومة فى ١٩ مارس ١٨٠٧ م ثم اتجه نحو ميناء رشيد حيث صده الجيش المصرى بعد أن كبد الجنود البريطانيين خسائر فادحة .

شعر البريطانيون بالصدمة وأصيبوا بالإحباط لأنهم كانوا يعتمدون على مساعدة المماليك بزعامة الألفى بك الذى توفى قبل مجىء حملة فريزر بأربعة أشهر ولم تكن إنجلترا تعلم بذلك ، كما كان محمد على لا يزال فى الصعيد يطارد المماليك ، ووقع عبء النضال والمقاومة على المصريين الذين قاوموا الإنجليز بضراوة فى شوارع رشيد وفى الحماد وأسروا بعض الإنجليز وقطعوا رءوس البعض الآخر ، فتقهقر الإنجليز إلى الإسكندرية للاحتماء بها ، فى تلك الأثناء عاد محمد على من الصعيد إلى القاهرة وزحف إلى الإسكندرية لاخراج الإنجليز منها وضرب الحصار حول المدينة ، فلم يجد فريزر مفراً من طلب الصلح والجلاء مقابل الإفراج عن الأسرى ودخل محمد على الإسكندرية ظافراً فى سبتمبر ١٨٠٧ م ، لقد وضع الانتصار الذى حققته مصر على فريزر بمنأى عن التدخل العسكرى البريطانى فى قرابة ثلاثة أرباع القرن ، وفى المقابل، حدثت مواجهات بريطانية . مصرية فى ميادين خارج مصر مثل : سوريا ولبنان واليونان ..... إلخ .

النتائج التى حققها محمد على من وراء الحملة البريطانية :

كانت الحملة الإنجليزية فى البداية من جهة ضد السلطان وذلك لمساندة روسيا ، إلا أن محمد على خرج من هذه الحملة ظافراً وعظم شأنه أمام العالم لأنه نجح فى

هزيمة البريطانيين وطردهم من مصر ، وبهذا تمكن محمد على من بسط سلطانه ونفوذه على الاسكندرية والمدن المجاورة لها .

وبعد هذا النصر فكر محمد على فى أن يستغل العلاقات بين إنجلترا وفرنسا لصالحه ، ولم يعد يعتبر نفسه كدمية تحركها الأهواء والمصالح المتناقضة للإنجليز أو الفرنسيين ، بل على النقيض من ذلك ، أخذ يلعب على هذا الوتر ويضربها ببعض من أجل ترجيح وجهة نظره ووضع مصالحه فى المقام الأول . وعلى ذلك ، فإذا كان يتمتع بالصداقة التى تربطه بالفرنسيين ، فإنه لم يحاول قطع العلاقات مع بريطانيا ، ولذا فقد قرر أن يهتم بهم ويتملقهم ويؤدى لهم خدمات ، وعندما علم بوجود نقص شديد فى القمح اللازم لتغذية القوات البريطانية المشتبكة فى أسبانيا ضد نابليون ، عرض تزويدهم بما يحتاجون من قمح ولكن مقابل سعر مرتفع كما عرض عليهم ضمان طريقهم المتجه إلى الهند ، فعرف كيف يستغل نقطة الضعف لدى الإنجليز وهى التأكد من سلامة اتصالاتهم مع مستعمراتهم فقدم لهم بمهارة هذا الضمان ولكن فى مقابل اعتراف لندن بوضع خاص لمصر فى إطار الإمبراطورية العثمانية ، وفى هذا الصدد ذهب بعيداً جداً فى مهمته هذه وبدأ وكأنه يسلك سلوك الوصولى « فقد كان يفكر حينئذ فى الحصول على نوع من الحكم الذاتى لمصر واستقلالها عن الإمبراطورية العثمانية ، ولكنه نسى أن خيوط اللعبة ليست فى يده وأنه سيد الموقف وأنه لا يشكل جزءاً من « الاستقرار » .

صدمت الحكومة البريطانية من هذا الاقتراح ، وليس فى نيتها التدخل فى الشئون الداخلية للإمبراطورية العثمانية وتوجيه ضربة قاصمة للباب العالى تولد عداءً جديداً فى العلاقات بينهما ، رفضت الحكومة البريطانية بكل استعلاء هذا العرض غير اللائق على أمل أن يتم إصلاح وضع المماليك المتعاونين معهم ، ولكن فى المقابل وبنظرة عملية من جانب البريطانيين قبلوا تزويدهم بالحبوب المصرية .

وانحدر دور محمد على إلى مجرد تاجر حبوب ، واحتفظ بهذا التقرب السياسى مع البريطانيين الذى اتسم بالريبة وعدم الثقة نحوهم وظلت تلك الريبة تلازمه طوال

حياته . فكر محمد على مليًا فى موقف الحكومة البريطانية المتشدد تجاهه واستنتج أنه يرجع إلى أن لديها أسطولاً قويًا يستطيع فى أى لحظة إصدار قرار بإغلاق ميناء الإسكندرية ، لذا فإن مصر محمد على ينبغى عليها إنشاء أسطول قوى بأسرع ما يمكن وأعطى لهذا المشروع الأولوية المطلقة .

ومع ذلك فقد عرف عن والى مصر الجديد أنه لم يذق طعم الراحة لحظة واحدة فبمجرد نجاحه فى إضعاف شوكة المماليك وهزيمة الإنجليز حتى وجد نفسه أمام ثورة الألبان للمطالبة برواتبهم ، وكانت الثورة موجهة ضده شخصيًا وحاصر الثوار منزله لكن لحسن الحظ هرب منه ونهبوا كل شئ وقلبوه رأسًا على عقب ، ورغم تأثر محمد على بخيانة وغدر المخلصين له فقد استطاع أن يغير الموقف بمهارة لصالحه باتهامه الضباط بالاحتفاظ برواتب الجنود لأنفسهم ، واستغل هذا الموقف للتخلص من بعضهم وأوجد نظامًا عنيفًا داخل قواته .

السلطان الجديد للإمبراطورية العثمانية :

تم خلع سليم الثالث فى ٢٩ مايو ١٨٠٧ م على أثر انقلاب عارم قامت به فرق الإنكشارية الحرس الخاص للسلطان وخلفه ابن عمه مصطفى الرابع لكنه خلع بدوره وعين السلطان محمود الثانى فى يوليه ١٨٠٨ م بعد أن احتاط لنفسه وأمر بإعدام سليم ومصطفى وبقى وحده ممثلاً للأسرة العثمانية وحافظًا على السلطة .

كانت العلاقات متميزة بين نابليون والسلطان سليم الثالث ولذا فقد انتهز الفرصة بعد إعدامه وأوقف النشاط والصداقة على الإمبراطورية العثمانية وبدأ يتقرب للقيصر ألكسندر الأول ، عقد نابليون معاهدة تليست مع ألكسندر الأول فى يوليو ١٨٠٧ م وتصدى كل من نابليون وألكسندر للموضوع الخاص باحتمال تقسيم الإمبراطورية العثمانية .

وبمجرد اعتلاء السلطان الجديد السلطة واجهته مؤامرات فى عدد كبير من الولايات التابعة له خاصة الحركة الوهابية فى الجزيرة العربية ، ولعدم توفر أى معدات

أو وسائل تمكنه من القيام بضرب هذه الحركة ، فقد كلف السلطان محمود الثانى محمد على القيام بتلك المهمة باسمه للقضاء على المتآمرين ، وجد محمد على أنه الوحيد المخلص للسلطان والحليف الوحيد الذى يمكن للباب العالى الاعتماد عليه ، شعر محمد على بإطراء شديد للدعوة التى وجهها إليه السلطان للقيام بهذه العملية .

لكن محمد على تصرف بمهارة وأعلن رفضه طلب السلطان للقيام بتلك العملية وقدم أسبابًا سيئة منها الصعوبات العملية للتنفيذ وأنه ليس لديه التمويل الكافى للقيام بتجهيز الجيش لأنه بالكاد يدفع الرواتب ولا يوجد قمح كاف لإطعام الجيش لأن المحصول هذا العام كان سيئًا جدًا بسبب نقص مياه فيضان النيل ، كما أن محمد على كان يخشى من إرسال جيشه بعيدًا عن أرض الوطن فى الوقت الذى تمر فيه استانبول بعلاقات فاترة مع القوى العظمى وأنه من الممكن القيام بغزو مصر ، ولم ينس محمد على بالطبع حملة فريزر البريطانية على مصر ولا الحملة الفرنسية بقيادة نابليون .

جدد الباب العالى الطلب مرة أخرى وفى هذه المرة وافق محمد على على القيام بهذه المهمة ، فالوضع الداخلى أصبح متماسكًا بدرجة كافية بحيث يمكنه شن غزوات بعيدًا عن أرض مصر وتؤكد تألقه ونفوذه فى العالم الإسلامى ، وقد ترك اقتراح السلطان انطباعًا قويًا لدى محمد على وهو أن الإمبراطورية العثمانية أصبحت عاجزة وفقيرة فى إمكاناتها وقدراتها فلماذا إذن يظل داخل هذه الإمبراطورية الضعيفة ؟

تساءل محمد على فى نفسه لماذا لا يحصل لبلاده على استقلال حقيقى وليس مجرد حكم ذاتى ، وبدأ يجس نبض أصدقائه الفرنسيين فى هذا الصدد وكذلك الإنجليز حيث يحاول الآن التقرب منهم ، سأل دروفيتى فى عام ١٨١٠ م عما إذا كان نابليون يأمل فى أن تكون العلاقات هشة بين مصر واستانبول ، ووجه نفس السؤال إلى ميسريت ، تجنب دروفيتى إعطاءه رأى أما ميسريت فرد قائلاً : « إن إنجلترا تؤكد له حيادها وأنها لن تتدخل فى مصر حتى لو كانت فى حالة حرب مع تركيا » . والواقع أن إنجلترا ألتزمت بكلمتها : فكما يقال تدخلت مرات عديدة فى شئون المصريين ولكن لم تتدخل إطلاقا فى شئون مصر وعلى الأقل حتى قرب نهاية القرن التاسع عشر .

مذبحة المماليك :

لم يتوقف المماليك عن تدبير المؤامرات من وقت لآخر ضد السلطة فى القاهرة وبصفة خاصة فى الصعيد الذى اتخذوه مأوى لهم ، من أجل ذلك ، صمم محمد على أن يوقفهم عند حدهم ولم يتردد فى استخدام كافة الوسائل للتخلص منهم نهائيًا .

وفى مارس عام ١٨١١ م وبمناسبة تولى ابنه طوسون قيادة الجيش المصرى وجه محمد على الدعوة إلى المماليك للاشتراك فى الاحتفالات التى أقيمت فى القلعة بهذه المناسبة ، وبعد انتهاء مراسم الاحتفال وبينما هم ينزلون ليسيروا فى شوارع ضيقة طويلة ، إذا بجنود يختبئون فى كمائن يطلقون النار عليهم، وتم قتلهم جميعًا إلا فرد واحد استطاع الفرار ، صُدم القنصل دروفيتى من هول الكارثة، وصرخ قائلاً إن خمسمائة من المماليك قتلوا ، وقد أرسل محمد على رءوس أربعة وعشرين من المماليك وأربعين من الكشاف (مساعدى المماليك) إلى السلطان بمثابة بيان له عما فعله محمد على ، ولم يصدم السلطان لكنه هنأ محمد على على ذلك وكان هذا أمرًا شائعًا فى الشرق ، وقد فعل قبطان باشا نفس الشئ عندما أراد أن يتخلص من المماليك حيث دعاهم لحضور احتفال على ظهر سفن الأسطول وبينما هم فى البحر فى قواربهم الصغيرة أطلق النار عليهم ، وتصرف السلطان محمود الثانى نفس الشئ مع الجنود الانكشارية .

فكر محمد على مليًا قبل أن يتخذ قرارًا فى هذا الشأن ، لكن كان يتحتم عليه تصفية المماليك نهائيًا الذين كانوا يعرقلون اهتمامه بتطوير مصر وبناء اقتصادها .

وهكذا انفرد محمد على بحكم مصر وبدأ فى بناء القوة الذاتية المنظمة ، وبدأت البقية الباقية من المماليك الأحياء يكرسون أنفسهم لخدمة محمد على .

وقد ذكر شهود العيان الذين حضروا الاحتفال أن محمد على كان يشعر بالحزن والأسى ، فهل يرجع ذلك إلى تأنيب الضمير إزاء رد الفعل السلبى من جانب أصدقائه مثل دروفيتى ؟

الفصل الثالث

كيف حكم مصر ؟

الإمبراطورية العثمانية :

لم يتمكن محمد على من تنظيم حكم بلاده إلا فى إطار الإمبراطورية العثمانية التى تعتبر مصر جزءاً لا يتجزء منها ، ويبرز بينويست ميشان Benoist-Méchin أصل هذه الإمبراطورية فى كتابه عن مصطفى كمال أتاتورك مؤسس تركيا الحديثة والذى خلع آخر السلاطين عام ١٩٢٢ م فيقول : « فى بداية القرن الثالث عشر خرجت أقوام من الفرسان الرحل من منغوليا وعبرت الشرق الأوسط واستقرت فى سلسلة جبال الأناضول ، وبعد ثلاثمائة عام قام هؤلاء الرحل بغزو إمبراطورية ضخمة ، وامتدّ نفوذ السلطان إلى مناطق شملت القارات الثلاث : من الدانوب إلى نهرى دجلة والفرات ومن جبال أطلس إلى القوقاز . إلا أن تلك السيطرة كانت مفككة فلا رابط ولا وحدة بينها : فالمزيج المعقد من الشعوب واختلاف اللغات والديانات بين تلك الشعوب لم يؤد بصفة عامة إلا إلى بيروقراطية قائمة على القوة العسكرية والبوليسية .

ولم يتم الوصول إلى هذه النتيجة دون معارضة عنيفة أو مشاكل لا حصر لها ، وفى عام ١٣٩١ ، أخذ التجمع الجديد يأخذ وضعه ويتجسد، وبدأ السلطان بايزيد الأول فى قمة مجده يتوج غزواته بمحاصرة القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية عندما تعرضت لغزو مغولى قادم من الشرق بقيادة تيمورلنك وانقضّ على جيوش الإمبراطورية البيزنطية وحطم آمالهم ، وبعد ذلك غزا المغول الشرق الأوسط وقاموا بإشعال النيران فى كل من بغداد ودمشق وسالت الدماء أنهاراً ، حاول

السلطان بايزيد التصدى لهم لكنه هزم وأسر عام ١٤٠٢ م فى موقعة أنجورا (والتى سميت فيما بعد أنقرة) .

وبعد أن واصل تيمورلنك غزواته ودماره للمناطق التى يحتلها ، قرر فجأة ، ودون سبب واضح ، أن يتجه ناحية الشرق للاستيلاء على الصين إلا أن الموت عاجله عام ١٤٠٥ م ، وبذا ، فقد حطم الإمبراطورية الضخمة التى شيدها بايزيد وأسلافه .

أما خلفاؤه فقد قاموا بإصلاحات ضخمة ونجح السلطان محمد فى فتح القسطنطينية والاستيلاء عليها فى مايو ١٤٥٣ وهزم الإمبراطور قسطنطين وقتل . أحدث استيلاء الأتراك على القسطنطينية دويًا هائلاً فى العالم فهى رمز المسيحية فى الشرق ويمثل سقوطها تفوق الأتراك وسيادتهم على المنطقة لعدة قرون ، واصلت الإمبراطورية امتداد نفوذها فى البلقان إضافة إلى صربيا والبوسنة وموالدافيا وإمارة فالاشيا (التى اتحدت فيما بعد مع موالدافيا وكونت رومانيا) وألبانيا والشرق الأوسط وبلاد ما بين النهرين (دجلة والفرات) وكردستان وجزء من بلاد فارس وسوريا وفلسطين وأخيرا مصر عام ١٥١٧ .

سليمـــان القانونـــى :

أتاح غزو مصر على يد السلطان سليم الأول أن يحمل لقب الخليفة وأمير المؤمنين، وعندما استولى السلطان على القسطنطينية أكد تفوقه على المسيحية ودعم لقب الخليفة الآن من مركزه كزعيم للعالم الإسلامى دون منازع ، وجاء خليفته سليمان القانونى الذى حكم فى الفترة من ١٥٢٠ إلى ١٥٦٦ م .

يعتبر سليمان القانونى الحاكم الأكثر شهرة فى الأسرة العثمانية ، ويمثل عهده قمة المجد للإمبراطورية العثمانية التى كانت تعتبر فى ذلك الوقت القوة الأولى فى العالم ، وأقام السلطان علاقات طيبة مع فرانسوا الأول ملك فرنسا ، توفى سليمان القانونى عام ١٥٦٦ م فى الوقت الذى كان يستعد فيه لحصار فيينا .

بدء إنهيار الإمبراطورية العثمانية :

أما خليفته سليم الثانى ، فعلى النقيض من ذلك ، تميزت سلالته بسلاطين ضعاف وفاسدين حتى سميت الحكومة بحكومة الملوك التنابلة ، وظهر انهيار الإمبراطورية واضحًا فى الهزيمة البحرية فى مضيق ليبانت عام ١٥٧١ م عندما تحطم الأسطول التركى أمام السفن المسيحية .

واصلت الإمبراطورية العثمانية انهيارها ببطء ، ومن فترة لأخرى كانت تظهر صحوة تسبب الرعب لدى الغرب ، وهكذا ولكى يواصلوا سيطرتهم على المجر ، قام العثمانيون بمحاصرة ڤيينا من جديد عام ١٦٨٨ م لكنهم لم يتمكنوا ورحلوا عنها فى خلال شهرين .

وأحدث ذلك صدى كبيرًا فى أوروبا الغربية واحتفلوا بانفراج الأزمة وانتصار المسيحية على الإسلام ، واخترع أصحاب المخابز فى ڤيينا نوعًا من الفطائر على شكل هلال تركى أسموه كرواسان (بمعنى هلال) حتى يتمكن النمساويون « من قضم والتهام الأتراك » .

أصبحت الإمبراطورية العثمانية منذ ذلك الحين بمثابة الرجل المريض فى أوروبا وموضع طمع القوى الأوروبية ، إلا إنها ظلت تحتضر قرابة ثلاثمائة عام ، وتم الإجهاز عليها فى الحرب العالمية الأولى ونتائجها ووصول مصطفى كمال أتاتورك إلى السلطة .

نظام الإدارة فى الإمبراطورية :

كيف كانت تدار هذه الدولة المترامية الأطراف ؟

إنها مجموعة غريبة وخليط من شعوب غير متجانسة عرقيًا أو دينيًا ، فكانت الإمبراطورية عبارة عن نقيض من دولة - أمة ، ومنذ الاستيلاء على القاهرة ، مارس السلطان وظيفة خليفة وأصبح الإسلام الدين السائد والرسمى على الرغم من وجود أقلية مسيحية ويهودية يتمتعون بالتسامح وممارسة دياناتهم .

كانت العاصمة فى استامبول ويمارس السلطان سلطانه من داخل القصر حيث توجد الحكومة والإدارة المركزية ، وعندما يخرج السلطان فى رحلة إلى الريف يمارس سلطاته فى خيمة .

رئيس الوزراء هو رئيس الحكومة ويحمل لقب الوزير الأعظم ، ويتميز بالإخلاص والانصياع التام لأوامر السلطان ، ولكى يتأكد السلطان من تبعية رئيس الوزراء له وتقديم فروض الطاعة ، كان يختار رئيس الوزراء من أحد العبيد القدامى ذوى الأصول المسيحية ، كانت مهمة الوزير الأعظم (رئيس الوزراء) إدارة الديوان وهو نفس الدور الذى يقوم به مجلس الوزراء الموسع والذى يضم بخلاف الوزراء الآخرين ، مراقب الشئون المالية والمستشار (للتشريع) وأحيانًا القبطان باشا قائد الأسطول ، وكانت البيروقراطية الشديدة تستخدم فى الأوامر التى يصدرها السلطان أو الديوان ، كانت الإدارة فى البداية تتم على أيدى الأتراك الذين يسيطرون عن بعد على الشعوب الأخرى فى الإمبراطورية ، ، وبعد ذلك ساهمت جنسيات أخرى فى المسئوليات الإدارية ، وسوف نرى أن محمد على قد حرص على تعيين أقباط أو أرمن فى مناصب هامة.

تتناوب هيئات إقليمية السلطة مع الحكومة المركزية ، وعلى رأس كل إقليم والى بلقب باشا مثلما أصبح محمد على بالنسبة لمصر .

وهناك بعض الأقاليم يديرها تابعون مسيحيون ثبتهم السلطان فى السلطة ومدة الانتداب للوالى ثلاث سنوات فى العادة لتجنب حصولهم على مزيد من النفوذ أو الأهمية ، تعتمد أعمال الدواوين الحكومية على الشرطة والجيش لتأكيد تلاحم وتماسك الإمبراطورية ومع ذلك ، ففى الغالب يكون والى الإقليم هو القائد العسكرى للمنطقة فى نفس الوقت ، أما عن الشرطة فهى متواجدة فى كل مكان على شكل مخبرين ومرشدين أو مستفزين للناس ، يعرضون المواضيع مباشرة على استامبول وفى نفس الوقت جواسيس على الولاة والحكام .

الانكشارية :

تم تنظيم الجيش بصورة جيدة ويخضع لنظام حديدى غير متوفر فى بعض الجيوش الغربية لكن تنقصه التجهيزات بالمعدات الثقيلة أما الأسلحة والمهمات فهى

بدائية ، تشكلت « النواة الصلبة » من الإنكشاريين المشهورين ، وهم ليسوا أتراكا ولكنهم أوروبيون من المجر وبلغاريا وبوهيميا أو من ألمانيا وأسبانيا وإيطاليا ، وجميعهم من أصول مسيحية وأخذوا أسرى وهم أطفال، وتم تدريبهم عسكرياً على الحرب ، وفرضت عليهم حياة عدم الزواج حتى لا يشغلهم أى شاغل عن مهمتهم ، ومع ذلك كانوا فى حالة انزواء تحت سلطة السلاطين ولا حول لهم ولا قوة ورواتبهم ضعيفة مما دفعهم للتمرد على السلطة رافضين حياة التبتل دون زواج ، لقد كانوا مرتزقة ولذا لم يكن لديهم أدنى فكرة عن الانتماء للوطن والدفاع عن سلامة أراضى الإمبراطورية العثمانية لأنها لا تهمهم فى شيء .

تزايد عصيانهم عبر القرون حتى أن السلطان محمود الثانى الذى كان معاصراً لمحمد على (١٨٠٩ - ١٨٣٩) قرر التخلص منهم وبصورة جذرية ، ففى عام ١٨٢٦ م وبناءً على أوامره تم إبادة سبعة آلاف رجل عصر أحد الأيام ، وقد أثارت تلك المجزرة غضب الناس جميعًا فى ذلك الوقت واتهموا السلطان محمود الثانى بالبربرية والتوحش، ولم تتوقف نتائج تلك المذبحة عند هذا الحد ، فبإصداره أوامره بإبادة الإنكشاريين بدلاً من إصلاحهم عمل محمود الثانى على تحطيم العمود الفقرى للجيش العثمانى ، ولم تقم له قائمة لمدة قرن من الزمان إلى أن استولى مصطفى كمال أتاتورك على السلطة وأنشأ جيشًا بالقدر الذى يلبى طموحاته ، لكنه كان جيشًا تركيًا خالصًا، وكان من الحكمة والتعقل ما جعله يقتصر على إعادة تنظيم الجيش وانتهاء الإمبراطورية العثمانية والاهتمام ببلده تركيا فقط .

- السلاطين المعاصرين لمحمد على :

بالتوازى مع انحلال الإمبراطورية العثمانية بدأت تظهر النزعات القومية فى بداية القرن التاسع عشر ، وقد ساعد على زيادة تلك النزعات ضعف الإمبراطورية وعدم وجود أى رابط يوحد بين شعوبها ، وفى مصر شجع محمد على تلك النزعة وعمق شعور الانتماء لمصر، وعمل على إيجاد دستور لدولة مستقلة عمليًا فى إطار الإمبراطورية وذلك بتبنيه النظرية الأولى الشهيرة عن « الاستقلال داخل الارتباط »

حيث تطور فى منتصف القرن العشرين . وفى مواجهة سلطان يتميز بالسلطة القوية مثلما كان فى عهد سليمان القانونى ، فإن والى مصر لم يكن يجرؤ إطلاقًا على طرح مثل تلك المشاريع .

من هم السلاطين المعاصرين لمحمد على :

عندما تولى محمد على السلطة كان السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ - ١٨٠٧) على رأس الحكم ، وكان رجلاً ذكيًا صافى الذهن ، وقد لمس الحاجة إلى ضرورة البدء فى إصلاحات البنية الأساسية لإمبراطوريته المترامية الأطراف ، إلا أن انشغاله الشديد بمشاكل السياسة الخارجية جعلت اهتمامه محصوراً على إعادة تنظيم الجيش بمساعدة السفير الفرنسى سيبا ستيانى Sébastiani ، وكانت علاقته ممتازة مع فرنسا لكنها تدهورت عقب الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون بونابرت عام ١٧٩٨ م ، فاضطر السلطان سليم الثالث إلى الاستعانة بالإنجليز الذين كانوا يريدون أخذ مكان الفرنسيين بعد انسحابهم من مصر فى حالة عدم نجاح محمد على فى منعهم من البقاء بعد رحيل الفرنسيين ، واجه السلطان سليم الثالث فى مايو ١٨٠٧ م تمرداً قام به الانكشاريون ولم يتمكن من السيطرة عليهم، فتنازل عن السلطة لابن عمه مصطفى الرابع الذى كان ضعيف الشخصية وخلع بسرعة من منصبه ، وصعد الأمير محمود وتولى الحكم سنوات طويلة (١٨٠٨ - ١٨٣٩ م) تحت اسم السلطان محمود الثانى .

بدأت فى عصره الاصلاحات داخل الإمبراطورية العثمانية ، ورغم مواجهة صعوبات خطيرة مع القوى العظمى وبعض الأقاليم ، فقد قام بسياسة تهدف إلى تحديث النظام الإدارى للدولة والذى كان يتميز بالجمود وأدخل تغييرات ملموسة فى الجيش كما سعى إلى تطوير عقليات الأوساط المؤثرة فى المجتمع العثمانى ، وقد اصطدم محمد على كثيراً بالروتين المتحجر وإلى رفض العثمانيين قيامه بإجراء أى تغيير على الرغم من التسهيلات التى كانت ممنوحة له .

والسؤال الآن ... كيف كانت العلاقات بين سلطان يتميز بأنه رجل اصلاحات مثل السلطان محمود الثانى وبين تابعه محمد على باشا والى مصر المجدد هو الآخر والذى

كان توّاقًا للوصول إلى نتائج ملموسة ؟ من المحتمل أن محمد على لم يكن يود أن يتجاوز الروابط التى تربطه بالباب العالى وأن الرجلين كانا على وفاق فيما بينهما ووحدا جهودهما للوصول سويًا للنهاية في إطار التقاليد المرعيه . ومع ذلك ، فعلى الرغم من معاضدة محمد على فى بداية حكمه للسلطان محمود الثانى سواء فى اليونان أو بالحملة ضد الوهابيين بالجزيرة العربية ، فإنه دخل بعد ذلك فيما يشبه التمرّد والعصيان على السلطة بالنسبة لسوريا والجزائر حيث تجرأ على الوقوف ضد السلطان ولم يتردد فى مجابهته وتحديه أمام القوى الأوروبية ، ولم يغفر السلطان محمود الثانى هذا الموقف إطلاقًا لمحمد على ، وأعلن كل من السلطان ورئيس وزرائه خسرو عداءهم الشديد لمحمد على .

وبعد وفاة محمود الثانى عام ١٨٣٩ م خلفه ابنه عبدالمجيد الأول وكان عمره ١٦ عامًا ، واستمر حكمه حتى عام ١٨٦١ م ويعتبر السلطان الثالث فى فترة حكم محمد على ويرجع الفضل إليه فى بدء برنامج التنظيمات الخاص بالاصلاحات التى استمرت أربعين عامًا وغيرت البنية الأساسية للأمبراطورية رأسًا على عقب .

دوافـــع محمـــد علـــى :

فى هذا الإطار بدأ محمد على باشا والى مصر الجديد فى التحرك مع الأخذ فى الاعتبار القيود المفروضة عليه بانتمائه للإمبراطورية العثمانية ، فمن أين جاءت لمحمد على أفكاره الخاصة بالحكم علمًا بأن تعليمه محدود جدًا ؟ وماهى دوافعه العميقة لإنشاء أو محاولة إنشاء إمبراطورية عظمى سواء على الصعيد الداخلى أو الخارجى ؟

لم يكن مدفوعًا بكراهية شديدة تجاه الأتراك مثلما يفعل الذين يحررون بلادهم من قوى الاحتلال ، بل على العكس من ذلك ، كان منزعجًا جدًا من تصرف المماليك فلم يتردد لحظة فى القضاء عليهم نهائيًا ، وقد فتن بما علمه من دور مصر فى الآثار وما كانت عليه من إشعاع ثقافى لقرون طويلة، فكان يطمح فى إحياء قوة الفراعنة وحضارتهم وهى نفس الفكرة التى راودت نابليون ، لقد أحب الشعب المصرى ولكن ليس بالدرجة التى تجعله يضع تقدم وتطوير هذا الشعب فى المقام الأول لاهتماماته ،

فالدافع العميق لتصرفه هو شعوره بأن له قدر وطني يشعر بالاخلاص له ، إضافة إلى الاهتمام الفكري بأنه يواجه مشاكل سياسية تؤرقه وكذلك الرغبة في زيادة نفوذه وثروته . وبعزيمة القوة ، أراد أن يطوع لنفسه إمبراطورية عن طريق الغزوات والحروب. ولكي يكوّن لنفسه ثروة كان يتصرف كأنه المالك لكل شئ وكل همه أن يستثمر ممتلكاته ويرى في مصر مصدراً ضخمًا للاستغلال الشخصي وعمل على تطويرها وتحديثها بإنشاء نظام الاحتكار ، وعندما شرع في تنفيذ الأعمال الضخمة الخاصة بالري وزيادة رقعة الأراضي الزراعية عمل على الاهتمام بالتعليم ونشر الوعي الصحي للأيدي العاملة لكي تؤدي عملها بصورة أفضل ، وحسب العقلية التي كانت سائدة في ذلك العصر ، لم يكن استغلال الشعب لصالح الحاكم وإنما البحث عن تحسين ظروف المعيشة .

استمر هذا الاهتمام الشخصي أيضًا لعائلته خاصة لأولاده حيث كان همه الشاغل ليس فقط الحصول على استقلال مصر بل وجعل الحكم وراثيًا لأسرته من بعده، ومن خلال ابنائه استمر عمله ، وهو دافع طبيعي كثيراً ما نجده لدى الآخرين حتى في الأمور الخاصة كما هو لدى الشعوب ، ومن سوء الحظ ، أن محمد على إذا كان قد حالفه النجاح بالحصول على الاستقلال النسبي والموافقة على جعل الحكم وراثيًا ، فإن أحداً من أولاده لم يكن على قيد الحياة ليخلفه وإنما حفيده عباس باشا الذي كان على النقيض من سياسة جده .

أولاد محمد علي :

المرأة الشرقية في ذلك العصر لم يكن لها دور يذكر ، ولم يكن محمد على يعرف سوى زوجته الأولى أمينة والتي ظلت زوجته الشرعية الوحيدة فهي قريبة حاكم قولة القوى وتتمتع بثراء كبير ، توفى زوجها الأول وتزوجت محمد على عام ١٧٨٧ م وأنجبت منه خمسة أطفال : ثلاثة ابناء (إبراهيم – طوسون – إسماعيل) ثم بنتان (تفيده ونازلي) وفي عام ١٧٩٩م، تركهم محمد على وتوجه إلى مصر وظل بعيداً عن زوجته لمدة عشر سنوات دون أن يهتم بزيارتها ، وكان سعيداً بذريته من الأولاد الثلاثة

أما علاقاته الزوجية فلم تكن موضع اهتمامه ، كانت أمينة امرأة جميلة قوية الشخصية، وعرفت كيف تملأ مركزها عندما أصبح زوجها يشغل منصبه كوالى على مصر ، وكان محمد على يعاملها باحترام ومودة رغم أنه كان بحوزته عشر عشيقات حسب العرف والتقاليد التى كانت سائدة .

وينسب إليه أحيانًا أنه كان لديه ٩٥ طفلاً ويبدو أن الرقم أقل من ذلك بكثير - حوالى الثلاثين ، ١٧ ولدا و١٣ بنت - وقد اهتم بصفة خاصة بأولاده الكبار وعمل على تعليمهم لمساعدته فى حكم البلد ليخلفوه من بعد وفاته ، وقد تزوجت بناته الثلاث من شخصيات مرموقة .

تزوجت تفيده من محسن بك قائد بحرى كبير ثم حاكمًا لمدينة الإسكندرية ؛ والثانية نازلى تزوجت محمد الدفتردار الذى قاد الجيش فى السودان ، أما الثالثة زينب الرابعة فقد تزوجت بتركى : يوسف كمال باشا الذى عين لفترة رئيس وزراء .

وصل الولدان الكبار إلى القاهرة عام ١٨٠٥ م باستدعاء من والدهم وكان إبراهيم فى السادسة عشرة من عمره وطوسون فى الثانية عشرة ، وكان محمد على قد عين واليًا على مصر ولكن لم يكن قد جاءه التأكيد بالمنصب الجديد ، وفى اليوم التالى لوصول إبراهيم عين حاكمًا على القاهرة ، وبعد عام من وصوله مصر اصطحبه قبطان باشا معه إلى استامبول ربما كرهينة وللعمل على تدريبه أيضًا هناك .

وقد تم تعلم الكثير حول العمل المعقد للإمبراطورية والعلاقات التى لا تقل تعقيدًا بين الباب العالى وولاة الأقاليم ، وعندما رجع مرة أخرى إلى مصر بعد عام ، عيَّنه السلطان ، وليس والده، دفتردار أى مدير المالية للقاهرة ، وكان هذا المنصب فى حاجة إلى رجل أمين وماهر ليعرف كيف يأخذ الأموال من الشعب دون أن يثير اعتراضاتهم ، وتمثلت عبقرية إبراهيم فى أنه ليس جابى للضرائب بل قائدًا عسكريًا كبيرًا يعرف كيف يسيطر على الحملات التى يقودها .

كان إبراهيم على النقيض من الرجال ذوى النفوذ فى ذلك العصر فى الشرق، فقد كان رجلاً صريحًا وأمينًا وشجاعًا وموهوبًا وذا سطوة كبيرة على الجنود الذين يقودهم للمعركة ، وكان يتمتع بلياقة بدنية كبيرة فكان طويل القامة وقويًا وذو لحية تميل إلى

الإحمرار إلا إنه كان سريع الغضب وعنيفًا وشديد القسوة ، وكان يعتبر مصر وطنه الحقيقى وكان يبذل قصارى جهده من أجلها ، ولذا فقد اشترك مع والده فى الحكومة ، ورغم أنه لم تكن لديه عبقرية سياسية فقد كان مساعداً قيّماً لوالده وخبير إستراتيچى عسكرى .

أما طوسون فكان على النقيض من أخيه ، ليس لديه أى مواهب عسكرية لكنه ورث عن أبيه الحس السياسى ، وعندما كان قائداً للحملة ضد الوهابيين ترك القادة يتصرفون إلى أن انتهت الحملة بالنصر ، وكان لطيفًا بشوشًا متوسط القامة وكان مثل والده مبذراً ، وقد منحه السلطان لقب باشا قبل أخيه إبراهيم الذى يكبره بأربع سنوات .

أما الابن الثالث لمحمد على فهو إسماعيل وقد حضر إلى مصر مع أمه عام ١٨٠٩م، ولم يعرف والده مثلما كان إبراهيم وطوسون وكان المحيطون به يشعرون بالعلاقة الفاترة بينه وبين والده ، كان يتميز بالغطرسة والكبرياء وكان يحقد على نجاح أخيه إبراهيم العسكرى فى الجزيرة العربية ، وقد أراد أن يظهر لوالده شجاعته عندما كان فى السودان إذ قام بقطع ثلاثمائة من آذان المتمردين السودانيين وأرسلها لوالده فرد عليه والده بخطاب أنبه فيه قائلاً له إن القائد الجدير بالاحترام عليه أن يكون إنسانا قبل كل شيء ، إلا أن إسماعيل لم يعر هذه النصيحة اهتمامًا وأظهر قسوة متناهية فى إدارة سكان السودان عندما غزته مصر .

أســاس دولـــة حديثـــة :

من المعروف أن محمد على تلقى موافقة السلطان بتعيينه واليًا على مصر بناء على اقتراح الأعيان المصريين ثم ألغى عمليًا السلطة السابقة الممنوحة للمماليك ؛ كان له مطلق الحرية فى إدارة البلاد حسب هواه لأن المبدأ الذى سار عليه فكرة الحكم المطلق الفردى .

ويمكن مقارنته فى هذا الصدد بلويس الرابع عشر أو بالأحرى نابليون بونابرت الذى كان قريبًا منه ، ومن هنا تميز نظام الحكم بالمركزية المطلقة حيث تعرض عليه

كافة القرارات الهامة ، ويرجع ذلك إلى عدم الثقة المبررة بالنسبة لبعض الأفراد المحيطين به حيث كان يشعر أنهم على استعداد لخيانته عند حدوث أى ضعف أو عجز من جانبه ، كان لابد له من إرادة حديدية لتحقيق الهدف الذى يسعى إليه وهو إعادة بناء مصر بالكامل كى يحولها من دولة متخلفة إلى دولة حديثة بعد أن ظلت قرونًا طويلة فى سبات عميق ، ومن أجل ذلك كان نظام الحكم فى عهده يقوم على فكرة الحكم الفردى المطلق وإلى شخص مسئول أولاً وأخيراً يتميز بالصلابة والحزم لمواجهة الهيئات الإدارية المتعددة والتى يشغلها رجال تعودوا على الروتين والكسل والفساد ولا يفضلون الاستيقاظ العنيف الذى فرض عليهم للخروج من غفوتهم .

لم يعيّن محمد على مباشرة رجالاً تابعين له فى كل مكان بل عيّن فى المراكز الرئيسية أفرادًا من أسرته أو أناسًا يثق فى كفاءتهم وقدراتهم ويدينون له بالولاء .

كان قصر محمد على عبارة عن مشتل تزدهر فيه براعم من أعلى المستويات لمساعدته ومعاونته كما كان يعج بألبان حيث لم ينس مواطنيه بالأضافة إلى أتراك وبدو وأقباط مسيحيين وكل مجموعة مهيأة لنوع معين من الأنشطة تقوم به ، فالأتراك للحروب والإدارة والأقباط للشئون المالية والأرمن للدبلوماسية والفلاحين (الفلاحون المصريون) للزراعة والشئون الدينية .

كان القصر عبارة عن مجلس للوزراء أو مكتب لرئيس دولة ، يتغير العاملون فيه باستمرار إما لعدم قدرتهم على تلبية مطالب الباشا أو تعيينهم فى وظائف أخرى فى أقليم من الأقاليم إدارية كانت أو عسكرية ، ولم يتبق إلا عدد قليل من الألبان المخلصين له منذ البداية حيث ظلوا فترة طويلة فى مناصبهم بالقصر .

كما بقى باغوص بك مع محمد على حتى آخر يوم فى حياته لما عرف عنه بالولاء والإخلاص ، بدأ حياته الوظيفية مترجمًا وهى وظيفة على جانب كبير من الأهمية خاصة بالنسبة لرجل لا يتحدث أى لغة أجنبية وبالذات فى المجال الدبلوماسى ، وبطبيعة الحال أصبح باغوص بك مستشار الباشا والمتخصص فى الشئون التجارية ثم فى العلاقات الخارجية ، وانتهى به الأمر إلى أن أصبح كوزير فعلى للشئون الخارجية ، وقد أعطاه محمد على الثقة الكاملة وسمح له بأن يسحب من الخزانة الأموال التى

يحتاجها لإدارة السياسة أو لاحتياجاته الشخصية والتى كانت قليلة ، تميز باغوص بك بالتواضع والذكاء والدقة وكان على دراية كبيرة بالسياسة الأوروبية ، كما كان هناك رجل أعمال آخر وهو مصرى وموضع ثقة محمد على ويدعى المحروقى والذى كان الصيرفى الخاص لمحمد على وكان قبل ذلك شاهبندر التجار المصريين أى رئيس رابطة التجار وقد لعب دوراً فعالاً فى إعادة تنظيم التجارة والصناعة .

لم يكن فى البداية وزراء بالمعنى المعروف ، إلا أن كبار المسئولين فى الإدارة كان لهم دور الوزراء ولم يحصلوا على اللقب إلا فى عام ١٨٣٧ م وهو العام الذى أنشأ فيه محمد على سبع وزارات :

– الداخلية (حبيب أفندى) حيث كانت له اليد العليا فى إدارة الأقاليم . فعند وصول محمد على كانت مصر مقسمة إلى خمسة عشر إقليماً ، لكن محمد على قسم البلاد إلى سبع مديريات (محافظات بالتعبير المعاصر) متساوية المساحة وعلى كل منها مدير (محافظ) : أربع للدلتا وواحدة لمصر الوسطى واثنتان للصعيد ، وقسمت كل مديرية إلى مراكز على كل مركز مأمور وكل مركز يضم أقساماً على كل قسم ناظر، وكل قسم يضم نواحى وقرى على كل ناحية شيخ بلد أو عمدة ومعه الخولى ومهمته مسح الأطيان والصراف لجمع الأموال الأميرية والشاهد والمأذون .

– المعارف العمومية والأشغال العامة : أسندت هاتان الوزارتان على الرغم من الاختلاف الوظيفى بينهما إلى مختار بك لأنه تلقى تعليماً فى فرنسا .

– المالية : تم تقسيمها إلى وزارتين (وزارة للدلتا وأخرى للصعيد) .

– الحربية : تولى مسئوليتها أحمد مينيكلى .

– الشئون الخارجية والتجارة : بقيادة باغوص بك .

– البحرية : حسن أفندى الذى أكمل دراسته فى فرنسا وهو الذى أنشأ البحرية المصرية .

الوزارات الخمس الأولى مقرهم القاهرة ، أما الشئون الخارجية والبحرية فكان مقرهما الأسكندرية حيث أن نشاطهما موجه للخارج ، وربما أراد محمد على إعطاء اهتمام للإسكندرية لما قدمته له، ولكونها العاصمة القديمة .

لغة التعامل : التركية إلا أن الملفات والوثائق الرسمية كانت تترجم إلى العربية ، نظريًا كانت الأمور تتم بحثها فى مجلس الوزراء وتؤخذ الآراء بأغلبية الأصوات .

أما فى الواقع ، فكان محمد على يتصرف على أنه الحاكم المطلق . كان كل وزير بمثابة سكرتير عمومى وهو نفس النظام الذى كان قائمًا فى عهد لويس الرابع عشر . يكلف كل منهم بإعداد وتجهيز المشاريع ثم مراقبة تنفيذها .

وفى الوقت الذى أنشأ فيه نابليون بونابرت عددًا من الدواوين أو مجالس لتكون له عونًا فى علاقاته بالمصريين إلا أن محمد على اعتبرها غير ذات فائدة لأنه لا يعتبر نفسه أجنبيًا كما كان نابليون، كما أنه ليس محتلاً ، لذا فقد بادر بإلغاء هذه الدواوين ، ولكن فيما بعد وحوالى عام ١٨٢٠ م أعاد إنشاء عدد من المجالس على غرار تلك التى كانت موجودة فى الإمبراطورية الفرنسية وفى حكومة الإصلاح : مجالس الشورى ومجالس مخصوصة وكلها ذات طابع استشارى محض والذى أوحى له بهذه الفكرة قناصل فرنسا ، ولم يتواجد أى تمثيل شعبى فى حكومة محمد على مثلما كان موجودًا فى الغرب فلم يكن ذلك شائعًا فى الشرق ، وكان لابد من الانتظار طويلاً حتى يظهر ذلك على استيحاء فى بعض دول الشرق الأوسط .

وعلى مستوى الإمبراطورية لم ينس محمد على بأنه تابع للسلطان ، ولابد من وضعه فى الاعتبار وإحاطته علمًا لكى يدفع له الإتاوات المطلوبة من قبل استامبول والتى يحرص عليها الباب العالى بشدة ، وبعد ذلك يحتفظ محمد على بحرية التصرف مع مراعاة إخطار السلطان بما يفعله ، ومع ذلك ، فإن السلطان يحتفظ بحق خلع الوالى ، وهى سلطة قد يستعملها فيما بعد ، وفى نفس الوقت الذى ينظم فيه محمد على حكومة مصر ، فإنه يهتم عن كثب بتحديث جيشه لأنه سيقوم بحملات عسكرية هامة بناء على طلب السلطان رئيسه الأعلى .

الفصل الرابع

تكوين إمبراطورية المرحلة الأولى (١٨١١ - ١٨١٢م)

بمجرد تعيين محمد على واليًا على مصر (١٨٠٥) قام بأول تنظيم لحكومته فبعد جلاء الإنجليز عن الإسكندرية فى سبتمبر ١٨٠٧ م وتخلص محمد على نهائيًا من المماليك فى مارس ١٨١١ م ، أصبح حر التصرف وتحتم عليه تنظيم جيشه .

تنظيم الجيش :

لم يكن الجيش المصرى بدون إمكانات ، فقد نجح فى هزيمة الإنجليز بقيادة الچنرال فريزر فى رشيد عام ١٨٠٧ م ولكن كان ينقصه التنظيم وقادة أكفاء ، فالجنرالات الذين تولوا قيادته الواحد تلو الآخر أمثال حسن أو طاهر كانوا زملاء لمحمد على أو حتى أحمد أغا (الذى كان يسمى نفسه الخازندار بونابرت) كانوا يشعرون دائمًا بأصلهم ولا يصلح الواحد منهم إلا أن يكون زعيم عصابة أو القيام بمغامرة محدودة . ولم يكونوا على دراية بأى خطط تكتيكية لمعركة حربية أو وضع إستراتيچية ، ولذا كان على محمد على أن يعكف على إصلاح الجيش ، ولعدم تواجد المساعدين بشكل كاف ، فقد وضع الخطوط العريضة لتنظيم الجيش بالاستعانة بنصائح وإرشادات المختصين . واستدعى ضابط فرنسى سابق فى جيش نابليون وهو الكولونيل سيف (Seve) وعينه كمستشار عسكرى ، تحول سيف إلى الإسلام وسمى نفسه سليمان بك ، ولم يباشر عمله الفعلى إلا عام ١٨١٩ .

كان محمد على قد شرع من قبل فى إجراء إصلاحات هامة داخل الجيش ، ففى البداية عمل على تقويم ما لحق « بالنواة الصلبة » من أضرار والمكونة من فرقة من الألبان ساعدته على الوصول للسلطة ، وصل عدد هذه الفرقة إلى ١٥ ألف عام ١٨١٠ م وكثيراً ما كانوا يثيرون القلاقل والاضطرابات ويتمردون لأقل حدث مثلما يحدث فى كل مرة تتأخر رواتبهم عن موعدها ، وقد ثاروا مرة أخرى فى عام ١٨١٥ م عندما حاول محمد على إدخال نظام جديد لهم وتطبيق أساليب القتال المتبعة فى الجيوش الأوروبية، وأجل تنفيذ هذا المشروع دون أن يتنازل عنه وانتهى الأمر بالألبان إلى الرضوخ .

أدخل محمد على تجديدات أخرى ذات نتائج طيبة وهو اختيار عناصر من المصريين لدخول الجيش ، فحتى ذلك الحين لم يكن الجيش المصرى يتشكل إلا من الأتراك أو الألبان أو ميليشيات مستقلة من المماليك ، اكتمل الجيش بإدخال فرق مصرية بحتة مما ساعد على تقوية الشعور الوطنى ، كما أدخل فرقة من السودانيين حتى تتم إعادة تشكيل الجيش بشكل متعمق ، لكنه أرجأ ذلك فيما بعد لأن السلطان كان يحثه على سرعة التدخل لصالحه فى الجزيرة العربية .

بدء تكوين الحملة الوهابية إلى الجزيرة العربية :

الوهابيون :

استغرق الإعداد للحملة التى أعدها محمد على ضد الحركة الوهابية فترة امتدت من ١٨١١ إلى ١٨١٧ م .

ظهرت روح المقاومة لتلك القبائل فى منتصف القرن الماضى لأسباب دينية . ظهرت الحركة الوهابية على يد محمد بن عبدالوهاب الذى ولد حوالى عام ١٦٩٠م (*) وقف يوجّه اللوم للمسلمين على أن إيمانهم أصبح لا معنى ولا قيمة له بابتعادهم عن الزهد والتقوى الحقيقية التى جاء بها النبى محمد والبعد عن البدع ، انتشرت هذه

(*) ولد محمد بن عبد الوهاب سنة ١٧٠٣ . (المرجع اللغوى) .

الأفكار فى أرجاء الجزيرة العربية على أيدى شيوخ نجحوا فى إخضاع العرب لأفكارهم ، وفى عام ١٨٠١ م قاموا بنهب وتخريب مدينة كربلاء المكان المقدس للشيعة مما دعاهم إلى أن يحرّضوا شاه بلاد فارس على الاحتجاج بشدة بصفته الحامى الطبيعى للشيعة .

لم يهتم الباب العالى كثيراً بممتلكاته فى الجزيرة العربية ، فلم يكن البترول قد اكتشف بعد والفائدة الوحيدة التى تعود عليهم هو احترام المجتمع الإسلامى لهم لأن السلطان يقوم بدور حامى الأماكن المقدسة كما أن الحج السنوى لمكة والذى يجذب أعداداً ضخمة من المؤمنين ينبغى أن يتم فى هدوء دون أن يعكر صفوه شىء .

فهل كان الوهابيون مبشرين بالرجوع إلى الدين الحق معتبرين أى تطور بدعة لابد من محاربتها ؟

وكثيراً ما دخلوا فى قتال ضد التجاوزات التى يقوم بها الحجاج لأنهم أرادوا أن يعودوا بالدين إلى صورته النقية دون هرطقة أو بذخ أو احتفالات أو عبادة أوثان . ويسترعى الانتباه أن هجومهم على الإسلام التقليدى يذكر ما قام به لوثر من نقد للكنيسة الكاثوليكية ، وكما ذكر جوين فى كتابه (مصر فى القرن التاسع عشر) أن الوهابيين كانوا بروتستانت الإسلام حيث أرادوا تنقية العبادة من كل ما يشوبها والتمسك بأهداب الفضيلة ، إلا أنه بينما كان البروتستانت ينادون بالإصلاحات بطرق سليمة ، فإن الوهابيين تركوا أنفسهم ينجرفون وراء أعمال قطع الطرق واللصوصية ولم يترددوا فى ارتكاب مذابح مثلما حدث عام ١٨٠٨ م عندما كان الحجاج يقطعون الصحراء آمنين فى طريقهم إلى مكة .

تحول تمرد الوهابيين من دينى إلى سياسى ولم يعودوا يعترفون بسلطة السلطان عليهم ، وامتد هذا العصيان إلى الإمارات المجاورة وفى اليمن والعراق فى الوقت الذى كانت فيه إنجلترا ترصد هذا المد الثورى ، وعندما اهتز التوازن فى هذا الجزء من العالم وأصبح ينذر بالخطر قدمت شكوى إلى استامبول أعربت فيها عن مخاوفها بأن سفنها التجارية فى الخليج العربى أصبحت معرضة للخطر وهدد الأسطول البريطانى بالعودة إلى البحر الأحمر .

قرر الباب العالى أخيراً القيام برد فعل وبدأ يتشاور مع الولاة التابعين له فى المنطقة ، ذكرت الحكومة العراقية وهى الجار الأقرب للوهابيين إنها عاجزة عن القيام بإجراء على نطاق واسع لأنه ليس لديها العدد الكافى من القوات ، وأعلنت سوريا عن عجزها القيام بحملة خاصة بعد وفاة أحمد باشا الجزار والى عكا الذى صمد أمام نابليون ، وإزاء هذه المواقف التى تتسم بالضعف لم يجد السلطان سليم الثالث ومن بعده محمود الثانى بدًا من التوجه إلى محمد على لأنه الوالى الوحيد فى المنطقة الذى يرأس حكومة منظمة نسبيًا ولديه قوة عسكرية مميزة ويمكن الاعتماد عليه لأنه فى أى لحظة يرفض فيها محمد على التدخل مباشرة بادعاء عدم تجهيز جيش مدرب تدريبا كافيًا ، فإن استامبول ستتخذها ذريعة ضده وتعترف بضعفه ، وفى هذه الحالة سوف يندم والى مصر على ذلك ويدفع الثمن غاليًا .

موقف محمد على :

اقترح السلطان على محمد على أن يتولى قيادة العملية لكنه رفض هذا العرض فى البداية وأمام إلحاح الباب العالى وافق مقابل مزايا جوهرية ، فقد شعر فى الواقع برغبة شديدة للقيام بهذه المهمة التى سوف ترفع من شأنه على الصعيد الدولى وتجعل السلطان يدين له بالفضل . وأمام تحفظات محمد على وعده السلطان بضم الحبشة وعكا ودمشق إليه لأنه يعرف أن سوريا تفتن محمد على مثل باقى رؤساء مصر الذين يرون فيها إمتدادًا طبيعيًا لمصر ، سعد محمد على بهذا العرض لأنه يحلم بوحدة واعدة بين الدولتين ، وسوف تتكرر هذه الفكرة مرة أخرى بعد قرن من الزمان على يد ناصر دون نجاح فى استمرارها وذلك عندما تم إنشاء الجمهورية العربية المتحدة بصورة عابرة والتى جمعت مصر وسوريا تحت سلطة موحدة بزعامة الرئيس المصرى وهو مالم يقبله السوريون .

لم يقبل بعد محمد على بهذا الاقتراح الذى قدمه السلطان محمود الثانى الذى زاد قلقه مكر ودسائس الوهابيين، وبدأ يشعر بالغضب فى حال اشتباك محمد على مع المتمردين ، وبدأ يفكر فى خيارين : إما أن يضع محمد على حدًا للتمرد وأن يرى

الباب العالى هذه المسألة الشائكة قد سويت ، أو على النقيض من ذلك ، لا يقوم محمد على بقمع هؤلاء المتمردين وفى هذه الحالة سيفقد مكانته فى العالم العربى، وينبغى عليه أن يتوقف تماماً عن طموحاته العارمة .

لم يقاوم محمد على هذا العرض ، ولأول مرة يرسل السلطان خطاباً لمحمد على فى يناير ١٨١١ م يعده فيه أنه فى حالة تحقيق النصر على المتمردين فى مكة والمدينة ، فإن السلطان يصدر مرسوماً يمنح بموجبه ملك مصر له ولأسرته عندئذ لم يعد محمد على يقف موقف المتردد ، فقد أصبح قاب قوسين أو أدنى من تحقيق هدفه الأساسى وقبل المغامرة بكل حماسة .

ومع ذلك شعر محمد على أنه سلك طريقاً محفوفاً بالمخاطر الجمه لأن المتمردين لديهم قوات لا يستهان بها وربما يصل عدد المقاتلين إلى مائة ألف رجل غير منظمين لكنهم مدربين على القتال فى الصحراء ، وفى المقابل ، فإن الجيش المصرى بعيد عن أراضيه ولم يكتسب بعد التلاحم الذى كان فى نية محمد على ، كما أن محمد على ، شأنه فى ذلك ، شأن أى قائد حربى ، لم يكن راضياً عن إرسال رجاله الألبان بعيداً عنه وتبديد طاقاتهم ضد عدو خارجى ، ومن ناحية أخرى ، لم يكن الوضع الداخلى فى مصر مستقراً لأن إبعاد المماليك عن الحكم والسيطرة لم يمض عليه وقت طويل ويخشى من عودتهم مرة أخرى للتآمر ، وفى استامبول كان لمحمد على أعداء ومنافسين من المحيطين بالسلطان نفسه والذى لا يسعدهم نجاح محمد على فى مهمته ، وفى حالة فشله سيبادرون بإزالة نفوذه والحط من قدره . وعلى الصعيد الدولى ، أكد محمد على نفسه على أنه متضامن مع السلطان ، ومن هذا المنطلق ، افتتح محمد على سياسة التأرجح على الطرفين والتى استمر فى ممارستها : فهو شريك فى إمبراطورية ضعيفة حتى يتمكن بقوته من التصرف على هواه ، ولكن من ناحية أخرى ، فإن مصلحته تستدعى أن تكون الإمبراطورية قوية بما فيه الكفاية حتى لا يثير أطماع الدول الأوروبية المتحفزة دائماً للانقضاض على هذه الإمبراطورية وتقسيمها فيما بينهم خاصة ما شعر به عن حق فى تخوفه من تدخل الأسطول البريطانى فى جنوب مصر وفى البحر الأحمر .

لقد كان موقف محمد على فى هذا الصدد منطقيًا تمامًا : فقد كان يفضل أنه بمجرد تثبيت نفوذه وسلطانه ، يتفرغ لعدة سنوات لشئون البلاد الداخلية لكن لم يكن يرضى بترك تلك الفرصة تمر حيث داعبت آماله وطموحاته الشخصية له ولبلاده ، وأوضح لشعبه أنه بخروجه من عزلته أصبح قادرًا على آداء الأدوار الرئيسية سواء فى مواجهة الإمبراطورية العثمانية أو القوى الأوروبية ، وأصبح الهدف الأساسى لمحمد على حاليًا هو كسر شوكة التمرد الوهابى وأن عليه أن يصر على تحقيق النصر حتى يتمكن من تكوين إمبراطورية عربية مترامية الأطراف لصالحه تخرج من الإمبراطورية العثمانية ، « وتضم تلك الإمبراطورية تجمعات الأجزاء الكبرى من الشرق العربى ولم تكن سوى استعادة أمجاد المماليك لمشروعهم العظيم الذى أقاموه فى القرن الثامن عشر ، ولكن .. ، محمد على كسياسى محنك ، أدرك مبكرًا أنه لابد أن يضع فى اعتباره السياسة الأوروبية فى المنطقة . لقد قضت الحملة المصرية نهائيًا على عزلة مصر » (عن كتاب هنرى لورنس – حملة مصر) .

ظهر من جديد الأثر المزدوج لحملة نابليون بونابرت ، فإذا كان محمد على قد ترك الحرية كاملة للقيام بالإصلاحات الداخلية على يد الچنرال الفرنسى ، فعلى النقيض من ذلك ، وضع محمد على فى اعتباره الرأى العام للقوى التى كانت تهتم قليلاً بحاكم مصر .

الحملة على الجزيرة العربية :

الاستعـــدادات :

فى الوقت الذى عاب فيه البعض فى استامبول على عدم حماسة محمد على فى شن الحرب ، فإنه على النقيض قد أعد لها بعناية كبيرة ووضع فى اعتباره عامل الوقت والأموال ، فبالنسبة للوقت ، لم يتعجل لكى يدقق فى التشكيل القتالى ، أما بالنسبة للأموال فكانت نادرة دائمًا ، وقد وعد الباب العالى بأن يتولى تمويل العملية على نفقته، لكنها كانت عملية مستترة وغير واضحة فى أن يرسل الباب العالى الأموال اللازمة لمحمد على .

لم يتم حل مشكلة قيادة الحملة طبقًا لرغبة السلطان ، « رغم الأمر الذى وصل إليه شخصياً فإن محمد على لم يقترح أن يقود الحرب بنفسه لأنه كان يفضل البقاء فى مصر لمواجهة حدوث أى مخاطر أو اضطرابات داخلية أو ظهور أى عدو خارجى » ، ولذا ، فقد عهد إلى ابنه طوسون بقيادة الحملة رغم أن عمره كان ١٦ سنة وقد عمل مساعداً لحسن أغا وهو زميل قديم لمحمد على ويحمل لقب قائد عام والخازندار أحمد . كان طوسون بمثابة مستشار سياسى كما اصطحب معه تاجراً لديه خبرة بالممارسات التجارية فى الجزيرة العربية وهو محمد المحروقى الذى كان موضع ثقة أبيه .

تفرغ محمد على فى التجهيز للحملة ونقل الجنود وتموينهم وإيوائهم ، كان يشعر أنه سيقود حرباً ضارية فى الصحراء ضد عدو ضخم من المتمردين ولديهم خبرة طويلة ومواهب فى الكر والفر ، وعلى ذلك ، فالجيش المصرى ليس لديه ، الأعداد الكافية للقيام بمثل تلك المهمة ، كما أن محمد على أوضح لضباطه أهمية مسألة العتاد والأسلحة فى الحرب التى يعد لها : فقادة الحملة سيعوضون النقص فى أعداد الجنود بمعدات مصنعة بينما العدو لم يحصل عليها ، من أجل ذلك قرر محمد على إنشاء مصانع للسلاح فى كل من القاهرة والإسكندرية لصنع الأسلحة والذخيرة ثم مدافع لإنشاء سلاح المدفعية المصرى .

إنشاء أسطول فى البحر الأحمر :

من المشاكل التى صادفتهم مشكلة النقل ، وفضّل محمد على الانتقال عن طريق البر لأنه الأسهل ولكن للوهلة الأولى وجد أنه غير آمن لأن المتمردين سيجازفون فى كل لحظة بالانقضاض على القوافل للاستيلاء على الرجال والجمال والعتاد .

وهكذا كان من الضرورى تجهيز سفن بحرية فى البحر الأحمر لنقل القوات والعتاد والمؤن ، ومنذ عام ١٨١١ م بدأ محمد على فى وضع أسطول بحرى فى البحر الأحمر . كان نابليون بونابرت قد أمر بصنع زوارق مسلحة فى بولاق على شاطئ النيل بالقاهرة ، والواقع أن نابليون ترك بصماته فى مجالات مختلفة سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية طوال الثلاث سنوات التى قضاها فى مصر ، فتم إعادة تشغيل

ورشة السفن الحربية هذه وتوسيعها . وفى خلال عشرة أشهر تم صناعة ١٨سفينة متوسطة نقلت على ظهر الجمال إلى السويس بعد تفكيكها وإعادة تجميعها هناك . كان محمد على فى حاجة إلى بواخر كبيرة لحملته فقرر شراءها من إنجلترا ولكى تصل إلى السويس عليها أن تأتى عن طريق رأس الرجاء الصالح ، لكن إنجلترا لم تكن راغبة فى ظهور أساطيل تحمل أعلامًا جديدة فى البحر الأحمر واقترحت أن تضع تحت تصرف محمد على بواخر إنجليزية مجهزة بأطقم بريطانية لكن محمد على رفض هذا العرض خوفا من أن يؤدى ذلك بصورة ملتوية وغير مباشرة من جانب الإنجليز إلى تواجدهم الدائم فى البحر الأحمر ، لم يقف محمد على عاجزًا : فقد وجد المصريون سفينة تجارية فى ميناء الإسكندرية على وشك الانتهاء من بنائها وتدشينها وجد باسم « أفريقيا ١ » فأمر بإرسالها إلى لندن لتحويلها إلى سفينة حربية ، إلا أن المسئولين عن شركة الهند لم يوافقوا وضغطوا على الحكومة الإنجليزية لإعادة السفينة إلى الإسكندرية دون تجهيزها حربيًا ، ثم وافق البريطانيون فيما بعد على تجهيزها بثلاثين مدفع من البرونز وتعتبر هذه أول سفينة حربية كبيرة لمساندة قوات محمد على فى نضاله ضد الوهابيين .

بـــدء الحملـــة :

اتصل محمد على قبل بدء القتال بالشريف غالب أمير الساحل الذى يربط بين المدينة ومكة وتعاطف مع المصريين هو وسكان تلك المناطق الذين أرهقتهم عمليات الابتزاز التى يقوم بها الوهابيون فكان على استعداد أن يستقبل المصريين كجند ويحررون أرضه . وفى سبتمبر ١٨١١ م رحل فيلق الحملة إلى الجزيرة العربية وتوغل فى منطقة الحجاز الواقعة على طول شاطئ البحر الأحمر بقوة تقدر بستة آلاف مقاتل مشاة من الألبان وألفى فارس تحت قيادة طوسون . كانت البداية مأساوية ، فبعد تحقيق أول نجاح ، وقعت قوات طوسون فى كمين فى مضيق جبلى عند بدر ، ولم ينج سوى ثلاثة الاف مقاتل من الثمانية آلاف استطاعوا الهروب واللجوء إلى ميناء ينبع ومعهم الأمير ، وتمكن البعض من العودة إلى القاهرة حيث استقبلهم محمد على بفتور،

انتهز فرصة فشلهم وأمر بعزل بعض الجنرالات وابعادهم عن مصر وإعادة بعض العناصر الألبانية إلى بلدهم الأصلية لأن بقاءهم بمصر أصبح غير مرغوب فيه .

إذا لم يكن لدى محمد على أى خبرة فى إدارة الدولة عند قدومه ، فعلى النقيض من ذلك ، كانت لديه معرفة قوية بالنواحى العسكرية ، ولذا فقد توقع الجانب السيئ ومن أجل ذلك كان يعد إحتياطيًا قويًا على أهبة الاستعداد للتدخل الفورى والسفر عن طريق البر لدعم وتقوية الجيش هناك بقيادة ابنه الذى أعاد تنظيم القيادة وسافر مرة أخرى فى حملة عام ١٨١٢ م وأحرز نجاحًا باهرًا ، فحرر المدينة ثم جدة ومكة وهو نصر حقيقى لمحمد على نفسه، نصر أحدث دويًا هائلاً فى كل أرجاء الدول الإسلامية وعرف محمد على كيف يستغله وبدأ يظهر دوره كعامل وسيط وأسرع بإرسال ابنه الثالث إسماعيل إلى القسطنطينية حاملاً مفاتيح المدينتين المقدستين إلى السلطان لإعلان نجاحه فى المهمة التى كلفه السلطان بها .

محمد على فى الحجاز :

لم تتوقف الحرب ضد الوهابيين بالاستيلاء على تلك المدن لأن المقاومة الوهابية استمرت بشدة ، فقرر محمد على الحضور شخصياً إلى الحجاز لتقديم يد المساعدة لابنه ومساندته فى العمليات العسكرية ، كما أغرى بالتوجه إلى مكة ، ورغم أن شعوره لم يكن قويًا ، فقد بهره منظر الحجيج والأعداد الغفيرة من المسلمين الذين يفدون منذ قرون طويلة وتمنى أن يشترك معهم فى أداء تلك المناسك ويعلن تقواه أمام الشرق بأنه محرر الأماكن المقدسة ، ومن أجل ذلك ، فكر فى تحسين صورته فى العالم الإسلامى .

وصل محمد على إلى الحجاز فى أكتوبر ١٨١٣ م وأقام هناك لمدة عامين تاركًا السلطة فى مصر لموظفيه ينوبون عنه وخاصة كيايابك ولاظوغلى الذى كان يشغل أيضًا منصب وزير الداخلية ، ومن المعلوم أن غياب الحاكم لفترة طويلة عن بلده فى ذلك الوقت بل وحتى هذه الأيام يعتبر عدم فطنة من جانبه ، وفى الواقع ، كان السلطان محمود الثانى يشعر بالغيرة الشديدة لنجاح محمد على فى الجزيرة العربية بدلاً من أن يكن له الاعتراف بالجميل ، فهو يدرك تمامًا أن هذا التابع سيستغل بمهارة النصر

الذى حققه ، وانتهز السلطان محمود الثانى غياب محمد على عن مصر لإيجاد منافس له فى مصر وهو لطيف بك أحد الأصدقاء المقربيـن لمحمد على والذى رافق إسماعيل ابن محمد على إلى استامبول ، أرسله السلطان إلى القاهرة فى مهمة بلقب باشا تشريفًا له وكان يحمل معه فرمانًا بصورة سرية بتعيينه حاكمًا على مصر ، وكان مجتمعًا بأتباعه عندما حضر لاظوغلى فقبض عليه وقتله فى ديسمبر ١٨١٣ أى بعد شهرين من وصول محمد على إلى الحجاز ، وهكذا تمت معالجة الموضوع بهمة وإخلاص ، وأبلغ لاظوغلى محمد على الذى رد بأنه لا داعى لحضوره إلى مصر وهنأ مساعديه وشكرهم ومنحهم الثقة التامة ، وأسَرَّها محمد على فى نفسه دون أن يبدى دهشة أو انزعاجًا لخداع ومكر السلطان لكنه لم ينس هذا التصرف ، وواصل نشر السلام وفى نفس الوقت كان يوجه ضربات عنيفة إلى القوات الوهابية التى لم تستطع أن تعيد تنظيم نفسها واندفعت جهة اليمن وقبض على غالب شريف مكة الذى لم يكن يتسم بالرجولة على الرغم من مساعدته لهم ضد الوهابيين وعين مكانه رجلاً من أتباعه هو حسن باشا ، أشار مستشارو محمد على عليه بأن يستولى على اليمن لغزوها واحتكار تجارة البن فيها ، ففى هذه المنطقة تم تطوير زراعة البن الحبشى وابتداء من القرن الثامن عشر بدئ فى تصديره إلى أوروبا ، وقد أراد محمد على باستيلائه على اليمن أن يحتكر تجارة البن إلى أوروبا ، إلا أن حكمته تغلبت على تطلعاته فى المنطقة التجارية وآثر عدم الزج بنفسه فى هذه المناطق الجبلية التى يختبئ فيها المتمردون بسهولة وعمل كمائن لإصطياد أفراد الجيش النظامى ، ولذا فقد اكتفى بإخضاع أئمة اليمن ومنهم إمام صنعاء العاصمة الحالية لليمن .

اتضحت فطنة محمد على ونظرته العميقة للأمور حيث ظهر أن الإنجليز كانوا يتتبعون عن قرب تقدمه فى الجزيرة العربية ، وكانوا يسعون إلى التدخل فى المنطقة ويهتمون بشدة لغزو عدن لتقوية وضعهم فى البحر الأحمر ، وقد أرادوا أن ينسبوا لأنفسهم الفضل فى انتصار المصريين واقترحوا القيام بعمليات مشتركة لتدمير مأوى لسفن قرصنة فرنسية فى جزر الأرخبيل بالمحيط الهندى ، إلا أن محمد على أبدى تحفظًا شديدًا تجاه هذا العرض الخاص بالتعاون المحلى لأن الأنباء الواردة من أوروبا كانت غير مطمئنة خوفًا من إعادة هجوم الأوروبيين مرة أخرى على مصر ، وعاد إلى

القاهرة فى مارس ١٨١٥ م ، ومن العجيب أن نذكر هذا القلق من جانب هذا السياسى العظيم « محمد على » لأن نابليون فى صراعه مع أوروبا تحالفت كلها ضده وأصبح عاجزًا عن القيام بعملية لتحويل أنظار انجلترا عن مصر إذ أن قطع طريق التجارة المؤدى إلى الهند لم يعد يشغله أو يثير اهتماماته ، وتعهد الحلفاء فيما بينهم على القضاء نهائيًا على عدوهم فى ميادين القتال الأوروبية ، وفى يونية ١٨١٥ م علم محمد على بما حدث فى ووترلو وانهيار الجيش الفرنسى تمامًا بقيادة نابليون الأول ، وكان محمد على شديد الإعجاب بنابليون وكان يتمنى مقابلته واستلهم الكثير من سياسته الإصلاحية وشعر بالحزن الشديد على ما آل إليه مصيره على المسرح الدولى .

نهايــة التآمــر للوهابييــن :

بعد عودة محمد على إلى القاهرة ، واصل ابنه طوسون القتال ضد عبدالله الزعيم الجديد للوهابيين وانتهى إلى عقد صلح معه ، وعاد طوسون إلى القاهرة ليحضر الاستقبال الحافل مثل ذلك الذى كان يقام فى روما للقادة المنتصرين فى الحروب ، ولكن لسوء الحظ أصيب بمرض الطاعون ومات عام ١٨١٦ م قبل الاحتفال بانتصاره ، وحزن عليه محمد على حزنًا شديدًا لدماثة خلقه وطباعه الرقيقة وكان الأقرب إلى قلب والده .

حل إبراهيم محل أخيه الأصغر فى قيادة الحملة بالجزيرة العربية وكان عمره فى ذلك الوقت ٢٧ عامًا وبدأ يفرض نفسه كقائد عام ممتاز وأنه سوف يخلف أباه فى الحكم ، تحصن الوهابيون فى المناطق الداخلية وواصلوا انهاك القوات المصرية المتمركزة على الساحل . عندئذ قرر محمد على إلغاء الهدنة المبرمة مع عبدالله وأمر إبراهيم بإضعاف العصيان الوهابى بصورة نهائية واستمرت المناوشات من عام ١٨١٦ إلى عام ١٨١٨ م حيث أسر عبدالله وأرسله إبراهيم إلى استامبول وليس إلى القاهرة لأن الحملة ضد الوهابيين كانت لحساب السلطان ، وهناك وبحضور السلطان محاطًا بوزرائه وحريمه تم إعدام عبدالله زعيم المتمردين وسط صيحات الجماهير وبقيت جثته معلقة لمدة ثلاثة أيام .

عاد إبراهيم إلى القاهرة وسط استقبال حافل كان قد وعد به أخوه ، وترك حاميات فقط بالمدينة ومكة والطائف وجدة وينبع ، وبذلك انتهت الحرب مع الوهابيين إلا أنها لم تكن حرب غزو ولم يكن محمد على يريدها أن تنتهى بهذا الشكل فاحتفظ بحكومة فى المنطقة الواقعة على الساحل وفى جدة كمنحة من السلطان على تدخله ونتيجة للخدمات الجليلة التى قدمها له محمد على .

نتائج الحملة فى الجزيرة العربية :

كان للنصر الذى أحرزه محمد على على الوهابيين ردود فعل دينية وسياسية ملموسة فى الشرق ، فقد هزم محمد على الانفصاليين الوهابيين والخارجين عن الإجماع الدينى وظهر كحامى حمى الإسلام إرضاءً للسلطان الذى ظل خامداً أمام التهديد للدين الذى يرعاه بصفته خليفة المسلمين ، وتوالت فى كل أنحاء العالم الإسلامى مظاهر الفرح والعرفان بالجميل ، وأرسلت الهند هدايا قيمة لمحمد على ، كما أرسل إليه شاه بلاد فارس عدة سيوف مطعمة بالأحجار الكريمة ، ومنح ألقاب شرفية من عدة جهات ، « وقام أحد أمراء الهند المسلمين بترك وصية له بكل ثرواته لأنه الرجل الوحيد القادر على حماية الإسلام » .

عين السلطان إبراهيم واليًا على مكة ومنحه لقب باشا واعتبره ممثل الباب العالى فى الجزيرة العربية ، فهل كان السلطان يقصد من وراء ذلك خلق نوع من المنافسة بين إبراهيم وأبيه ويسير على مبدأ « فرق تسد » ؟ من المحتمل أن يكون كذلك ولكن هل نسى السلطان أن إبراهيم أعرب عن عدم حبه للأتراك أثناء إقامته فى استامبول ، من ناحية أخرى ، فإن إخلاص إبراهيم لأبيه لا حدود له ، فهو يكن له كل إعجاب ومودة ، فهو كقائد حربى ليست له مطامع سياسية أمام أبيه ولا يسعى للتآمر ضده ، وهما متفاهمان تمامًا فى كل الأمور خاصة فيما يتعلق بسير الأمور فى الجزيرة العربية للعمل على إعادة استقرار الأمن والرخاء لتلك البلاد وتأمين حركة المرور والترانزيت وإحياء النشاط التجارى لميناء جده . وهكذا وجد محمد على نفسه يجنى المكافأة سواء مباشرة أو عن طريق ابنه إبراهيم بل أكثر مما كان يتوقع عندما بدأ حملته ضد

الوهابيين . ومع ذلك ، فإن الحرب دائمًا لها جوانب سلبية ولاحظ محمد على إنها حمّلت الخزانة المصرية تكاليف رهيبة رغم وعود استامبول بالمساعدات المالية ، وتكبد الجيش خسائر فادحة وخرجت مصر من تلك الحرب منهكة ، فالحرب دائمًا ليس فيها غالب ولا مغلوب . وأخيرًا ، فإن القوات المصرية فى الجزيرة العربية بدأت تتعرض لسلسة متوالية من العصيان وحرب العصابات كنتيجة حتمية للاحتلال العسكرى ، وبدأ محمد على يتصرف بحكمة وألا يترك العنان لأطماعه فبدأ يقلل من مساحة المنطقة المحتلة .

ورغم تلك الصعوبات ، فقد بدأ يعلن بمزيد من الفخر عن تحقيق هدفه وهو : تكوين دولة عربية ابتداءً من مصر وهذا أمر يتسم بالتناقض الواضح لأنه هو أصلا ليس عربيًا ، لكنه نجح فى أن يضفى على العملية الطابع الدينى على الرغم من أنه لم يكن فى نيته توجيه أى لوم ضد الوهابيين لأن اهتمامه كان منحصرًا فقط فى الإصلاحات داخل مصر ، لكنه أدرك المزايا التى تعود عليه من حملته ضد مثل تلك الدعوات الانفصالية وأوجد لصالحه أول انشقاق بين الإمبراطورية العثمانية والإسلام والذى جسد مقدمًا الانفصال التام الذى قرره مصطفى كمال أتاتورك فى وقت لم تعد فيه تركيا تقوم بأى دور عالمى ، لقد تردد محمد على طويلاً قبل إقدامه على قبول تلك المهمة ، فلقد كانت مغامرة ضخمة بالنسبة له ، لكنه استعاد ما غامر به وبصورة أكبر مما كان يرجوه ، وبالنسبة للجزيرة العربية فقد استفادت هى الأخرى ، فقد فتحت الحملة المصرية المجال أمامها للتأثر بالنفوذ الغربى ، وبدأ الرحالة الغربيون يكتشفون تلك البلاد ، وقد ذكر الشاعر الفرنسى لامارتين أن إبراهيم باشا كان المبشر بالحضارة الغربية فى الجزيرة العربية .

وعلى الصعيد الدولى ، فإن إنجلترا وإن ظلت لا تبالى بالنفوذ الكبيرة لمحمد على فى العالم الإسلامى ، فإنها تساءلت عن الاهتمام الشديد والزائد عن الحد لمحمد على بمنطقة البحر الأحمر الحيوية لمصالحها الإستراتيجية ، كما إن الحكومة البريطانية تنظر دائمًا بعين الريبة تجاه محمد على لمحافظته على علاقات جيدة ومميزة مع فرنسا دون مقابل ، فالانجليز لا يودون رؤية الفرنسيين فى الخليج يقتفون أثر محمد على .

حملـــة الســـودان (١٨٢٠ - ١٨٢٣) :

كان الاهتمام الذى أبداه محمد على بالنسبة للسودان انعكاسًا لما كان يراه نابليون بونابرت بشأن السودان وهى أنها احتياطى طبيعى للرجال لتجنيدهم فى الجيش ، كما استعاد الحلم القديم للفراعنة الذين كانوا يريدون السيطرة على النيل من منبعه ، نظر إلى النوبة وأعالى النيل كامتداد طبيعى لمصر من ناحية الجنوب وأنها تشكل جزءًا متكاملاً للمنطقة الواقعة خلف ميناء الاسكندرية . عنصر آخر كان يثير أطماع محمد على فى السودان هو اعتقاده بأنها تحوى كنوزًا وثروات معدنية ومناجم ذهب ضخمة يمكن عن طريق استغلاله تعويض الخزانة المصرية مما يبرر القيام بغزو تلك البلاد ، وقد اكتشف بعد ذلك أن كل تلك الآمال مجرد وهم .

وما أن انتهى مع الوهابيين حتى بدأ يعد العدة لحملة جديدة ، وبدأ غزو أعالى النيل حوالى عام ١٨٢٠م بالملاحة عكس اتجاه النيل بقيادة إسماعيل باشا الابن الثالث لمحمد على . شرع المصريون فى بادئ الأمر بتشكيل أسطول كبير يضم ثلاثة آلاف صندل لكنهم أدركوا بسرعة أن الصعود الجديد للنهر بسبب الشلالات يشكل عقبة كبرى لذا تم التدخل عن طريق القوارب والصنادل على ظهر الجمال ، وصمم إبراهيم باشا على اجتياز النيل الأبيض وبحر الغزال حتى تشاد حيث حصلت مصر فيها على ملكية جزء من القارة الأفريقية ، ونظرًا للإمكانات القليلة التى كانت بحوزة المصريين فقد واجهوا صعوبات كثيرة فنية وجغرافية وبشرية ، وعانى إسماعيل باشا متاعب جمة : فقد تخلى عنه أتباعه لطباعه المتغطرسة ومعاملته الشرسة لهم، وولّدت الحقد عليه لدى سكان المناطق التى غزاها . وقد هدد إسماعيل باشا أحد الزعماء السودانيين ويدعى ملى دو ميتاما بتعذيبه بالخازوق فما كان منه إلا أن اختبأ فى كمين وأشعل النار فى المنزل الذى لجأ إليه إسماعيل باشا واحترق حيًا . وأحدثت وفاته بعد أخيه طوسون حزنًا رهيبًا لدى محمد على الذى أساء فهم ابنه .

تولى صهر محمد على محمد الدفتردار القيادة عقب وفاة إسماعيل وأكمل غزو السودان عام ١٨٢٣ م وتأسست الخرطوم عام ١٨٢٢ م عند التقاء النيل الأزرق بالنيل الأبيض واستقر بها الحاكم المصرى للسودان وأصبحت العاصمة للمستعمرة .

وبينما كانت الحملة ضد الوهابيين بناءً على طلب السلطان وبدوافع دينية ، فإن الحملة على السودان كان دافعها استعمارى الهدف منها ضم تلك البلاد إلى مصر حيث كان محمد على يحلم بإنشاء إمبراطورية عربية عظمى تضم من الجنوب شرق أفريقيا وتتجه إلى الشمال نحو الموانئ العربية ، وكان ذلك يستدعى عملية عسكرية إضافية باتجاه الحبشة ، إلا أن انجلترا كانت متيقظة لمخططات محمد على، ووقفت له بالمرصاد أمام تنفيذ مشاريعه تلك ، وقابل القنصل الإنجليزى سولت محمد على عام ١٨٢٠ م وحذره من أن إنجلترا لن تسمح له إطلاقًا بسقوط دولة مسيحية كالحبشة فى أيدى المسلمين ، واجه محمد على من جديد مشاكل دينية، ولكن هذه المرة فإن الإسلام الذى يدعى حمايته أصبح فى غير صالحه ، وبالنظرة العملية التى كانت تسيطر عليه ، وجد أنه من الأفضل عدم الإصرار على احتلال الحبشة والاكتفاء بالسيطرة على السودان .

والسؤال الآن .. ما هو موقف الباب العالى حيث ظهر واضحًا أن محمد على لم يستشره عندما اندفع فى مغامرته الإفريقية ؟

فى الواقع ، لم ير الباب العالى أى ضرر طالما أن الغزو كان محدوداً بحيث لا يسبب إزعاجًا أو قلقًا لإنجلترا عن طريق تهديد طرق مواصلاتها الإمبراطورية ، كما أوضح محمد على للسلطان أن ضم السودان إنما هو إضافة هامة للإمبراطورية العثمانية ، فمساحة السودان ضعف مساحة مصر وحوالى نصف مساحة أوروبا ، فمصر لم تكن إلا إقليمًا فى الإمبراطورية، واتساع رقعة مصر اتساع للإمبراطورية العثمانية ، غير أن السلطان لم يكن بتلك السذاجة ولم ينخدع لأن محمد على أراد باحتلاله السودان أن يجعل منها مستعمرة لمصر ، إضافة إلى احتلاله الساحل الشرقى للبحر الأحمر ، وهكذا وفى عام ١٨٢٣ م ، أصبح محمد على يسيطر على الساحل الشرقى والساحل الغربى للبحر الأحمر .

غـــزو اليمـــن :

ولتأكيد هذا الوضع بصورة نهائية ، بقى أن يعمل محمد على على إضعاف المتمردين العرب الذين يثورون ضده بإرسال حملات تأديبية مستمرة ، وفى عام

١٨٢٣ م قرر الاستيلاء على اليمن لقطع اتصالاتهم بقواعدهم ، واستمرت عمليات الغزو لمدة عامين بقيادة أحمد باشا وكانت عملية شاقة لكنها انتهت بالنصر ، إلا إنه كان نجاحًا خادعًا إذ اضطر محمد على إلى سحب جزء من قواته عام ١٨٢٦ م لإرسالها لجبهات أخرى ، وعلى أى الأحوال ، لم يكن يفكر فى الاستيلاء على اليمن إلا تدعيمًا لنقاط ارتكازه فى الحجاز ، لكنه سوف يضطر فيما بعد للعودة إلى اليمن لحماية خطوطه الخلفية ، ووضع فترة زمنية مدتها سبع سنوات من ١٨٣٣ إلى ١٨٤٠م لغزو تهامة وهى عبارة عن سهل رملى طويل يمتد على ساحل البحر .

وصل محمد على إلى مضيق باب المندب الذى يتحكم فى البحر الأحمر من الجنوب ، شعرت إنجلترا بالقلق على عدن وضغطت على محمد على للانسحاب من اليمن وتم جلاء قواته عنها عام ١٨٤٠ م .

وابتداءً من عام ١٨٢٣ م كان عليه أن يهدئ من رغبته الجامحة للغزوات العربية أوالسودانية وكذلك توسعه فى الجنوب لكى يتحول إلى أوروبا ، فقد واجه السلطان محمود الثانى صعوبات خطيرة فى اليونان واستدعى محمد على لإنقاذه مرة أخرى .

الفصل الخامس

التدخل المصرى فى اليونان (١٨٢٣ - ١٨٢٧ م)

العوامل التى ساعدت على التدخل :

انتشرت الأفكار التى نادت بها الثورة الفرنسية انتشاراً كبيراً فى أرجاء أوروبا ، وأحدث ذلك يقظة فى الروح الوطنية ساعدت الشعوب المتمسكة بخصوصياتها داخل الإمبراطوريات العظمى إلى المطالبة بحكم أنفسهم بأنفسهم . أحدثت تلك الأفكار الجديدة صدى كبيراً فى الجزء الأوروبى من الإمبراطورية العثمانية بل هز كيان تلك الإمبراطورية ، وعندما حاصر الأتراك فيينا منذ زمن بعيد ، حدث ذعر كبير لدى الشعوب المسيحية ولكن لم يرتد الجيش التركى عن تلك المناطق بصورة كلية ، فقد ظلت اليونان والبلقان تحت السيطرة العثمانية .

كان الاحتلال هادئًا لا يتسم بالعنف ، وحرص الباب العالى على احترام نمط الحياة والحرية الدينية للشعوب التى كانت تحت طاعته ، وكان عدد معين من الشعوب المسيحية تحت تبعية سلطة إسلامية وبرغم التسامح الذى كان ممنوحاً لهم فإنهم كانوا يحلمون بالحصول على استقلالهم ، وينطبق هذا الوضع على اليونانيين رغم أن العديد منهم يتمتعون بمناصب مميزة ، وبصورة شخصية ، وذلك داخل نطاق الإمبراطورية ويرجع ذلك إلى كفاءتهم ومهارتهم فى التجارة ، كذلك كان لهم الدور الرئيسى فى الأعمال الحرة .

ومن الغريب أن السلطان الذى لم يكن يسمح بالخروج عن الإجماع الدينى فى الإسلام كما حدث مع الوهابيين ، فإنه أبدى انفتاحاً كبيراً وسعة صدر تجاه المسيحيين

لدرجة أن البطريرك الأرثوذوكسى اليونانى كان يقيم دائماً فى القسطنطينية ، وبالتأكيد فإن كاتدرائية القديسة صوفيا التى تحولت إلى مسجد عام ١٤٥٣ م فى القسطنطينية قد أثرت فى نفوس المسيحيين ، وفى المقابل ، فعندما طرد الأسبان العرب من الأندلس، قاموا بإنشاء كاتدرائية داخل مسجد قرطبة ، وكانت السياسة الغامضة للإمبراطورية العثمانية تقوم فى نفس الوقت على السلطة والانفتاح ، ولا ينقصها القيام باستمرار بإجراءات صارمة للمحافظة على كيانها ، ففى اليونان مثلاً ، كانت السلطة تطبق عليهم من خلال قادة المناطق حيث كانت وظائفهم عسكرية تماماً ، ترك الأتراك الجماعات المسيحية تحيا حياتها بحرية تامة داخل الإمبراطورية باستثناء مطلب واحد هو أن يقوموا بدفع الضرائب ، ومع ذلك ، ففى عام ١٨٢١ م ، قام اليونانيون بأعمال شغب أزعجت الباب العالى وبالتالى لم تعد القوات التركية تشعر بالأمان فى تنقلاتها داخل البلاد ، وشعر السلطان محمود الثانى بضرورة قمع تلك الأعمال العصيانية المتنامية والتدخل السريع لإيقافها .

السلطان يوجّه نداء إلى مصر :

على أثر نجاح العملية التى قام بها محمد على لقمع الوهابيين ، كان من الطبيعى أن يبادر السلطان بتوجيه نداءً لمحمد على لمساعدته بقواته عندما تواجهه أى مشكلة داخل حدود الإمبراطورية ، ويبدو أن السلطان نسى أن لديه جيشاً وأسطولاً بحرياً تركياً ، لكنه يفضل اللجوء إلى أتباعه ، وقد فعلت الإمبراطورية البريطانية نفس الشىء أثناء الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية عندما لجأت إلى الاعتماد على أعداد كبيرة من الكنديين والهنود والأستراليين والنيوزيلانديين .

كان المشروع الذى عرضه السلطان مفاجئاً لمحمد على ، لأنه من قولة فى مقدونيا القريبة من اليونان وهو متفتح على الأفكار الجديدة وليس لديه أى مسلم متعصب ، بل إنه يستخدم فى إدارته عدداً كبيراً من الأقباط المسيحيين ويوكل إليهم مسئوليات هامة، وهو فى نفس الوقت يقدر التجار اليونانيين المقيمين بمصر ، وأخيراً فإن اليونانيين بعيدون عن قواعده فى مصر ، وربما أراد السلطان محمود الثانى بتوجيه ندائه إلى

مصر بأن « يضرب عصفورين بحجر واحد » لكى يعمل على إضعاف هذا المنافس الخطير الذى يضمر له غيرة وحقداً دفيناً بنجاحه فى القضاء على الحركة الوهابية ، وقد أوحى خسرو للسلطان بهذه الفكرة حيث كان والياً سابقاً على مصر وعزله محمد على .

وكما حدث بالنسبة للحملة على الجزيرة العربية ، فقد شعر محمد على فى أول الأمر بالزهو بلجوء السلطان إليه واعترافه بقوته ، لكنه فى نفس الوقت شعر بالحيرة للقيام بإعداد حملة جديدة فى الوقت الذى انتهى فيه من غزو السودان ويريد أن يضع حداً لنشاطه الخارجى كى يتفرغ للإصلاحات التى بدأها داخل بلاده ، إلا أن السلطان يعرف كيف يبتز محمد على ويعرض عليه فى مقابل تدخله حكم المورة وكذلك جزيرة كريت وتأكدت تلك الاقتراحات بفرمان صدر فى يناير ١٨٢٤ م الذى وصف فيه باشا مصر « بالقادر على إبادة الخونة » مذكراً بأن تلك العملية ذات طابع دينى .

تمتع محمد على فى ذلك الوقت باحترام كبير فى العالم الإسلامى عقب غزوه لمكة والمدينة وطرده الوهابيين منها ، ولذا أصبح محمد على مدعو لمواصلة مهمته فى الدفاع عن الإسلام ، ومن ناحية أخرى ، فإنه فى حالة رفضه التدخل فى اليونان ، سيضع نفسه فى موقف مخالف لما عرف عنه فى العالم الإسلامى وسيفقد المزايا التى حصل عليها من حملته ضد الوهابيين ، والمعروف أن محمد على لم يكن أقل دهاء فى السياسة من السلطان محمود الثانى ولذا فقد وضع فى اعتباره أهمية الرأى العام العالمى ، وعليه ، فقد قرر الخضوع لطلب السلطان ووافق على مبدأ التدخل فى اليونان حيث سيجنى فائدة كبرى من وراء ذلك .

والمشكلة الآن : كيف سيتوجه من مصر إلى اليونان دون اللجوء للطريق البحرى لإرسال قوات ومعدات ؟ لقد شعر محمد على بالحاجة الملحة أكثر من أى وقت مضى بتجهيز أسطولاً يقوم بمهمة مزدوجة : حماية النقل البحرى والاشتراك فى العمليات الموجهة ضد البحرية اليونانية .

إنشـــاء أسطـــول مصـــرى :

يعمل الأسطول البحرى على تأمين الدفاع الخارجى للإمبراطورية ويعتبر رمزاً لسيادتها ، كما كان يقوم بمهمة تأمين السلامة والأمن للاتصالات البحرية بين الباب

العالى وتابعيه ، منع السلطان مصر فى السابق من امتلاك أسطول بحرى خاص بها ورضخ الولاة الذين تعاقبوا على مصر بذلك لأن طموحاتهم كانت محدودة .

أما محمد على فكان رأيه مخالفًا ، إذ اعتبر أنه لن يكون هناك بلد مستقل بدون أسطول حربى ، كما اعتبر أن نابليون بونابرت استطاع أن يستولى على الإسكندرية دون إطلاق رصاصة واحدة بسبب تفوقه البحرى ، إلا أنه عندما دمّر نيلسون الأسطول الفرنسى أمام شاطئ أبى قير فقد دقّ ناقوس الحزن للحملة ، استفاد محمد على من هذه التجربة المزدوجة ووضع فى ذهنه أن الأسطول البحرى يتيح له فرصة أن يكون شريكًا له وزنه ويتمتع بالمصداقية على الصعيد الدولى وذلك بالحد من تبعيته فى مواجهة الإمبراطورية العثمانية ، ولكن وعلى النقيض من ذلك ، لم يتوقع أن أسطوله البحرى سيؤدى به إلى أن يطلب السلطان مساعدته .

وفى السابق ، كان قد أنشأ على عجل أسطولاً صغيراً وضعه فى البحر الأحمر للحملة على الجزيرة العربية ، لكنه لم يستطع أو لم يرد الحصول على سفن حربية كبيرة رغم العروض الضارة التى عرضتها عليه إنجلترا .

كما أن البحرية فى حاجة إلى ميناء تلجأ إليه عند مهاجمة العدو ، ولدى مصر ميناء الإسكندرية وهو ميناء منذ القدم لم يكن سوى ميناء تجاريًا متواضعًا ، ومن وقت لآخر ترسو فيه سفن الأسطول التركى أو سفن أساطيل أجنبية ، وقد أمر محمد على بإجراء أشغال هامة لتوسعة الميناء .

بدأ محمد على بروية وكتمان فى تكوين أسطول للبحر الأبيض المتوسط : فاشترى المراكب من الخارج ، فى البداية كانت مراكب تجارية وعمل على تسليحها وبعد ذلك اشترى سفنًا حربية ، وفى عام ١٨١٨ م ، أمر ببناء ثلاث سفن حربية مزودة بمدافع « فرقاطه » لكنها لا تصل إلى مستوى فرقاطات الأساطيل الأوروبية ، وكانت أطقمها هى نفس أطقم السفن التجارية ولم تكن سفينة حربية بمعنى الكلمة بل كانت تقوم أيضا بدور تجارى ، كان هذا الأسطول عبارة عن ملكية شخصية لمحمد على ، وفى عملية الخلط الغريبة التى يقوم بها بين ممتلكات الدولة وممتلكاته الشخصية كان ينسب لنفسه ملكية الأسطول التجارى أى أنه كان يجهز لاحتكار زائف للنقل البحرى ، وهكذا كانت سفن محمد على مكرسة لأنواع مختلفة من التجارة ، فمثلاً أثناء الحملة على

الجزيرة العربية ، توجهت إلى جزيرة مالطة محملة بالحبوب التى كان يبيعها للانجليز لمصلحته الشخصية ، ومع ذلك كان يحمله فى العودة بأسلحة للجيش المصرى فى الجزيرة العربية .

وفى عام ١٨٢١ م ، وعندما طلب السلطان من محمد على مساعدته فى قمع العصيان اليونانى ، لاحظ أنه بحاجة إلى سفن حربية لكى يقوم بتلك المهمة وسعد بهذه الذريعة وأجرى تفتيشاً على أسطوله وخلص إلى أن عشرة سفن يمكنها التدخل عند اللزوم ، واشترى فوراً أربع سفن أخرى كانت موجودة بميناء الإسكندرية ، وفى الورشة الجديدة للسفن الحربية كان عمال الأحواض العائمة لبناء السفن يعملون ليلاً ونهاراً لتسليح السفن ، إلا أن وباء الطاعون الذى انتشر تسبب فى تأخير العمل ولكن الباشا قاسى القلب كان يعامل العمال بشراسة ، وبعد فترة وجيزة ، إذا بأسطول مصرى يكون على أهبة الاستعداد لدعم وتقوية الأسطول العثمانى . طلب محمد على مساعدة فنية من فرنسا لبناء وتسليح أسطوله البحرى ولتدريب الأطقم .

وماذا كان يفعل قبطان باشا فى ذلك الوقت وهو أمير البحر العظيم للبحرية العثمانية ؟ فى الواقع كان الأسطول التركى موجوداً على الورق أكثر منه على الواقع ، مراكب كثيرة مسلحة ولكن الأطقم عاجزة عن التشغيل ، وأعدادهم غفيرة ولكن غير مدربين تدريباً كافياً على المعارك ، ومن عادة الضباط أن يصطحبوا معهم أعداداً كبيرة من السكرتيريين والخدم الذين يشغلون أماكن كثيرة وليس لهم أدنى فائدة للعمليات القتالية ، وعلاوة على ذلك ، كانت البحرية العثمانية تضم فى صفوفها أعداداً كبيرة من البحّارة اليونانيين ذوى الخبرة وهؤلاء لن يتواجدوا فى أماكنهم بمجرد التهديد بإعلان الحرب على بلدهم ولابد فى هذه الحالة من تعيين أجانب يحلون مكانهم ولا يوجد تمويل كاف لتغطية تلك العملية . كانت القوات البحرية التركية فى الواقع فى نفس حالة التفكك التى تعيشها الإمبراطورية الضخمة ، والقادة البحريون يتوسلون دائماً لدى السلطان بأن يحصلوا على وظيفة لديه ، وأصبح الأسطول العثمانى غير قادر على تأمين طريق بحرى للمؤونة والإعاشة اللازمة لإستامبول. حيث إنه مهدد من قبل البحرية اليونانية .

ولم تكن البحرية التركية سوى أداة رائعة للهيمنة والتفاخر ولا شأن لها بالحرب ، أما البحرية اليونانية فكانت على خلاف ذلك ، فقد أنشئت من أجل القتال ، وتماماً كما

فعل محمد على فقد حولوا السفن التجارية إلى سفن حربية ، هذا بالإضافة إلى أن اليونانيين لديهم دائمًا تقاليد بحرية متينة ، والأطقم دائمًا متجانسة ومخلصون لقائدهم ويحركهم حقد دفين ضد الأتراك .

مر الأسطول التركى بسلسلة من سوء الحظ لحقت به الفترة من ١٨٢١ إلى ١٨٢٢ م أثناء الاشتباكات الأولى مع الأسطول اليونانى ، فعزل قبطان باشا من منصبه وعين خسرو بدلاً منه والمعروف أنه عدو تاريخى لمحمد على ، وقد أخفق هو الآخر فى صد العصيان اليونانى الذى واصل انتصاراته على الأتراك .

برزت صعوبات جديدة أمام السلطان : فقد استشاط الرأى العام الأوروبى غضبًا مؤيدًا المتمردين اليونانيين ، واعتبروا قادة التمرد ميوليس وكاناريس أبطالاً وأن الانتفاضة حق مشروع ضد الطغاة العثمانيين ، وأحدثت المذبحة التى قامت بها القوات التركية ضد سكان جزيرة شيو اليونانية صدى كبيرًا فى أوروبا . وقررت « المقاومة » اليونانية إنشاء نقطة حصينة فى جزيرة شيو لتحويل أنظار العدو عن المورة ، لكن الأسطول التركى واجههم بوحشية مذهلة وأنزل قوات من المتطوعين الآسيويين أضعفت مقاومة الحامية اليونانية واستبسلوا فى القتال ضد السكان العزل ، وفى يوم ٢٢ إبريل ١٨٢٢ م بدأت عملية إبادة جماعية : فمن بين سكان الجزيرة البالغ عددهم تسعين ألفًا تم إعدام ثلاثة وعشرين ألفًا ، وبيع سبعة وأربعون ألفًا من هؤلاء السكان كعبيد على الساحل التركى حتى الإسكندرية ومدينة الجزائر . عم الغضب العارم العواصم الغربية على هذه القسوة وقام الرسام دبلاكروا برسم لوحة تعبر عن تلك المجزرة .

شعر السلطان بالخوف وأعرب عن خشيته من قيام القوى العظمى بالتدخل وهى مدفوعة بالرأى العام الأوروبى الثائر ، فضغط على محمد على من جديد بسرعة التدخل لإنقاذ الموقف .

التدخل المصرى فى كريت ثم اليونان :

فى غضون ذلك ، استطاع محمد على أن يدعم قواته البحرية وفى عام ١٨٢٣م قام بإرسال أسطولاً وعدة فرق إلى جزيرة كريت ، خضعت الجزيرة بسرعة للقوات

المصـرية ، ومنح السلطان لقب والى لمحـمـد على على جـزيرة كـريت وأثار الموقع الإستـراتيـچى للجـزيرة اهتـمـام مـحـمـد على لأنه يمكن منهـا تشكيل قـاعـدة انطلاق للعمليات التى من المقرر القيام بها ذات يوم على سوريا ، عين إبراهيم واليًا على المورة، برتبة باشا وأخذ يوجه عملياته تجاه اليونان مدعومًا بسليمان باشا الفرنساوى ، نصت الإتفاقيات المبرمة مع الباب العالى على أن يكون إبراهيم تابعًا لقبطان باشا على عكس ما كان مـحـمـد على يأمل فى الحصول عليه إذ كان يريد قـيادة موحدة مصـرية ، فى البـداية ، كانت العمليات التى قـادها إبراهيم خـاطفة ، نزل إلى المورة واسـتـولى على نوارين ثم باتراس وتريبوليتزا مما أكد له السيطـرة علـى المـورة ، وخـلال عامـين ، تمكـن إبراهيـم من القضاء على المقاومة اليونانية ولم يتبق إلا عدة مواقع حصينة مثل هيدرا .

وأمام نجاحه الباهر عاود مـحـمـد على الطلب من السلطان مـحـمـود الثانى منحه كامل السلطان على اليونان وأن يعزل كلا من قبطان باشـا عدوه وخسرو منافسـه من مـسـرح العـمليات ، وفى عـام ١٨٢٧ م تمكن من أن يكون المسئـول الأوحـد وانضـمت القوات التركية والأسطول تحت قيادته ، كما حصل على الجزء اليونانى الذى كان تابعًا للباب العالى .

القوى العظمى تدخل مسرح الأحداث :

أيّد الرأى العـام الأوروبى بقـوة التـمـرد اليـونانى خـاصـة فى فـرنسـا وإنجلتـرا ، وتساءلت الحكومات تحت ضغط الرأى العام عن الطريقة الوحشية التى نفذها الجيشان العثمانى والمصرى فى إبادة الثـوار ، وانضـمت إلى فرنسا وإنجلترا روسـيا والنمسا وبروسـيا وأصرّوا جـمـيعًا على وقـف تلك المجزرة والتدخل لدى مـحـمـد على باعتـباره الرجل الذى بيـده مـفـاتيح حل تلك المسـألة ، وهذا أول اعتـراف للدور الذى بدأ يمارسـه على الصعيد الدولى ولم يشعر فيه بالزهو ، ولم يضع فى اعتباره تلك الدوافع والمبررات عندما حضر لنصرة السلطان .

وهكذا ، ففى نهاية عام ١٨٢٦ م ذكر رئيس الوزراء الفرنسى فى ذلك الوقت دوفيليل لمحمد على أنه يتحتم عليه الانسحاب من المورة وأن يبحث عن مكان آخر بديل لتعويضه عنها ولتكن سوريا ، وتبنى السفير الإنجليزى ستراتفورد كايننج موقفًا شبيها بموقف فرنسا واقترح وساطة إنجليزية من الأتراك واليونانيين وتعيين إبراهيم باشا واليًا على سوريا ، ومن قبل ، كان وزير الخارجية البريطانى چورچ كانينج ابن عم السفير ، قد أرسل دون ويلنجتون إلى سان بترسبورج ، وفى عام ١٨٢٦م وقّع مع وزير الخارجية الروسى نيسلرود بروتوكولاً يعترف فيه بوجود الأمة اليونانية وإعطائها حكم ذاتى داخلى وحق ممارسة التجارة بحرية مع بقائها جزءًا لا يتجزأ من الإمبراطورية العثمانية وهذا يمنحها وضعًا مشابهًا لوضع مصر داخل الإمبراطورية ، وفى أول الأمر، لم يجد كايننج داعيًا لإحاطة الحكومة الفرنسية علمًا بالبروتوكول .

وإزاء الوضع السائد بين الفرنسيين والإنجليز ، اختار محمد على سياسته بكل وضوح : ففى الوقت الذى تعترف به القوى العظمى بأنه الرجل القوى فى المنطقة ، فعليه أن يختار إما أن يستمر فى مساعدة السلطان أو على العكس يقف ضده ويمساعدة القوى العظمى ، ويدرك تمامًا أنه لو اتخذ مبادرة تمس سيادة الإمبراطورية العثمانية ، فإن السلطان محمود الثانى لن يرحمه وسيكون انتقامه لا رجعة فيه .

أما عن قصر السلطان والمحيطون به الذين يلتمسون رضاه ويراقبون القاصى والدانى ، فإن محمد على يعرفهم جيداً ويحصى بينهم العديد من الأعداء الذين يسارعون إلى الحط من قدره لدى السلطان ومنهم المتملقون الحاقدون الذين يتحينون الفرصة لأى خطأ يقع فيه ، ومن الممكن أن يتعرض لمخاطرة عزله لخيانته وأصبحت حياته مهددة بالخطر ، ولدى السلطان محمود الثانى « مراجع » يستعين بهم وبذا لن يتردد فى أن يأمر جنوده بإعدام محمد على إذا حكم عليه بأنه أضر بالمصالح العليا للإمبراطورية أو إذا لم يعد فى حاجة إليه .

وفضلاً عن ذلك ، هناك سبب آخر يجعله لا يفكر فى التعاون مع الدول الأوروبية ، فقد اكتسب مكانة محترمة فى العالم الإسلامى لا ينبغى تجاهلها والارتماء فى أحضان الدول المسيحية ، ولم ينس أن السلطان ذكر فى الفرمان الذى أصدره عام ١٨٢٤ م

أنه يتولى النضال ضد التمرد اليونانى وأنه حرص على تقديمه على أنه المدافع عن الإسلام والذى « سيبيد الكفار » .

مماطلـــة محمـــد علـــى:

فى غضون ذلك ، حصل محمد على على قيادة الحرب على اليونان بمفرده ، واختار ألا يعطى تعقيباً على العروض التى قدمتها الدول الغربية ، وأكد قراره لدى الأميرال الفرنسى دورينى الذى قابله فى مايو ١٨٢٧ م و حاول إغراءه بإحياء المحادثات السابقة ، فهل استغل محمد على اتصالاته مع القوى العظمى لكى يظهر للسلطان أنه بإمكانه الاعتماد عليه فى المسرح الدولى ؟ بل وأسرع بإرسال مبعوث سرى إلى السلطان محمود الثانى لإحاطته علماً باقتراحات فرنسا وإنجلترا ، وحتى هذه اللحظة فإنه يقوم بدوره كحليف مخلص للباب العالى انتظاراً لفرصة مواتية لكى ينتزع من السلطان امتيازات جديدة ، وبدأ يكشف عن أهدافه : فهو يريد الحصول على ولاية سوريا كى يوسع مناطق نفوذه ، وأعرب عن أمله فى الاعتراف بالحكم الوراثى ، وكما استشف من موقف السلطان أثناء الحملة على الجزيرة العربية فإنه اعتقد أن هذه المطالبة ثابتة .

ولكى يظهر محمد على إصراره على الوقوف بجانب السلطان ، قام بإرسال خمسة عشر ألف رجل لتقوية موقف ابنه إبراهيم والقيام بهجوم على هيدرا ، إلا إن محمد على فوجئ بموضوع آخر سبب له الاستياء . فقد بادر السلطان بتعيين خسرو – العدو اللدود والدائم لمحمد على – وزيراً للحربية . شعر محمد على بطعنة وجرح فى قلبه ، لأن السلطان يعرف تماماً مدى الكراهية بين الرجلين وأن محمد على سينظر لهذا التعيين كدليل على عدم الثقة نحوه ، وبادر محمد على بأن يعلن عدم تعاونه مع هذا الشخص والذى أثار حنقه بتعيينه وزيراً للحربية ، وازداد سخطه عندما بدأ يواجه تغيرات مفاجئة فى المواقف والتى ستتكرر فى المستقبل وتصير عادية وأخذ يتساءل عما إذا كان من غير المفيد له التقرب إلى القوى العظمى .

ولذا أخذ يبحث في جذب الرأى العام الفرنسي معه وكلف قنصل فرنسا دروفيتى برسالة بعث بها إلى الحكومة الفرنسية أنه لا يعارض السياسة الفرنسية فى المنطقة ولكن رئيسه الأعلى السفير الفرنسى فى استامبول كان أكثر حذراً .

القـوى العظمـى تستعد للتدخـل:

لم تبادر الحكومة الفرنسية بسرعة الرد ، لأنها كانت تدبر اتفاقًا مع إنجلترا وروسيا بالتدخل بأساطيلها ضد تركيا وهو المشروع الذى كشفته زيارة الأميرال دوريني ، وانتهت المحادثات التى عقدت فى لندن إلى توقيع إتفاقية إنجليزية – فرنسية – روسية فى يوليه ١٨٢٧ م لإيجاد طريقة القيام بعمل حربى بحرى للقوى العظمى الثلاث فى اليونان .

طلب الأميرال دوريني من مصر أن ترجئ رحيل أسطولها إلى هيدرا ، وكذلك نظيره الأميرال كودر ينجتون حيث طلبا وساطة القنصل الإنجليزى بالقاهرة سولت ، ولم يقدم أى منهم وعوداً محددة بتقديم تعويضات حدودية مقابل تلك النصائح لمحمد على رغم علمهم أنه لا يوافق على أى شئ دون الحصول على مزايا مقابل موافقته ، ومع ذلك ، فقد شعر بقلق بالغ لأنه لا يعرف أن الدول العظمى الثلاث تعد للتدخل البحرى وبأن استامبول ترفض تعليق أعمالها الحربية ضد اليونان ، ومن جانبه حث رئيس الوزراء التركى محمد على على سرعة التدخل ، وفى أغسطس ١٨٢٧ م أمر محمد على الأميرال محرم بك بالاستعداد للرحيل .

وعند هذا الحد ، لم يتضح موقف القوى العظمى ، فقد بدأت سياسة التردد التى اتبعتها بالنسبة لمسألة الشرق لعدة سنين، وكل دولة تراقب الأخرى وتارة يتم التحالف بينهم وبعد فترة يحدث التعارض ، ولذا كان من الصعب متابعة موقفهم ، والنقطة الوحيدة التى كانت سائدة بينهم هى رغبتهم فى اقتسام بقايا وأسلاب الإمبراطورية العثمانية ، وظهر تناقضهم أيضًا عندما أعربت كل من بريطانيا وفرنسا بعد توقيع اتفاقية لندن فى أغسطس ١٨٢٧ م مع روسيا عن رغبتهما فى ألا يكون لروسيا موضع

لقدم فى شرقى البحر المتوسط وألا يكون لها دور هام فى تلك المنطقة ، وفضلاً عن ذلك ففى الوقت الذى كان موضوع الاتفاقية مساندة التمرد ، فإن اليونانيين فضلوا البقاء تحت هيمنة السلطان التركى أفضل من أن يجدوا أنفسهم تحت نفوذ قيصر أرثوذكسى ، أما عن الفرنسيين فكان موقفهم غامضًا ، إذ كانوا قد أرسلوا بعثة عسكرية إلى مصر لمساعدة الجيش والبحرية المصرية ، وفى نفس الوقت كانوا متحمسين لفكرة الاستقلال للشعوب المضطهدة وكان عدد كبير من المتطوعين الفرنسيين يحاربون فى صفوف المتمردين اليونانيين .

من ناحية أخرى ، ظهرت قوة أوروبية أخرى تهتم بمسألة الشرق وهى النمسا إذ كان المستشار ميترنخ معاديًا لحركات التحرر اليونانية لأنه كان يخشى أن يمتد التمرد إلى الممتلكات المجاورة للإمبراطورية النمساوية حيث تقع فى إغراء الحكم الذاتى وتثور ضد السلطة المركزية . وهكذا ، وفى نوفمبر ١٨٢٦ م ، وصل الكونت دى بروكس فى مهمة إلى مصر وعقد اجتماعًا مع محمد على وأجرى محادثات مطوّلة مع باغوص وزير الخارجية . كانت مهمته تنحصر فى تحذير مصر من الوقوع فى دسائس ومؤامرات إنجلترا ووعودها الخادعة .

وفى الواقع ، كان مستشار النمسا مكيافيلى النزعة ، وسعى إلى منع مصر من المطالبة باستقلالها ، ميترنيخ فى مصر كما فى اليونان ، كان مشغولا بالمحافظة على وحدة أراضى الإمبراطورية العثمانية لأنه كان يخشى من حدوث رد فعل مما ثل على إمبراطورية النمسا ، وفى مارس ١٨٢٧ م ، كتب الأمير ليفن سفير روسيا فى النمسا إلى ميترنيخ يدعوه إلى الانضمام للقوى العظمى الأخرى ، وأبرز فكرة أن الانتصار المصرى فى اليونان سيؤدى إلى إيجاد سلطة إفريقية جديدة ، إلا أن المستشار تمرد على هذا الرأى .

موقعة نوارين (٢٠ أكتوبر ١٨٢٧ م) :

فى الوقت الذى كان الدبلوماسيون يتبادلون المذكرات ، كانت الاستعدادات البحرية المصرية قد بدأت حسب الخطة المتفق عليها ، أعيد تسليح الأسطول المصرى

فى الاسكندرية وتم تقويته بتسع وثمانين باخرة ، وتحرك من ميناء الاسكندرية فى ٦ أغسطس ليلحق بالأسطول التركى فى نوارين ليصل إجمالى عدد البواخر إلى ١٢٩ باخرة حربية ، وسعت الحكومة البريطانية من جانب واحد إلى بذل أقصى الجهود لحوار السلام ، وأرسلت الميجور كرادوك فى مهمة الغرض منها اقناع محمد على بالعدول عن اشتراك أسطوله فى المعركة البحرية التى يستعد لها ، ووصل يوم ٨ أغسطس ولفت الانتباه إلى تصميم القوى العظمى على خوض المعركة وإلى المخاطر التى يتعرض لها بهزيمته والنتائج المترتبة على ذلك ، إلا أن هذا التدخل جاء متأخراً ، ففى الوقت الذى كان فيه الأسطول التركى – المصرى فى الطريق وأن محمد على لا يستطيع إصدار الأوامر لأسطوله بالبقاء بعيداً عن الصراع دون أن يكشف أمره ، كما أن محمد على فى نظر العالم مجرد تابع للسلطان وحصل على القيادة العليا للعمليات لابنه إبراهيم ، لذا لم يبد أى إهتمام لهذا التحذير ، وأخذته نشوة الانتصارات العسكرية السابقة مما جعله يستبعد أى تصورلاحتمالات هزيمة أسطوله ، ولم يدرك أن الأسطول التركى – المصرى كان مزّوداً بمراكب متباينة وجُهّزت بتسليح غير كاف وبأطقم مرفهة وضباط مرتزقة تحت قيادة أمراء بحر عديمى الخبرة القتالية ، وهو فى هذه الحالة لن يواجه فقط البحرية اليونانية والتى هى أقل تجهيزا منه وإنما الاسطول الفرنسى – الإنجليزى المسلح تسليحاً كافياً والمدرب ويقوده قادة مشهود لهم أمثال الأميرال دورينى والأميرال كودر ينجتون .

رسا هذا الأسطول فى زانت يوم ٢٠ سبتمبر ١٨٢٧ م ، وقابل دورينى إبراهيم فى نوارين وحذره من أن الحلفاء عقدوا العزم على منع الأسطول المصرى من التحرك إلا بالاتجاه إلى الاسكندرية ، وفى ١٣ أكتوبر انضمّ إليهم الأميرال الروسى دون هيدن فى زانت بأسطوله ، أحيط محمد على بأن التهديدات من جانب القوى العظمى سوف تنفذ ، وحث السلطان على الدخول بسرعة فى مفاوضات مع اليونانيين ، وبدأ محمد على يدرك خطورة الموقف الذى وضع فيه أسطوله وكتب إلى إبراهيم بألا يبدأ بإطلاق النار على سفن الحلفاء ، وألا ينفذ تعليمات استامبول إلا عند الضرورة ، ولكن الباب العالى – كسول كعادته – لم يحرك ساكناً ، بالسيطرة على الموقف الخطير والمتردى بل

تخيل أن أسطوله المدعم بالأسطول المصرى سوف يرهب أسطول الحلفاء بل واعتبر أن القوى العظمى لن تجرؤ على الذهاب بعيداً بسبب النتائج السياسية التى ستلحق بهم نتيجة هجومهم العنيف على الإمبراطورية العثمانية .

فى يوم ٢٠ أكتوبر ١٨٢٧ م ، توغلت الأساطيل الأوروبية فى خليج نوارين حيث يرسو الأسطول التركى – المصرى ، وأرسل إبراهيم ومحرم بك قائد الأسطول التركى – المصرى رسالة إلى كودر ينجتون بصفته قائد أساطيل الحلفاء طالبا منه عدم التوغل فى الخليج ، ورد القائد الإنجليزى بصلف وغطرسة بريطانية قائلاً إنه أتى لكى يعطى أوامر وليس لتلقى الأوامر ، ووقع حادث ألهب الموقف وزاده اشتعالاً ، فقد انطلقت رصاصة طائشة على ما يبدو من أحد المراكب المصرية وقتلت ربانا من أساطيل الحلفاء ، وأعقب ذلك تراشق بالرصاص من البنادق ثم ما لبث أن تحول إلى قصف مدفعى عنيف ، وفتحت الأساطيل الأوروبية النار بشدة على الأسطول التركى – المصرى غير المسلح تسليحًا كافيًا ، ونجم عن ذلك قتل ثمانية آلاف جندى وبحار ، ووضعت السفن التركية –المصرية فى كمين وحوصرت فى كماشة بحيث لا يمكنها الفرار ودارت معركة رهيبة بسرعة مذهلة .

وحاول أمراء البحر من الجانبين تهدئة الموقف ، ولكن لجوء أساطيل الحلفاء إلى استخدام القوة فى خليج نوارين جعل الأتراك والمصريين يشعرون بالتحدى لأنهم لم يكونوا يتصورون أن سفنهم يمكن أن تصاب بالعطب ، ومن المحتمل جدا أنهم أول من أطلق النيران ، وصاح أمير البحر دورينى متعجباً وقال « هذا ما يحدث عند المغامرة باللعب بمدافع عيار ٢٤ بوصة » ، وكتب الأميرال دوران – فييل بعد مائة عام قائلاً : لقد كان نوع من الجنون أن نتصور أن رجالاً يملؤهم الفخر والاعتزاز بأصلهم ودينهم يقفون موقف المتفرج وهم يرون أسطولاً أجنبيًا يتأهب ليفرض عليهم قهراً مهينًا فى الوقت الذى « يعتقدون أنهم يمتلكون » فى أيديهم شعلة مضيئة وهى الوسائل التى تقف ضد هذا العنف » .

رد الفعل أمام كارثة نوارين:

ما هى ردود الفعل لدى الذين تدخلوا عقب كارثة موقعة نوارين البحرية ؟

فى فرنسا ، أعرب الرأى العام عن ابتهاجه وفرحته بهزيمة العثمانيين لأنه بعث الأمل فى نفوس الثوار اليونانيين ولأن انتشار الأفكار الثورية جعلتهم يتعاطفون مع الشعب ومع المثقفين ، إلا أن الحكومة ظلت متحفظة : فمحمد على صديق لفرنسا وهزيمته بهذا الحجم الهائل من الممكن أن تقف حائلاً أمام طموحاته بل قد تؤدى إلى أن يعزله السلطان . وفى إنجلترا ، كانت ردود فعل الحكومة فى غاية القسوة والعنف : حيث استدعى الأميرال كودر ينجثون ووجه إليه لوم شديد على استخدامه للعنف بدون داع ، لأنه أرسل إلى اليونان لمجرد استعراض القوة ولمساندة التحذير الذى وجهته الحكومة البريطانية لدى الباب العالى ومحمد على وليس بأى حال من الأحوال تدمير أسطول دولة حليفة كما كانت دائماً وهى الإمبراطورية العثمانية والتى لم تعلن إنجلترا الحرب عليها ، أما فى استامبول فقد ساد السخط والغضب العارم ووصفوا هجوم الأسطول الفرنسى - البريطانى بالغدر والخيانة ، أما القوى ذات الحكم المطلق ، مثل روسيا والنمسا فقد أصيبت بالوجوم والذعر لشعورهم بأن التمرد اليونانى من الممكن أن يخرج منتصراً من كارثة كهذه .

وقد امتد الصراع اليونانى - التركى إلى ما هو أبعد من المشكلة التى أثارها اليونان وظل هذا الصراع قائمًا لعدة عقود من الزمان .. فمن ناحية نجد التدخل الفرنسى والإنجليزى فى الشئون الداخلية للإمبراطورية العثمانية بينما هى كانت بمثابة مصيدة لجيران هذه الإمبراطورية وهما روسيا والنمسا ، وكان نابليون قد سلط الضوء على الأهمية التى تقع على الطريق المؤدى للهند ، ومن ناحية أخرى ، فبالنسبة لمصر نفسها فإن إنجلترا وفرنسا بتدخلهما السافر فى الصراع الذى نشب بين الأتراك واليونانيين ، إنما أرادوا فقط الدفاع عن اليونان والوقوف ضد المغتصب التركى ، ولم يخطر ببالهم إيجاد حل لمشكلة الشرق المترامية الأطراف ، كما لم يفكروا فى الدفاع عن مطالب محمد على الإقليمية الخاصة بتكوين إمبراطورية على حساب السلطان .

وكان رد فعل محمد على على كارثة موقعة نوارين مختلفًا عما كان متصورًا ، فكان دائمًا يشعر بعدم الثقة تجاه الإنجليز وبأنه خدع من موقف الفرنسيين الذين لم يترددوا فى إطلاق النار على أصدقائهم المصريين وعلى سفنهم التى ساهموا فيها بمساعدتهم الفنية وبنائها وتسليحها ، وكان عدد كبير من المعلمين والمدربين الفرنسيين متواجدين على ظهر الفرقاطة المصرية ، أخذ محمد على يواسى نفسه من جراء هذا الفشل وذلك بتوجيه ضربة قاسمة للسلطان ، واشتدت المقاومة اليونانية وأصبحت موجهة ضد السلطان محمود الثانى وليس ضد محمد على الذى لم يكن يحمل أى عداوة تجاه اليونانيين ، وصار مقتنعًا بأن السلطان أصبح فى حاجة متزايدة إليه ، وعلى أى الأحوال فهو لا يشك فى أن الباب العالى سيتخذ من هذه الهزيمة ذريعة لاقصاء محمد على .

ولكن ما يزعج محمد على كثيرًا هو فقده لأسطوله وتحطيمه أمام الأساطيل الأوروبية مما جعله يشعر بالمهانة لعدم كفاية التسليح وقلة تدريب الأطقم .

الجلاء عن المورة:

قام كودر ينجتون بعد انتهاء معركة نوارين البحرية بتوقيع إتفاقية بصورة مباشرة مع محمد على دون تدخل السلطان بتنظيم الجلاء عن المورة ، واحتفظت مصر بحاميات فى أربع مدن من بينها باتراس ونوارين ، ولضمان الانسحاب الفعلى لأعداد ضخمة من القوات المصرية قررت فرنسا وإنجلترا إرسال فيلق إلى المورة قوامه ١٥ ألف رجل . وصل الفيلق إلى اليونان واستقبل إبراهيم الجنرال ميزون قائد الفيلق فى خليج مودون وذلك فى جو ودى لأن المصريين لا يحملون أى ضغينة للفرنسيين من جراء معركة نوارين .

النتائج بالنسبة لمحمد على:

خرج محمد على مكتئبًا من مسألة اليونان ، لأنه إذا كان قد حصل على جزيرة كريت فلم يحصل على سوريا التى كانت هدفه الحقيقى والتعويض الذى طلب من

السلطان مقابل تدخله ، هذا بالإضافة إلى تدمير أسطوله ، أما المكسب الوحيد الذى خرج به فهو أن يرى نفسه وقد عامله الأوروبيون والقوى العظمى على أنه رئيس دولة لا يتبع لأحد .

غير أنه كان يشعر بأنه لم يحسن الاختيار عندما لم يلبى مطالب القوى العظمى حينما حاولت ثَنْيه عن التدخل البحرى فى اليونان ، لكنه لم يكن يجرؤ على المغامرة بسياسة تخالف مطالب السلطان والإسلام دون الحصول على المساندة الرسمية من القوى العظمى ، لقد كان متردداً حتى فى وضع شروطه للاشتراك فى تلك الحملة ، بل كان متردداً فى الاختيار .. وفى النهاية أساء الاختيار ، لقد خدع بالحملة على اليونان ، ولذلك كان يتطلع إلى الهدوء والبعد عن المشاكل ، وعندما نشبت الحرب بين روسيا وتركيا عام ١٨٢٨ م رفض التدخل بحجة إعادة إصلاح الجيش بعد الذى حصل فى اليونان ، فكان عليه إعادة تشكيل جيشه وبناء أسطوله والنهوض بالسياسة الخاصة بالإصلاح داخل بلده ، وفى الواقع ، فقد بدأ محمد على استعداداته العسكرية بتوسيع ترسانة الإسكندرية واستدعاء خبراء أجانب لبناء أسطولاً جديداً وإعادة تنظيم جيشه ، وفكر فى إعطاء نفسه مهلة يلتقط فيها أنفاسه ويوقف التوسع الجغرافى القائم على نجاحه العسكرى ، وفى عام ١٨٢٨ م بدأ يكرس جهوده نحو الإصلاح الاقتصادى والاجتماعى لمصر ، وتشبّها بنابليون الأول ، فلم تمنعه غزواته من إدخال إصلاحات جذرية .

وفى هذا الصدد ، وقبل التحدث عن التنظيم الجديد الذى أراد محمد على إدخاله فى مصر ، نجد من الضرورى أن نلقى الضوء على تأثير النفوذ الفرنسى على مصر وعلى محمد على .

الفصل السادس

التأثير الفرنسى فى مصر

بدأ التأثير الفرنسى فى مصر منذ مجىء حملة بونابرت ثم ازداد أثناء عهد محمد على وما بعده طوال القرن التاسع عشر ، وإذا كانت فرنسا معجبة بمصر فى القرن التاسع عشر ، فإن مصر بالمقابل لم تهتم لا بفرنسا ولا بأوروبا بصفة عامة ، فالمصريون يعيشون فى الشرق وأفقهم محدود وقاصر عليه ولا يشعرون أنهم مهتمون بالأحداث أو بالبشر الذين يعيشون فى الجانب الآخر من البحر الأبيض المتوسط . وقد أحدث وصول الفرنسيين إلى مصر هزة عنيفة أيقظت المصريين من غفوتهم وأخرجتهم من هدوئهم الذى دفنوا أنفسهم فيه ليكتشفوا وجود قيم أخرى وتذكرهم بأن لهم شأنًا كبيرًا فى الماضى وأنهم كانوا فى طليعة الأمم ذات الحضارة ، وقد عبر جومار (Jomard) العالم الجغرافى الشهير الذى حضر مع الحملة الفرنسية والذى ألف كتاب « وصف مصر » عن هذه الفكرة قائلاً : « جاءت فرنسا لتحرر مصر من عبودية المماليك لكنها عملت أيضًا على تخليصهم من آفة أخرى وهى الجهل ونشرت نور العلم والحضارة التى تلقتها من الشرق فى السابق » .

وأكد ميشليه (Michelet) الفكرة قائلاً « لم تكن الحملة غزوًا عاديًا قائمًا على الطمع أو الجشع ولكن كان يحدوها الأمل الرائع والسامى نحو بعث حياة جديدة » .

وماهى إذن رسالة هذا الأمل « السامى » ؟ چنرال لم يتجاوز عمره الثلاثين عامًا وحقق أمجادًا فى إيطاليا وحمل معه عبير الأفكار الثورية ، إنه الشخصية غير العادية، نابليون بونابرت والذى أحدث دويًا هائلاً سواء فى مصر أو فى الغرب والأثر الذى أحدثه بدأ يتضخم ويزداد فى السنوات التى جاءت بعد ذلك عندما أصبح إمبراطورًا

للفرنسيين ، ورغم أن الحملة فى مجملها انتهت بفشل عسكرى ، إلا أن الفرنسيين استفادوا منها فائدة كبرى على الصعيد الثقافى والاقتصادى ، وعرفوا قيمة المعطيات الخاصة بتراث مصر الذى جمعوه ، وكانت النتائج التى حصل عليها الفرنسيون على المدى الطويل نتيجة تواجدهم فى مصر طيبة وملموسة ، كان نابليون قد أحضر معه عدداً كبيراً من العلماء تجاوز المائة عالم ارتبطوا ارتباطاً وثيقاً بمصر وهاموا بها حباً بل بقى أكثرهم بها بعد مغادرة الجيش الفرنسى مصر لمتابعة المؤلَّف الذى بدأوه وهو « وصف مصر » جمعوا فيه المعرفة التى اكتسبوها والتى كانت أساساً لكل الدراسات العلمية والفنية .

واستقر بمصر عدد كبير من السائحين الفرنسيين أغلبهم من غير المتزوجين وعقد محمد على اجتماعاً معهم ، واستمع باهتمام إلى آرائهم وملاحظاتهم حول مشاكل بلده ووضع تلك الملاحظات فى اعتباره ، حتى أن عدداً كبيراً من الزوار الفرنسيين تركوا بصماتهم الواضحة فى مصر ، وشامبليون (Champollion) خير مثال على ذلك . ظهر التأثير الفرنسى على مصر فى عدة مجالات مختلفة بعيداً عن الجوانب السياسية والدبلوماسية : التدريب العسكرى ، التعليم ، الصحة ، علم المصريات والبحث عن الآثار الفرعونية ، التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، الأشغال العامة ، إلخ . . .

وقد قام الدبلوماسيون ، المقيمون فى مصر والإسكندرية أمثال دروفيتى (Drovetti) بدور بارز لدى محمد على ، وزار مصر أعداد ضخمة من الإنجليز فى ذلك العصر ، إلا أن الإنجليز ملتزمون دائماً بتقليد يطبقونه فى مستعمراتهم وهو عدم اندماجهم فى الإدارة المصرية بينما نجد عدداً كبيراً من الفرنسيين قد شغل مناصب هامة بأمر من محمد على ، ومن بين الأعمال الضخمة التى كان يديرها الفرنسيون : المشاريع الكبرى للأشغال العامة والرى والصناعة ، وبعد رحيل الجيش الفرنسى لحملة نابليون ، بقى حوالى ثمانمائة فرنسى فى مصر من خيرة رجال الثقافة والعلماء وامتزجوا بالوسط الاجتماعى المصرى وتحول عدد منهم إلى الدين الإسلامى وتزوجوا من مصريات على غرار الجنرال مينو(Menou) الذى جاء بعد كليبر (Kleber) ، وبدأت اللغة الفرنسية فى الانتشار وأصبحت لغة الإدارة والصفوة طوال القرن التاسع عشر ، ولكن بعد الحرب العالمية الأولى ، حلت محلها اللغة الإنجليزية باستثناء المجال الثقافى .

الشئـــون العسكرية :

بدأ اشتراك الفرنسيين فى إصلاح الجيش فى الإمبراطورية العثمانية منذ عام ١٧٢٩م عندما وصل الارستقراطى الفرنسى الكونت بونيفال (Le Comte de Bonneval) إلى استامبول حيث كلفه السلطان بإجراء تجديدات وتحديث المدفعية التركية وتحول إلى الإسلام ومنح لقب باشا وعين قائداً لفيلق المدفعية .

ومنذ مجيء محمد على ، كان الكولونيل سيف (Sève) أحد الرجال البارزين الذين تولوا عملية إصلاح وتدريب الجيش المصرى وأصبح اسمه سليمان باشا وخرج مع إبراهيم باشا فى حملاته وكان بالنسبة للجيش قائداً للأركان العامة ، هذا بالإضافة إلى أعداد كبيرة من الفرنسيين ساهموا فى تحديث الجيش وجعله عصرياً ، فقد وصلت بعثة عسكرية إلى مصر بقيادة الجنرال بوير (Boyer) يساعده الجنرال ليفران (Livran) عام ١٨٢٤ م وقامت بإعادة تنظيم الجيش المصرى على غرار الجيش الفرنسى وتم تشكيل المدفعية المصرية على أساس بطاريات لتكون صورة من بطاريات نابليون الشهيرة .

أما سلاح الفرسان فقد تم تشكيله أساساً من البدو الذين يتميزون بالشجاعة لكنهم غير منظمين فتكونت وحدات من حاملى الدروع ووحدات أخرى من الخيالة الخفيفة ، والتحق بالبحرية معلمون ضباط فرنسيون قاموا بتدريب رجال البحرية على وظائف القيادة على ظهر السفن والأسطول ، كما أنشأت البعثة العسكرية فى نفس الوقت مدارس لتخريج ضباط للجيش والبحرية .

أما بالنسبة للجنرال ليفران فهو تاجر قديم استقر بمصر أثناء الاحتلال الفرنسى ، وبعد أن عاد لفرنسا رجع مرة أخرى لمصر بعد عدة سنوات من البعثة العسكرية ومنح رتبة جنرال وكان يتولى عمليات شراء السلاح من فرنسا وكلفه محمد على بالإشراف على بناء سفن حربية فى أوروبا للبحرية المصرية ، عندما دمرت تلك السفن فى موقعة نوارين (Navarin) عام ١٨٢٧م وجد محمد على نفسه مضطراً لإعادة بناء الأسطول .

ورغم أن الأسطول الفرنسى تحمل جزئيًا مسئولية تدمير الأسطول المصرى فى نوارين ، إلا أن محمد على كلف أحد المهندسين البحريين الفرنسيين ببناء ترسانة بحرية بالإسكندرية .

قام هذا المهندس ويدعى سيريزى (Cerisy) ببناء ترسانة حديثة وتم بناء أول سفينة حربية فى أقل من عامين وصاحب ذلك توسيع ميناء الإسكندرية بطريقة تجعله قادراً على استيعاب سفن وبواخر من جميع الأحجام .

المجـــال الثقافـــى :

بعثة رفاعى الطهطاوى إلى باريس :

اهتم محمد على بتدريب نخبة من المصريين ليس فقط فى المجال العسكرى وإنما أيضًا من المدنيين لأنه رأى أن التعليم التقليدى فى الأزهر لا يهتم إلا بالإسلام ، فقام بإرسال بعثات إلى أوروبا لدراسة السياسات التعليمية ، اتجه أولا إلى إيطاليا نظراً لوجود عدد كبير من الإيطاليين فى مصر ثم بناء على نصائح دروفيتى القنصل الفرنسى ، تحول إلى فرنسا لأنها أكثر انفتاحا للمسلمين .

اختار محمد على رفاعة الطهطاوى لبعثة إلى فرنسا وهو أحد تلاميذ الشيخ حسن العطار أستاذ اللغة العربية لعلماء الحملة الفرنسية والذى أعجب بمدى الأسهام العلمى والذهنى للحملة فى العالم الإسلامى ، وكان تلميذه رفاعة على نفس المنوال ، أقام رفاعة فى باريس خمس سنوات من ١٨٢٦ إلى ١٨٣١ م ، وبمبادرة من جومار (Jomard) (مؤلف كتاب وصف مصر) ، والذى استفاد منه كمعلم مخلص ، جعله يقابل العديد من الشخصيات فى مجال الأدب والفن والعلوم الاجتماعية وخاصة المستشرقين أمثال سيلفستر دو ساسى (Silvester de Sacy) ، أعد تقريراً لمحمد على عن الإصلاحات الواجب اتخاذها فى التعليم الجامعى والثانوى حيث اتخذه محمد على مرجعًا لا يحيد عنه ، وفى بحثه الذى أعده عن الاقتصاد والتاريخ ، طالب رفاعة بتحديث التعليم فى الأزهر وجعله عصريًا والانفتاح على المواد التعليمية الحديثة وعدم الاكتفاء بعلوم القرآن والدين ، وسار فى الشوط حتى نهايته فى الاقتراح الذى قدمه

حين طالب بالفكرة الثورية التى تنادى بفصل الدين عن الدولة واستمر فى أفكاره الثورية ونادى بتحرير المرأة المسلمة واقترابها رويداً رويداً من نمط حياة المرأة الأوروبية ، ولا داعى للقول إن تلك الأفكار القادمة من فرنسا أثارت اشمئزاز المحافظين المصريين واتخذ محمد على جانب الحذر وتجنب الأخذ بها .

وطوال فترة إقامته الطويلة فى باريس ، اهتم رفاعة الطهطاوى بالآثار المصرية ونظم القسم المصرى فى متحف اللوفر بناء على طلب أمين المتحف ، واستنكر بشدة عمليات النهب التى تقوم بها المتاحف الأوروبية الكبرى للآثار المصرية وذلك بدعوى انقاذها من النزعة الهمجية لتخريبها على أيدى التجار ، كما احتج رفاعة لدى محمد على عام ١٨٣٥ م عندما قدم إحدى المسلات الضخمة التى كانت موجودة بالأقصر إلى لويس فيليب (Louis - Philippe) ، وزاد الاحتجاج عنفاً وحدة عندما علم أن ملك الفرنسيين قدم لمحمد على هدية مقابل المسلة عبارة عن ساعة حائط عادية غير ثمينة وضعت فى مسجد محمد على بالقلعة .

لخص رفاعة انطباعاته عن حماية الآثار المصرية وأرسلها فى مذكرة إلى محمد على ، وعندما عاد إلى مصر أنشأ مدارس مختلفة للتعليم ومدارس للمعلمين ومدارس للترجمة ، كما أنشأ مطبعتين إحداهما للجيش والأخرى للمؤلفات المدنية ، قام رفاعة بطبع كتب تحوى انطباعاته وتأملاته أثناء إقامته بالبعثة واتصالاته مع العديد من الفرنسيين سواء فى القاهرة أو فى فرنسا .

التعليـــــم :

كان من نتائج بعثة رفاعة الطهطاوى إلى فرنسا ، أن شجعت الحكومة إنشاء تعليم ثانوى قوى فى مصر وطبقت الطرق الفرنسية فى التعليم واتّجه نحو الثقافة الفرنسية ، واشتركت الإرساليّات الدينية الفرنسية بصورة فعالة فى التعليم : فوصلت أخوات سان فانسان دى بول (Saint Vincent de Paul) إلى القاهرة عام ١٨٤٤ م وتلاها مدارس الفرير والجيزويت (Jesuites) التى افتتحت مدارس على نفس مستوى المدارس الفرنسية (كوليج) (College) والتحق بها الأغلبية الساحقة من صفوة المصريين واستمر هذا الوضع قائماً حتى الحرب العالمية الثانية من ١٩٣٩ - ١٩٤٥م،

وقام أحد تلاميذ رفاعة الطهطاوى وهو على مبارك الذى صار فيما بعد وزيراً للمعارف العمومية ، بإنشاء التعليم فى مصر حسب النظام المتبع فى فرنسا : إبتدائى وثانوى وعالى ، ثم أنشأ مدرسة المعلمين العليا التى صارت منافسة للأزهر ، كما أنشأ دار الكتب على نفس نمط المكتبة الوطنية فى باريس ، أما عن المعهد المصرى الذى أسسه نابليون بونابرت فقد تابع أبحاثه .

وإذا كان محمد على مبهوراً بالثقافة الغربية وبالذات الثقافة الفرنسية ، فإنه لم يتجاهل ثقافة بلده بالتبنى ، فعلى النقيض من الأتراك الذين كانوا يظهرون نوعًا من الاحتقار لمواطنيهم ، فإنه أعتبر نفسه مصريًا وكان يكن إعجابًا شديداً بأمجاد الفراعنة ، واهتم بتدريس تاريخ مصر الذى يدعو للفخر .

مولد علم المصريات (دراسة الآثار المصرية) (Egyptology) :

فى الوقت الذى كانت تنتشر فى فرنسا فى نهاية القرن الثامن عشر علم المصريات أى الدراسة العلمية لمصر القديمة ، تطورت بعد ذلك تطوراً كبيراً من عدد كبير من الفرنسيين وعلى رأسهم شامبليون الذى فك رموز اللغة الهيروغليفية فأتاح للمصريين معرفة تاريخهم القديم ، وكذلك أوجست مرييت (Auguste Marlette) الذى أسس متحف الآثار المصرى بالقاهرة عام ١٨٣٥ م وصار مديراً له ، ورغم دسائس الإنجليز ، فتدخل محله شخص آخر ولكنه أيضًا فرنسى وهو جاستون ماسبيرو (Gaston Maspero) وأصبحت مصر إحدى الدول التى يدرس بها علم الآثار لما تحويه من كنوز أثرية .

المجال الاقتصادى والاجتماعى :

على الصعيد الزراعى يعود الفضل فى إدخال القطن طويل التيلة إلى الفرنسى جوميل (Jumel) حيث نجحت زراعته نجاحًا كبيراً ، كما أن مشاريع الرى أقامها مهندسون فرنسيون .

الأشغال العامة ولينانت دى بلفوند :

كان نابليون قد استقدم معه وحدة عسكرية من ٢٦ مهندسًا من مصلحة الطرق والكبارى فى وزارة الأشغال الفرنسية بقى أغلبهم فى مصر بعد رحيل الجيش الفرنسى ، وبدأ عدد منهم فى دراسة مستوى سطح الأرض بين البحرين الأبيض والأحمر تمهيدًا لشق قناة السويس ، يعتبر لينانت دى بلفوند (Linant de Bellefonds) من أكفأ المهندسين وأشهرهم وأصبح بعد ذلك لينانت بك (١٨٠٠ - ١٨٨٣ م) ، وصل إلى مصر عام ١٨١٨ م وعمره ١٨ عامًا والتحق بخدمة محمد على لإعداد خريطة طوبوغرافية لدلتا النيل ثم رقى كبير مهندسين وأشرف على إنشاء الطرق والترع والسدود واهتم كذلك بدراسة تخطيط لقناة السويس ، كان محمد على يثق به ويستشيره فى جميع المشاريع الكبرى الخاصة بالبنية التحتية ومنحه لقب بك عام ١٨٤٥ م ، وبعد وفاة محمد على ، وقع فى خطأ هندسى فادح إذ اعتقد - نتيجة حسابات خاطئة أن مستوى سطح البحر الأحمر أعلى من البحر الأبيض المتوسط ، وعينه سعيد باشا مديرًا عامًا للأشغال العامة ، وأنهى حياته الوظيفية فى فريق ديلسبس (de Lesseps) لإنشاء قناة السويس .

التجار الفرنسيون :

كان عدد من التجار الفرنسيين قد استقروا فى القاهرة قبل مجىء نابليون بونابرت الذى ضمهم إليه وعملوا كتجار حيث كان فى حوزتهم جزءًا كبيرًا من التجارة العالمية الخاصة بمصر ، وفى القرن الثامن عشر عرض رئيسهم ويدعى ماجيلون على تاليران المزايا الاقتصادية التى تعود على فرنسا فى حالة غزو مصر لأنه توقع وجود سوق مصرية ضخمة .

وقد أيد هذا الرأى باغوص (Boghos) وزير الخارجية المصرى .

الصحـــــــة :

وفى مجال الصحة ، لعب الدكتور كلوت (Clot) الذى أصبح فيما بعد كلوت بك دوراً حاسماً فى عهد محمد على الذى دَعاه للمجىء للقاهرة لإعادة تنظيم أو بمعنى أصح تنظيم الخدمات الصحية التى كانت فى حالة متردية ، ظل كلوت فى مصر حتى وفاة محمد على وأسس مجلس الصحة ومدرسة الطب ومستشفى مدنى فى ضاحية القاهرة وقام بتطوير عدة مستشفيات مدنية وعسكرية ومحاجر صحية لمكافحة وباء الطاعون وأنشأ مخزناً مركزياً للأدوية لتزويد المستشفيات بالعلاج اللازم .

شعر محمد على دائماً بالامتنان تجاه الفرنسيين لما قدمه مستشاروه من خدمات ، وكان راضياً عنهم لأنهم كلما قاموا بتطوير بلده ، كلما زادت ثروته الشخصية حيث إن كلا الهدفين مرتبطان ببعضهما كما هو معروف .

والسؤال الآن .. كيف كان يتم مكافأة هؤلاء المستشارين ؟

ذكر كلوت بك فى مذكراته أن الباشا لم يفكر فى مكافأة الموظفين الأجانب الذين كانوا يساعدونه بإغداق الأموال عليهم حتى لا يتركوا مصر ويغادروها بأموالهم إلى أوروبا ، ولذا كان يمنحهم أراض للحيازة ، وبالنسبة لكلوت بك ، فقد قرر بالإضافة إلى ما كان بحوزته من أراض ، العمل على إنشاء محلات ترانزيت فى القاهرة حيث وهب حق استغلالها لهذا الطبيب العظيم طوال حياته .

ســـان سيمـون (LES SAINT - SIMONIENS) :

أصـل فكـرة الســان سيمـون :

احتلت عائلة السان سيمون مكانة جزئية بين الفرنسيين الذين مارسوا نفوذاً فى مصر فى عهد محمد على ، فمن أين جاءوا ؟ ومن استقدمهم إلى مصر ؟

مؤسس فكرة السان سيمون هو كلود هنرى (Claude Henri) من روفرى ، ولد الكونت سان سيمون سيمون عام ١٧٦٠ م وتوفى عام ١٨٢٥م ، وبعد أن اشترك فى

حرب الاستقلال الأمريكية ، عاد إلى فرنسا فى بداية الثورة الفرنسية ، وتخلى عن لقبه كنبيل ومن هذا المنطلق ، لم يعد يشعر بقلق ، وقضى أوقات فراغه فى التأمل ، وقبل الثورة الصناعية ، كان يفكر فى البحث عن تعريف لاشتراكية تخطيطية قائمة على الدين الذى هو العلم والصناعة ، صُدم سان سيمون بالتناقض بين الحضارة الصناعية والوضع السياسى ، وكان يعتقد أن العلماء بالتناوب مع رجال الصناعة الذين يسيطرون على وسائل الإنتاج ، عليهم السيطرة على بنية الدولة الحديثة ، بينما توجد فى كل الدول الأوروبية فى أيدى الأرستقراطيين ، وقد ذكر هنرى لوران (Henri Laurens) وجهة النظر هذه عندما كتب يقول : « استأنفت الأرستقراطية القديمة نظرية نضال الأجناس التى أوضحها جيزو (Guizot) بذكاء .

وقد أدت نظريات سان سيمون الاقتصادية - الاجتماعية إلى أن يكتشف ديناً جديداً ، وبعد وفاته عام ١٨٢٥ م ، قدم الأب أنفاتان (Enfatin) وتلاميذه تعريفًا بمبادئ الكنيسة الجديدة التى تستوحى أفكارها من المسيحية طالما أنها تبجل فضيلة المحبة والإحسان (يجب أن يعمل المؤمنون لصالح الطبقة الأكثر فقراً) وحب العلم وعبادة العقل ، الذى يقدره ثوار ١٧٨٩ م عندما يتفوق على العلم ، وفى هذا الصدد ، فإن الدين الجديد يريد أن يمارس بالجوهر ، أما الأشياء الملموسة مثل برامج الأعمال الكبرى فإنها تؤدى إلى تطوير المناطق بتسهيل عملية نقل البضائع وزيادة البدائل ، وتتحسن عملية انتقال الأفراد مما يؤدى إلى زيادة الاتصال بين السكان ، وتساهم حركة الاختلاط بين الناس إلى خلق وظائف تؤدى إلى مزيد من الغنى ، وتؤدى الحركة المكوكية اللا نهائية إلى جلب السعادة للبشر جميعًا ، والغريب أن هذا المذهب القائم على الوهم والسراب ، استقبلته الأوساط العلمية فى ذلك العصر بحماسة . وانتشر فى الأوساط الصناعية ، ويعتبر فرديناند ديلسبس (Ferdiand de Lesseps) والأخوة بيرير (Pereirer) من المخلصين لهذا الدين الجديد .

المذهب السان سيمونى يصل إلى مصر :

كيف اهتمت مصر بمدى انتشار هذا الدين الجديد ؟ لأنه بالتحديد فى ١٨١٢م ، رأى بعض السان سيمونيين أنه عند تحقيق شق قناة السويس وهو النموذج نفسه

للعمل العظيم العام الذى امتدحه مؤسسوا هذا الدين ، وإبتداءً من هذا التأمل المبدئى ، فإنهم يرون فى مصر مجالاً خصبًا لتطبيق أفكارهم ونظرياتهم ، ويعتبر المهندس ميشيل شيفالييه (Micheal Chevalier) بطل العمل العام بين الشعوب المجاورة للبحر الأبيض المتوسط .

وقد واجه شبكة من ستة آلاف كيلومتر من السكك الحديدية مرتبطة بافتتاح قناة السويس ، كما ينوى التخطيط لإنشاء قناة بنما فى أمريكا وهى نفس الفكرة التى سوف يلتقطها ديلسبس فيما بعد ولكنه سيقع فى خطأ حسابى خطير ، وفى مجموعة أخرى من الأفكار ، يحلم السان سيمونيون بخلط الجنس الأسود بالجنس الأبيض .

ومع ذلك ، ففى فرنسا قام قطاع كبير من الرأى العام بمقاطعة تلك الأفكار والنظريات المخالفة للصواب ، وشعر السان سيمونيون أنهم غير مفهومين فى أوروبا لذلك اتجهوا إلى الشرق ، ولم يتردد شيفالييه فى أن يعلن أن البحرالمتوسط سيصبح سرير العرس لزواج الشرق والغرب .

ولهذا فقد رحل إلى مصر مجموعة من المؤيدين المتحمسين بزعامة الأب أنفانتان تضم عدداً كبيراً من المهندسين من أجل « تكاثر » أعداد المؤيدين .

لقد تعلم الغربيون من الشرق الطاعة والثقة فى رؤسائهم ، وكما قال لامبير (Lambert) أحد رؤساء المذهب السان سيمونى أن منظر آلاف العمال وهم يحفرون معا قناة السويس كان عملاً رائعًا فى الشرق بينما فى أوروبا من الممكن لهذا التجمع أن يثور ضد أرباب العمل .

محمد على والسان سيمونيون :

كيف استقبل محمد على فى بلده تلك المجموعة صاحبة الرؤية الجديدة فى الدين وهو المعروف عنه أنه رجل عملى لا يؤمن بالخرافات ؟ ربما لأنه يؤمن بشدة بالمثقفين والفنيين ، كما استقبلوا استقبالاً طيبًا من قبل المستشارين الذين يعملون لدى محمد على أمثال سليمان بك أو لينانت دى بلفوند ، أما نائب القنصل الشاب فرديناند

ديلسبس فكان مبهوراً بأفكارهم فى حين كان القنصل العام متحفظاً لأن حكومته حذرته منهم .

كان هدفهم الأول الذى حددوه هو تنفيذ حفر قناة السويس ، استأنف المهندسون السان سيمونيون الدراسة التى بدأت أيام نابليون بونابرت وشرع أنفانتان فى عمل نداء لمؤسسة التمويل اليهودية العالمية لتمويل هذا العمل وانطلاقاً من هذه الفكرة نادوا بأن تنمية فلسطين ربما تتم باستخدام رؤوس هذه الأموال اليهودية وسيثبت المستقبل حقيقة تلك الهواجس .

بدأ محمد على يجد أن أصدقاءه السان سيمونيين لا يتحركون وأنهم يتكلمون كثيراً ولا يوجد أى عمل ملموس ومحدد يخرج لحيز التنفيذ ، وخشى من أن تلك الأفكار الفرنسية العجيبة قد تثير عدم ثقة الإنجليز ، لذا قرر توجيه نشاط السان سيمونيين نحو إنشاء خزان ضخم على دلتا النيل لإكمال نظام الرى واحتفل بإكمال هذا المشروع العظيم فى أغسطس ١٨٣٤م .

عرف السان سيمونيين كيف يربطون اللهو بالجد ، وفى عام ١٨٣٥م انتشر وباء الطاعون فتوقف العمل فى مشروع الخزان الكبير على دلتا النيل والذى عرف باسم القناطر الخيرية ، وكان ذلك إشارة إلى التشتت والهروب ، شعر أنفانتان بالإحباط فسافر إلى الصعيد وعاد كثير من تلاميذه إلى فرنسا واستقر آخرون بمصر ، وتحول بعضهم إلى الإسلام وسط دهشة محمد على الذى كان يتصور أن المتديّنين الغربيين جاءوا إلى مصر ليخرجوا المسلمين عن ديانتهم ، وعين لامبير مديراً لمدرسة المهندسخانة بالقاهرة وطلب منه محمد على أن يرافقه فى رحلته إلى السودان ، وأنهى دى بولاج (De Boulag) الأشغال المتعلقة بالقناطر الخيرية بناءً على أوامر بلفوند .

وبعد عشرة أعوام أى فى عام ١٨٤٤م ، ذكر جان جاك أمبير ابن العالم الفيزيائى الكبير أمبير أنه قام بجولة فى النيل بمصاحبة وزير المعارف العمومية وتحدث عن السان سيمونية ودهشا عندما وجدا الآثار الدالة على أفكارهم والتى استطاعوا أن يتركوها فى مصر ، وإبتداءً من عام ١٨٤٤م سيقوم فرديناند ديلسبس ، وهو النصير القوى للسان سيمونيين باستغلالهم لتنفيذ مشروع حفر قناة السويس .

ديلسبس ومشروع قناة السويس :

لم تكن فكرة حفر قناة تصل بين البحرالأحمر والبحر الأبيض المتوسط ثم منها إلى الشرق الأقصى جديدة ؛ بل تم التفكير فيها منذ زمن بعيد ثم من أيام الفراعنة ، وقد بدئ فى عمل قناة تربط بين البحرين الأحمر والأبيض ولكن لم يتم العناية بها فردمت ، درس عالم الرياضيات الألمانى ليبنز المشروع وقدمه إلى لويس الرابع عشر والذى اعتبره مشروعًا خياليًا مستحيل التنفيذ ، واهتم به نابليون بونابرت وكلف عددًا كبيرًا من مهندسى الطرق والكبارى الذين كانوا فى الحملة الفرنسية وعلى رأسهم لوفيفر (Lefevre) بدراسة تخطيط للقناة ، وتابع لينانت دى بلفوند تلك الدراسات .

كيف واصل فرديناند ديلسبس اهتمامه بهذه المسألة ؟ كان والده ماتيو ديلسبس (Mathieu de Lesseps) قنصل فرنسا فى مصر أثناء الحملة الفرنسية وعندما تولى محمد على السلطة كان فرديناند نائب القنصل فى القاهرة عام ١٨٣٣م ، ثم قائمًا بأعمال القنصلية فى الإسكندرية حتى عام ١٨٣٨م ، وقبل أن ينزل فى ميناء الاسكندرية عام ١٨٣٢م ، كان عليه أن يمضى فترة الحجر الصحى على ظهر الباخرة ، وحتى يقضى هذا الوقت ، أحضر له قنصل فرنسا ميمو (Mimaut) « جبلاً » من المستندات المتعلقة بفكرة مشروع حفر قناة السويس وعكف فرديناند على دراستها بشغف واهتمام شديد ، وكان يوجد ضمن هذه المستندات كتاب « وصف مصر » ، الذى أعدّه العلماء الفرنسيون ، وبعد انتهاء فترة الحجر الصحى ، قدمه ميمو إلى محمد على الذى استقبله بترحاب شديد لأن والده كان صديقًا لمحمد على .

دور السان سيمونيين :

ألتقى فرديناند ديليسبس وانفانتان رئيس مجموعة السان سيمون ، وقدم له عرضًا تخيل فيه رؤيته حول إنشاء قناة السويس حيث كان مسجلاً ضمن برنامج سان سيمون ، ضمت المحاضرات والاجتماعات من السان سيمون : أنفانتان وفورنيل ولينانت دى بلفوند ثم نائب القنصل فرديناند ديليسبس ، وظهرت نقاط فنية خطيرة ، إذ أوضحت الدراسات الجيوديزية التى قام بها لوفيفر (Lefevre) وجود اختلاف بين

مستوى سطح البحر الأحمر ومستوى سطح البحر الأبيض بعدة أمتار ، واقترح المهندسون إنشاء هويس لرفع السفن ، إلا أن فورنيل (Fournel) أكد أنه لا يوجد أى سبب يدعو للاعتقاد بوجود اختلاف فى الارتفاع، وإن البحرين على نفس مستوى الارتفاع ، وأثبتت التجربة أن فورنيل كان على صواب ، طلب السان سيمونيون بإجراء مقابلة مع محمد على لتقديم مشروعهم له ، اعتبر محمد على أن هذا المشروع غير ناضج من الناحية السياسية بسبب موقف إنجلترا العدائى، وإن هناك أولوية على هذا المشروع وهو مشروع إنشاء خزان ضخم على النيل ومشروع مد خط للسكك الحديدية يربط بين الإسكندرية والقاهرة والسويس ، إلا أن التنفيذ لم يبدأ إلا بعد عشرين عامًا وأصبح جاهزًا للخدمة عام ١٨٥٩م ، وطوال تلك المدة ، كرّس ديليسبس جهوده لوظيفته الدبلوماسية ، وكلفه محمد على بتثقيف وتدريب ابنه سعيد الذى كان عمره حوالى عشر سنوات وتحمس ديليسبس لهذا العمل ، أرهق ديليسبس سعيد بالتدريب على ركوب الخيل حتى يجعله رشيقًا ونحيفًا لأنه كان يميل بشدة إلى السمنة والامتلاء مثل كثير من المصريين من الطبقة الراقية وكما كان الملك فاروق فيما بعد ، لم ينكر التلميذ سعيد فضل معلمه عليه وظل معترفًا له بالجميل ونشأت صداقة حميمة بينهما أتاحت لفرديناند أن يتقدم بمشروع حفر قناة السويس ويحصل على امتياز التنفيذ بمساندة كاملة دون تحفظ من سعيد باشا ، تابع ديليسبس هذا المشروع عن بعد بعد أن انتقل من مصر إلى مدريد وروما لكنه عاد إليها عام ١٨٥٤ م .

عاد أنفانتان وتلاميذه إلى فرنسا ولم يقروا بعجزهم بل شكلوا فى باريس عام ١٨٤٦م « شركة للدراسات الخاصة بقناة السويس » مع مساهمين فرنسيين وإنجليز وأوروبيين لإعطائها بعدًا دوليًا ، وأعلن كل من الإنجليزى ستيفنسون والنمساوى نيجريلى فون مولد يلب تحمسهم لهذا المشروع ، وحضرت بعثة فنية إلى مصر برئاسة بوردالو لتحديد معالم التصميم والتخطيط ، وكانت تضم بولان تالبوت الذى أنشأ فيما بعد خط السكك الحديدية باريس – ليون – البحرالمتوسط .

نجح لينانت دى بلفوند فى إقناع محمد على بأهمية المشروع فوافق على انضمامه لبعثة بوردالو لكنه تركها فيما بعد بسبب التقصير فى عملية التمويل .

كان محمد على فى الواقع مهتماً بضرورة حفر قناة السويس لكنه كان يعرف أن الإنجليز يعارضون حفر القناة بأى شكل من الأشكال لأنها سوف تمس مباشرة طرق اتصالاتهم الإمبراطورية مع الهند ، وتنبأ جيلبير سينو مؤلف كتاب « قناة النيل » ببعد نظر محمد على بالنسبة لموقف إنجلترا من القناة قائلاً : « إذا حفرت فرنسا ومصر قناة السويس في يوم من الأيام ، فتذكروا جيداً أن إنجلترا هى التى سترقد عليها » .

أصبحت مصر مطابقة لذوق العصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر وصار يفد إليها العديد من السائحين الأوروبيين ومن فرنسا بصفة خاصة جاء وا يمارسون تأثيرهم بحضورهم أو بالكتابة عن مصر ، ولم يقتصر اهتمامهم بمصر الغنيّة بالآثار بل أيضاً بالدولة الحديثة التى يشكلها ويصوغها محمد على الذى أصبح مرتبطاً بشكل أوثق بفرنسا بصفة خاصة وأوروبا بصفة عامة خاصة ما يتعلق بالسياسة ، كان محمد على يستقبل الزوار الأوروبيين وينصت إليهم لأنهم كانوا بعد عودتهم لبلادهم يكتبون مالاقوه من حفاوة لدى محمد على ويتحدثون عن مظاهر النهضة فى مصر .

شاتوبريان ChâteaubrianT :

يعتبر شاتوبريان من أوائل الذين توجهوا إلى مصر ، فقد حضر إليها عام ١٨٠٦ م وعمره ٣٨ عاماً وله ماض دبلوماسي وشهرة كاذيب ، وقد سرد بالتفصيل رحلته فى « خط سير الرحلة من باريس إلى القدس » (١٨١١) بعد أن استوحى أفكاره فى « الشهداء » عام ١٨٠٩ م ، وهى ليست قصة حقيقية ولكن الكاتب ترك لخياله العنان وأخذ يصف آثاراً أو مناظر طبيعية لم يكن لديه الوقت الكافى لزيارتها ، ووجد الرحلة النيلية من الإسكندرية إلى القاهرة تبعث على الضجر والملل رغم أنها لاذعة بسبب العديد من الكوارث الناجمة من عدم استتباب الأمن فى البلاد ، فإذا كان محمد على يسيطر على القاهرة ، فإن العصابات الموالية لمنافسة الألفى بك الذى يسانده الإنجليز تحكم قبضتها على الريف ، يذكر شاتوبريان أن أربعة من الألبان صعدوا على ظهر

سفينته واستقروا فى كابينته « وكان علىَّ أن احتمل شراستهم ، ووقاحتهم ، ولدى سماعهم أى صوت ، يصعدون فوق الجسر حاملين بنادقهم ويبدو عليهم أنهم يريدون الدخول فى حرب ضد أعداء غائبين .. ، وأثناء ذلك ، نزل مسافرون أتراك على الأرض وكانوا يجلسون بهدوء على كعوب أرجلهم ويتجهون ناحية مكة ويمارسون نوعًا من العبادة وهم فى وسط الحقول ، أما الألبان الذين اقتحموا كابينتى فهم أنصاف مسلمين وأنصاف مسيحيين ويصيحون « محمد » و« مريم العذراء » ويمسكون مسبحة فى أيديهم وينطقون بالفرنسية كلمات فاحشة تخدش الحياء ويحتسون كميات كبيرة من النبيذ ويطلقون عيارات نارية فى الهواء ... » .

ورغم الانفعالات التى صادفها أثناء الرحلة البحرية ، فقد قال بحماسة « بدت لى مصر كأجمل بلاد الأرض : إننى أحبها حتى صحرائها التى تحيط بها وتفتح أمام الخيال الحقول الشاسعة » ، لقد فتنه بشدة منظر الأهرامات وعظمة النيل وهو يمر فى وسط القاهرة والمدينة نفسها ، ومن سوء حظه أنه لم يتمكن من زيارة محمد على الذى كان يتنقل ولكن استقبله ابنه إبراهيم .

الكولونيل بوتان Boutin :

تعتبر رحلة بوتان من الرحلات الغامضة ، فقد أرسله نابليون إلى مصر عام ١٨١١ م لإحاطة الباشا علمًا بمولد ملك روما لإقامة علاقات طيبة وودية بين الملوك ، وبعد أن سلم الرسالة إلى محمد على نزل فى ضيافة دروفيتى ثم توجه إلى الصعيد بدعوى أبحاث أثرية لأنه أعلن عن نفسه هاو للآثار ، أما الكولونيل الإنجليزى ميسرت (Misret) فلم يصدق هذا الادعاء وأبدى حنقًا شديداً ، وصل الكولونيل بوتان إلى أسوان فى رحلة نيلية ثم اجتاز الصحراء وقام برحلة بحرية فى البحر الأحمر ووصل إلى ينبع فى الحجاز وعاد عن طريق السويس ، وظهر فى سوريا عام ١٨١٥ م حيث اغتيل هناك على يد قطاع طرق ، وظلت مهمة بوتان غامضة دائمًا حيث تزامنت مع الحملة التى أرسلها محمد على إلى الحجاز ضد الوهابيين .

الفنانــون التشكيليــون والعلمـــاء :

دومينيك فيفان دينو (Dominique Vivant - Denon) ليس رحالة مثل الآخرين : فلم يقم فى مصر إلا فى الفترة التى قضاها نابليون غير أن مؤلفه يعتبر مرجعًا أساسيًا عن الآثار المصرية ، ولد عام ١٧٤٧ م ، كان فى أول حياته نقّاشًا يستخدم ماء الفضة ثم دبلوماسيًا قبل الثورة وأنقذ ديفيد دينو من الإعدام شنقًا ورُشح لمرافقة نابليون فى حملته ، ومن نقّاش إلى رسّام ثم كاتبًا وتفرغ للتقارير المصورة للحملة فى كتابه « رحلة فى الدلتا وفى صعيد مصر أثناء حملة الچنرال بونابرت » ، وترك أعدادًا كبيرة لا حصر لها من الرسومات والاسكتشات السريعة دقيقة ومحددة المعالم ذات نفع كبير للباحثين ، وعاد إلى باريس مع نابليون وعين فيما بعد مديرًا عامًا للمتاحف .

توالت أنظمة الحكم فى فرنسا دون أن يهدأ شغف واهتمام الفرنسيين بمصر سواء بعد الإمبراطورية أو فى عهد حكومة الإصلاح أو فى عهد لويس – فيليب وبعد ذلك فى عهد نابليون الثالث ، قام عدد كبير من الرسامين الفرنسيين بزيارة مصر وقد جذبتهم شمس مصر الساطعة .

فمثلاً حالة فوربان (Forbin) الذى كلّفه لويس الثامن عشر بشراء آثار مصرية لمتحف اللوفر ، وقد سرد بالتفصيل رحلته (١٨١٨) فى كتابه « تاريخ لوفان » ووضع فيه عدة تابلوهات أو رسومات وخاصة صورة زيتية لمحمد على أتاحت له الفرصة للقائه عدة مرات .

هوراس فيرنيه (Horace Vernet) أقام بمصر فيما بعد أى عام ١٨٣٩ م ، وكان قد رسم لوحته المشهورة عام ١٨٢١ م « مذبحة المماليك ومحمد على » ، بدأ علماء الآثار يهتمون أيضًا بمصر ، وأرسل شارل العاشر البارون تايلور (Taylor) عالم الآثار والمفتش العام للفنون الجميلة فى مهمة إلى مصر عام ١٨٣٠ م للتفاوض مع الباشا لينقل إلى باريس إحدى المسلتين الموجودتين فى الأقصر وهى الفكرة التى نادى بها شامبليون ، وعندما رجع البارون تايلور إلى فرنسا حكى مغامراته إلى الكاتب الكسندر دوما (Alexandre Dumas) الذى تأثر هو الآخر بالآثار المصرية وهو مؤلف « الفرسان الثلاثة » فقام بتأليف قصة جديدة عنوانها « خمسة عشر يومًا فى سيناء » ، وبفضله أصبحت سيناء معروفة للفرنسيين المعاصرين له .

المارشــال مارمونــت Marmont :

وصل إلى الإسكندرية فى أكتوبر عام ١٨٣٤ م وعمره فى ذلك الوقت ستون عامًا، وكان قد قام برحلة بحرية إلى البلقان وآسيا الصغرى ومصر ، وكان قد حضر مع نابليون عندما كان عمره ٢٤ عامًا وغادرها معه ، واستقبله محمد على ورحب به كثيرًا بصفته ضابطًا برتبة كبيرة ، كما استقبله سليمان باشا الفرنساوى رفيق السلاح القديم . لاحظ المارشال أن القاهرة تغيرت كثيرًا منذ أن كان بها عام ١٨٠٠ م ، وزار وادى الملوك والأقصر واستمرت إقامته أربعة أشهر .

رجــال الأعمــال الأوائــل :

جاء رجال السان سيمون لنشر أفكارهم ولم تجد مشروعاتهم الطموحة فرصًا ليحققوها بأنفسهم .

أما أول رجال أعمال جادين اقتربوا من محمد على فكانا الفرنسيين دى كالدافين de Caldavène وبروفــيـرى Breuvery اللذين توجهـا عـام ١٨٢٩ م إلى الصعيد والدلتا بهدف تأليف كتاب ظهر فيما بعد تحت اسم « مصر وتركيا من ١٨٢٩ م إلى ١٨٣٦ م » ، وكان كالدافين على اتصال بروتشيلد Rothschild ، وكان يقال وقتها فى أوروبا أن خزائن محمد على أصبحت خاوية خاصة فى عام ١٨٣٣ م بعد الحملة التى أعدها على سوريا ، وكانت مجموعة بنوك روتشيلد قد وكلت كالدافين بأن يقترح على محمد على منحه قرضًا هامًا ، وهذه هى المرة الأولى أن تقدم بنوك أوروبية هذا العرض لقرض مصر التى لم تكن دولة ذات سيادة ، ومع ذلك ، أخذ محمد على جانب الحذر ولم يعط اهتمامًا لهذا العرض .

آخــر الرحالــة الذين زاروا مصــر فــى عهــد محمــد علــى :

قامت مجموعة فرنسية أخرى مشهورة بزيارة مصر قرب نهاية عهد محمد علـى ، واستخـرج جيـرار دى نيـرفـال Gerard de'Nernval مــن رحلتــه إلــى الشــرق

(المجلد الأول : « نساء القاهرة ») وبه وصف للحياة بالقاهرة والمستعمرة الفرنسية وسهرة لدى لينانت دى بلفوند Linant de Bellefonds ، وجاءت رحلة فلوبير Flaubert وماكسيم دو كامب Maxime du Camp فى الفترة من ١٨٤٩ / ١٨٥٠ أى بعد وفاة محمد على مباشرة ، وتركا آثارا قيمة عن الحياة فى مصر فى ذلك العصر ، أما عن تيوفيل جوتييه Théophile Gautier فلم يتمكن من زيارة مصر رغم أنها وردت كثيراً فى كتاباته لضيق الوقت ولطبيعة عمله كصحفى .

ومن بين آخر الذين زاروا مصر من الفرنسيين وجذب محمد على بشدة نحوه ، هو دوق مونبنسييه Le due de Montpensier وهو الابن الخامس للويس فيليب Louis Phi-lippe ، حضر عام ١٨٤٥ م كسائح عادى ، وسعد محمد على باستقبال ابن ملك الفرنسيين ولكى يعرب عن تقديره واحترامه لتلك الزيارة أرسل معه ابنه إبراهيم ولى العهد ومعه سليمان باشا الفرنساوى .

أحب محمد على فرنسا كثيراً لكن لم تتح له فرصة لزيارتها ، وكانت الرحلة الوحيدة التى قام بها فى أواخر أيامه إلى أوروبا حيث زار إيطاليا ، ربما بتشجيع من صديقه دروفيتى Drovetti الذى كان يشعر بالحنين إلى وطنه الأصلى ، ولكن إيطاليا التى لم تكن قد توحدت فى ذلك الوقت كانت بعيدة عن أن تقارن بفرنسا وتقدمها ، ومن الأسف أن محمد على لم يتمكن من زيارة فرنسا أو معرفتها حق المعرفة « لأنه عن طريق شخصيته القوية وانتصاراته والدعاية القوية ، عرف كيف يكتسب قادة فرنسا لصفّه ، وقد كان محمد على فى نظر الفرنسيين رمز الحرية والتقدم والمستقبل » .

الفصل السابع

التنظيم الاقتصادى

فى الوقت الذى أعاد محمد على تنظيم حكومة مصر ، بدأ فى وضع نظام اقتصادى جديد لبلده ، فقد قلب التنظيم الذى كان قائمًا فى مجال الزراعة والتجارة والصناعة ، ودفعه فى هذا الاتجاه عاملان رئيسيان ، الأول : إلغاء البنية الاقتصادية التى كانت موجودة منذ القرون الوسطى وإقامة نظام اقتصادى مصرى حديث وفق نظم مستوحاه من الغرب أراد محمد على إدخالها فى مصر .

العامل الثانى : ذو طابع خاص ، فقد كان الهاجس الذى يشغل فكر محمد على هو تكوين ثروة شخصية له ، واعتباره مصر ملكًا خاصًا له ، وانطلاقًا من هذا المبدأ ، أدار البلاد بطريقة المالك الذى يرعى ويستثمر أمواله ، وهذا المسلك الذى يبدو غريبًا ومزعجًا فى هذه الأيام ، كان لحد ما منتشرًا فى ذلك العصر ، ومن المحتمل أن مصر ، بصفة عامة ، وجدته فى صالحها ، فكانت فى الواقع عبارة عن رأسمالية الدولة ، يحركها دافع قوى ، هو الفائدة الشخصية لمن يديرها ولديه من الحصانة والاستقامة ما يجعله لا يخفى نواياه .

* الضريبة العقارية (الميرى) : تفرض على العقارات والأراضى والمزارع المؤجرة ، وبصفة خاصة الضريبة العقارية على الأراضى .

وكان « الالتزام » يفرض على الدخول ولكن بطريقة تعسفية وجائرة وهو التزام تكافلى بمعنى أن كل فلاح مسئول عن دفع الضرائب بواسطة جاره ، وألغى هذا التكافل عام ١٨٣٦ م . كان جمع هذه الضرائب يتم بواسطة ملتزمين يحصل الواحد منهم على التزام (امتياز) جمع الضرائب الخاصة بناحية أو مجموعة نواح ، ولقد

عانى الفلاحون كثيراً من سطوة الملتزم فى جمع الضرائب ، واستغلال نفوذه فى فرض إتاوات خارج الضرائب المقررة لكى يعوض ما دفعه للخزينة ويحقق فائضًا ماليًا وهو على غرار ما كان يحدث فى فرنسا فى عهد النظام الإقطاعى قبل الثورة ، تُدفع الضرائب عينية من محصول القمح وكان الفلاح يستأجر جمالاً لنقل المحاصيل ، وبطبيعة الحال كان الفلاحون يخفون أكبر قدر من المحاصيل ليهربوا من دفع الحد الأقصى من الضرائب التى ترهق كاهلهم .

أعاد محمد على النظر فى نظام « الالتزام » و« الملتزمين » وذلك بإصلاح طريقة تحصيل الضرائب العقارية ، وحافظ فى نفس الوقت على الدخل لصالح الخزانة أى لمصلحته الخاصة ، وهناك ضرائب أخرى :

– المكوس الجمركية ورسم الدخول لكل مدينة .

– ضرائب متنوعة جعلت وزراء مالية الدول الغربية يشعرون بالغيرة من تنوعها : ضريبة مسجد ، ضريبة سبيل المياه ، ضريبة مدارس ، ضريبة على النخيل .. إلخ .

وفى الماضى ، كان الأتراك هم الذين يحصلون الضرائب واشتهروا بالقسوة نحو السكان أكثر من المصريين أنفسهم ، ولكن نظراً لعدم كفاية الموظفين الأتراك رؤى الاستعانة بمصريين الذين نجحوا فى عملهم أكثر من زملائهم الأتراك لأنهم يعرفون مواطنيهم أكثر من الأتراك وبذا استطاعوا ابتزازهم ليحصلوا على أكبر قدر من الأموال من هؤلاء الفلاحين التعساء ، وذكر روبير سوليه (Robert Solé) فى كتابه « الطربوش » أن محصلى الضرائب كانوا يجمعون الضرائب بالضرب بالسوط (الكرباج) والذى كان يصنع من جلد الخرتيت والذى حُرِّم استخدامه عام ١٨٣٣ م ، كما تم تكليف جباة الضرائب بتغطية ديون البنوك ، وإزاء الخطر المحدق من ضياع أرض المدين ، فإنه يلجأ إلى المرابين ليقرضوه أموالاً يسدد بها ديونه بفائدة ربوية تصل إلى ٣٠ ٪ .

والخلاصة ، لوحظ أن المكلفين كانوا يستقطعون الجزء الأكبر من الضرائب لأنفسهم ، وحرص محمد على على تغيير ذلك بإجراء تعديلات وإجراءات لم تلق قبولاً لدى الشعب ، فقد ضغط على المصريين خاصة الفلاحين لأنه كان دائمًا فى حاجة إلى

أموال لتنفيذ المشروعات الكبرى للأشغال العامة وإنشاء وتجهيز أسطوله ودفع رواتب الجنود والموظفين .

الزراعـــة :

احتكار الأراضى الزراعية :

عندما غزا السلطان سليم الأول مصر عام ١٥١٧ م ، أعلن نفسه المالك الوحيد للأراضى وذلك حسب العرف السائد لدى العثمانيين ، فالدولة ممثلة فى شخصية الحاكم تمتلك الأرض وتعطى حق الانتفاع للفلاحين على شكل امتياز وأحيانًا تورث ، ولكى ينتفع بها عليه أن يدفع إتاوة للسلطة التى منحته الأرض ، وقد تعوّد المصريون على هذه السياسة التى كانت سائدة أيام الفراعنة ، ولذا فإنهم لم يعترضوا على نظام الضرائب العقارية الذى طبقته الإمبراطورية العثمانية ، واعتبر المماليك أنفسهم ممثلين للسلطان واستغلوا بُعده عنهم وأخذوا يتملكون أجزاءً كبيرة من الأراضى بادعاء أنهم الورثة الشرعيون للإمبراطورية العثمانية .

ثم جاء نابليون بدوره وصادر ممتلكات المماليك واعتبرها ممتلكات وطنية حسب التعبير الذى استخدمته فرنسا أثناء الثورة عندما استولت على ممتلكات الكنيسة والمغتربين والملكية .

حذا محمد على حذو نابليون وطبق مفهوم الممتلكات الوطنية وعممه ، وتعود ملكية الأراضى فى واقع الأمر إلى حاكم الدولة أى إلى شخصه هو ونسب إلى نفسه العبارة التى كان ينادى بها لويس الرابع عشر « الدولة أنا » ولم يكن الدافع وراء هذا الإجراء فائدة شخصية لمحمد على ، بل إن كان يعتقد أن المساحات الشاسعة يمكن استغلالها وإدارتها بصورة أفضل من تقسيم الأرض إلى مزارع صغيرة لأن الإدارة الجيدة تحتم توفر نوع من المركزية .

قام محمد على بسلسلة من الإجراءات انتهت إلى تغيير أوضاع الملكية والحيازة الزراعية وذلك بإلغاء نظام الإلتزام حين صادر أراضى الملتزمين وخاصة بعد التخلص

نهائيًا من المماليك وتم تسجيلها باسم الدولة ، كما ضمت أراضى الأوقاف لصالح الدولة وكذلك المساحات التى عجز أصحابها عن إثبات حيازتهم لها ، استولى محمد على على أراضى الملاك مقابل ريع سنوى ينقل للورثة ، ولم يتحمس المصريون لهذا العرض لكنهم أجبروا على قبوله . وكان منطق محمد على فى هذا الصدد أنه إزاء التغيير العميق الذى ينوى إجراءه فهو فى حاجة ماسة إلى موارد وإلى وسائل لإنعاش الدولة وتحديثها ، ماذا يمثل ستة آلاف مالك أمام جموع الشعب البالغ عددهم ثلاثة ملايين ؟ ومع ذلك وعد بدفع تعويضات مقابل الأراضى ولكن عن جزء يسير من الأرض وعلى فترة تمتد ثلاثين عامًا ، ولم يحتفظ بملكية الأرض لنفسه بل وزعها على أسرته وبعض المميزين فى النظام الجديد .

أدى احتكار الأراضى بطبيعة الحال إلى نظام الاقتصاد الموجه بالنسبة للمنتجات الزراعية والتى كانت تدر عائداً وذلك بإدخال زراعات لم تكن معروفة من قبل ، اتضح كذلك أن المركزية لا غنى عنها فى نظام الرى ابتداء من فيضان النيل .

تنظيم الزراعة :

اتبع محمد على سياسة زراعية تتلخص فى توفير أكبر دخل من الإنتاج الزراعى ، أعادت الحكومة توزيع مساحات الأرض على الفلاحين بحيث خصّ كل أسرة مساحة من الأرض لزراعتها حسب قدرة كل منها وذلك للانتفاع بها بشرط دفع ما تقرره الحكومة من ضرائب وأموال ولا تنزع الأرض من المنتفع إلا إذا عجز عن دفع ما عليها من أموال ، وألزمت الحكومة الفلاح بزراعة ما تقرره من الحاصلات الزراعية مع تزويده بلوازم الزراعة من بذور ومواشى وأدوات يخصم ثمنها أو قيمتها من قيمة المحصول عند تسليمه ، وفيما بعد تم تطبيق هذا النظام باسم الخولكوز فى الإتحاد السوفيتى أو الكيبوتز الإسرائيلى .

وقد أتاحت هذه السياسة تطوير زراعات جديدة مثل القطن طويل التيلة الذى تم إدخاله فى مصر بمبادرة فرنسية على يد لويس جوميل (Louis Jumel) وازدهرت زراعته بصورة كبيرة ، وقد صمم المهندس جوميل آلات للنسيج واستدعاه محمد على

عام ١٨١٧ م لإدارة مصانع غزل القطن التى أنشئت بمصر ، حيث أدخل تشكيلة جديدة من القطن طويل التيلة عرف باسمه واشتهر بجودته وتفوقه على الأصناف الأخرى التى كانت تزرع ، وقام محمد على بتجربة زراعة هذا الصنف من القطن فى مزارعه بالشرقية تحت إشراف ابنه إبراهيم وحققت التجارب نجاحًا سريعًا وبيع القطن طويل التيلة بثلاثة أضعاف سعر القطن العادى وخصص للتصدير وأخيراً حل هذا الصنف محل الأصناف الأخرى .

كما تم إدخال أنواع جديدة من الغلات الزراعية مثل أشجار الزيتون وأشجار التوت لتربية دودة القز لصناعة الحرير ، كما تمت زراعة الآلاف من النخيل وقصب السكر والأرز والفول لتكملة زراعة المواد الغذائية ، وبجانب القطن أدخلت زراعات صناعية أخرى مثل الكتان والقُنّب ونبات النيلة الهندية .

نظام الاحتكار :

نظم محمد على الاقتصاد المصرى فى الزراعة والصناعة والتجارة على قاعدة الاحتكار ، كذلك فإن جميع المنتجات الزراعية تخضع لنظام الاحتكار .

مم يتكون هذا النظام ؟ محمد على هو المالك الوحيد للأراضى وهو أيضًا مالك المحاصيل ، ويحصل الفلاحون على مكافأة عن عملهم ، وتشترى الحكومة المنتجات من الفلاحين بسعر بخس مما أجبر الفلاح على أن يضع جانبًا جزءاً من المحصول يمكنه من العيش هو وأولاده ، ولكن كيف يتم تصريف الفائض فى حالة عدم تواجد سوق طالما أن الدولة هى المشترى الوحيد والبائع الوحيد ؟ من حسن الحظ أن خيال الرجل الشرقى لا ينضب ولا يخطئ ، وتوصل الفلاحون إلى إنشاء سوق موازية يمكنهم فيه تصريف بعضًا من منتجاتهم ، وهكذا كانت التجارة الرسمية للمنتجات الزراعية فى أيدى محمد على ، ويتم تحديد سعر الشراء للمنتجين وسعر البيع للمستهلكين المحليين أو للمصدرين الأوروبيين ، وتولى الباشا أيضًا تصدير المنتجات الزراعية وكذلك استيراد المواد اللازمة للزراعة كالسماد والبذور والأدوات . . . إلخ .

أدى أسلوب محمد على فى أنه المنتج الوحيد للحاصلات الزراعية والتاجر الوحيد إلى حدوث مساوئ من جانب عملاء الحكومة المكلفين بتنفيذ هذا الأسلوب القائم على الاحتكار ، وعاد بالضرر الفادح على الفلاح الذى إنهار دخله ، أما عن محمد على، فقد فقد جزءاً من حكمه المطلق فى نهاية عهده وذلك تحت ضغط العثمانيين والقوى العظمى ، وعاد إلى ملكية الأراضى المنزرعة ، وفى نهاية عهده تشكلت إدارات ضخمة لأملاك الدولة بحيث لم يحصل محمد على هو وأسرته عام ١٨٤٥ م إلا على أقل من ٢٠ ٪ من المساحة المنزرعة .

ومن ناحية أخرى ، فإذا كان محمد على حصيفًا ويتمتع بالذكاء عندما أدخل زراعات جديدة ، فعليه أيضًا مضاعفة الإنتاج ولن يتأتى ذلك فى عصره إلا بالرى لأن الميكنة الزراعية لم تكن إلا فى بدايتها .

الرى :

للرى دور بارز فى الزراعة المصرية منذ أقدم العصور حيث تمثل الرسوم القديمة الفلاحين وهم يغترفون مياه النيل ، يأتى الفيضان أواخر شهر يونية فى العادة فيغرق الأراضى وتظل مغمورة بالمياه ولا تزرع لمدة ستة أشهر كل عام ، ويظل باطن الأرض مبللاً وفى نفس الوقت خصبًا من الطمى الذى جلبه الفيضان ، وقد لاحظ السائحون الذين كانوا يتجهون إلى أعالى الصعيد أو القادمين منه قلة المساحات المزروعة على جانبى النهر فكانت عبارة عن شريط أخضر ضيق جداً ويحيط به حاجزين ، وخلفه الصحراء المترامية ، أما فى الدلتا فكانت المنطقة المنزرعة أكثر امتداداً .

ومنذ التاريخ القديم كانت توجد منشآت بدائية لضخ مياه النهر : سواقى تدار بحيوانات لملء القواديس وتفريغها فى قنوات ، ولا زالت بعض تلك المنشآت متواجدة على حافة النيل ويمكن مشاهدتها .

وعندما تنتهى المياه التى غمرت الأراضى لمدة ستة أشهر ، يبدأ الفلاحون أى فى شهر نوفمبر ببذر البذور لزراعات مختلفة : الحبوب والذرة والشوفان والبسلة والفاصوليا والعدس ، وهذه تزرع مرة واحدة فى العام بينما البرسيم يجنيه الفلاح عدة

مرات . بعض النباتات تزرع فى نهاية الصيف قبل أن تجف المياه من باطن الأرض كما فى حالة قصب السكر والأرز والقطن ونبات النيلة الهندية ، أما القطن طويل التيلة فيحتاج إلى عناية كبيرة فى زراعته ولابد من ريّه مرة كل ١٢ يوم ، ولذلك لم يكن الفلاح يفضل زراعته إلا إذا كان مجبراً على ذلك ، فكان يفضل زراعة الحبوب أو قصب السكر لا حتياج الأتراك للسكر الذى كان مرغوباً بشدة .

تميز فيضان النيل بانتظام مواعيده فى أوقات محددة لأنه يأتى نتيجة تزامن ظاهرتين تتمان فى وقت واحد : الأمطار الموسمية التى تسقط فى منطقة البحيرات العظمى بشرق أفريقيا وذوبان الجليد فى أعالى الجبال ، ومنذ فجر التاريخ وفيضان النيل يصل إلى القاهرة فى نهاية شهر يونيه من كل عام ويصل إلى أقصاه حوالى ٢٢ سبتمبر ، ويحتفل به المصريون ويسعد الفلاح كلما كان الفيضان عاليًا (لأنه علامة على وفرة المحاصيل) ، ولكن الفيضان عندما يفيض بالمياه ويتخطى الجسور ويغرق الأراضى بالمياه الراكدة يسبب ظاهرة غير صحية ويهدد بحدوث وباء الطاعون ، ثم يعود النهر إلى مجراه الطبيعى ويهبط إلى أدنى مستوى له فى منتصف نوفمبر ، ومع ذلك ، فإذا كان المصريون قد حفروا قنوات وترع منذ القدم لزيادة رقعة الأرض الزراعية ، فإنهم لم يفكروا فى تخزين مياه النيل الذى ينساب بسرعة نحو البحر ، ففى اليمن كان هناك سد مأرب الذى أنشئ لهذا الغرض فى القرن الثامن قبل الميلاد .

قرر محمد على ومستشاروه الفرنسيون التصدى لمشكلة تخزين مياه النيل ، ولذا فقد شرعوا فى إنشاء سدود لحجز المياه أثناء الفيضان لإعادة استخدامها فى فترة انخفاض منسوب مياه النيل ، وأول عمل عظيم هو قناطر الدلتا حيث بدأ العمل بها عام ١٨٣٥ م وانتهى عام ١٨٤٧ م فى نهاية عصر محمد على ، وبذا أمكن تحويل أجزاء شاسعة من رى حياض إلى رى دائم بحيث يمكن زراعتها ولم تحصل على فترة استراحة لتهويتها وتقليب تربتها وإعادة نشاطها ، ومن أجل ذلك لجأ الفلاح إلى استخدام السماد لتعويض قلة خصوبة الأرض ، ولم يعد الغرين كافيًا لتجديد خصوبتها .

وتتجلى هذه الظاهرة بشكل واضح فى أيامنا هذه بعد إنشاء السد العالى بأسوان وتكلف أموالاً باهظة وبمساعدة الإتحاد السوفيتى ونشأ عنه نتائج سيئة :

- فقدان الغرين المسبب لخصوبة الأرض حيث كان يجلب للأرض سماداً طبيعياً مما سبب خيبة أمل كبيرة لدى الفلاحين إذ يضطرون الآن لشراء أسمدة صناعية .

- تغير المناخ الناتج عن كثرة البخر وظهور سحب فى سماء أسوان وأحياناً تسبب أمطاراً وسط دهشة السكان هناك .

- تعديل أنواع من الأسماك بوصول أنواع من البحر الأحمر .

ومن حسن الحظ أن التغيرات البيئية كانت أكثر اعتدالاً فى القرن التاسع عشر .

بعد انتشار السدود والقناطر بدأت المياه تنساب إلى الأراضى بفعل الجاذبية وتجرى فى الترع والقنوات لرى الأراضى ، كما يجب العمل على صيانة مجارى المياه وتنظيفها وإزالة الحشائش والنباتات التى تعوق جريان المياه وتخصيب الأرض بالطمى ومراقبة الحواجز وصيانتها لحماية القرى من أخطار الفيضانات العالية ، ومنذ القدم كان الفلاح هو الذى يقوم بتلك الأعمال بالسخرة ، وكل عام تجند الحكومة أعداداً ضخمة من الفلاحين للعمل فى برنامج صيانة الشواطئ والحواجز ، وكان دورالحكومة فى عهد محمد على فى هذا الصدد جوهرياً . فقد شرعت فى إجراء تعديلات كبيرة فى نظم الرى وفى تنظيم العناية بالمنشآت حتى لا تتصحر بالأراضى ، ومن المعروف أن مشكلة الصيانة والعناية بالمنشآت تواجه صعوبة كبيرة فى الدول النامية بل وأيضاً فى الدول المتقدمة ، وبفضل التوسع فى الرى ، زادت رقعة الأرض المنزرعة زيادة كبيرة ، فقبل تنفيذ المشروعات الكبرى ، كانت مساحة الأرض المنزرعة مليوناً وثلاثمائة ألف هيكتار لكنها فى عام ١٨٦٢ م تجاوزت مليون وسبعمائة ألف هيكتار ، وهكذا وبفضل مشروع الرى العظيم الذى تم فى عهد محمد على وسياسته النشيطة فى العناية بتلك المنشآت ، زادت الأرض الزراعية بحوالى ٣٧ ٪ .

الصناعة :

استحسن محمد على الاحتكار فى المجال الزراعى فقرر أن يطبقه فى الإنتاج الصناعى عام ١٨١٦ م ، وبذل جهده فى خلق صناعة وطنية بينما لم يشجع الحرف اليدوية رغم أنها تمثل نشاطاً تقليدياً .

التصنيـــع :

شجع المستشارون الفرنسيون أو الأوروبيون محمد على على السير قدمًا فى طريق الصناعة لأنها فى رأيهم الأكثر تاكيداً للوصول إلى تنمية سريعة للدولة ، وكانت عقلية هؤلاء المستشارين فى ذلك الوقت أقرب ما يكون لعقلية الإختصاصيين التقنيين فى أيامنا هذه ، وكما فعلت الحكومة بالنسبة للزراعة ، فقد ادعت ملكيتها لوسائل الإنتاج سواء بإنشاء مصانع للمنتجات الجديدة أو بإعداد وتجهيز ورش قائمة لتحل بالتدريج محل الصناعات اليدوية للحرفيين ، أما الحرفيون التعساء الذين فقدوا أعمالهم فليس أمامهم إلا أن يكونوا موظفين إداريين فى مصانع الدولة .

من الذى شجع محمد على على هدم كيان الحرفيين فى مصر لصالح « بنية التكنوقراط » أو الأختصاصيين التقنيين ؟ يرجع ذلك بكل تاكيد إلى الاندفاع وراء الإنتاج الجماعى والإنتاجية الضخمة ، أو ربما يكون الدافع الشعور بالفخر والكرامة برؤية مصر وقد أنشئ فيها وحدات إنتاجية وطنية ضخمة على غرار تلك التى ظهرت فى أوروبا وليس لها مثيل فى الإمبراطورية العثمانية .

وقد حرصت الحكومة على عدم تركيز جميع مراكز الإنتاج بالقرب من المدن الكبرى مثل القاهرة أوالإسكندرية حيث يتوفر أعداد كبيرة من الأيدى العاملة ، وكعادة محمد على فى بعد نظره ، لم يرغب فى ظهور طبقة من البروليتاريا وهى طبقة العمال فى داخل المدن ، وقرر إنشاء المصانع بالقرب من مناطق إنتاج المواد الأولية الزراعية كى تستخدم الأيدى العاملة المحلية ، وفى الفترة من ١٨٢١ إلى ١٨٢٦ م أنشئت فى الدلتا عدة مصانع للمنتجات الزراعية بغرض التصدير ثم فى عام ١٨٣٠ م أنشئت مصانع مشابهة فى الصعيد ، وأقيمت مصانع لغزل الحرير والقطن والكتان والقِنّب ومصانع لإنتاج السكر والتقطير ، كما أُقيمت مصانع أسلحة .

لم يأل الباشا جهداً فى استدعاء الخبراء من أوروبا أو من مناطق أخرى من العالم كمساعدين فنيين لتطوير مصانعه ، فاختار خبراء من إيطاليا لصناعة الحرير ومن جزر الأرخبيل بريطانيين لصناعة العَرَق من قصب السكر والقِنّب من الهند ، إلخ ، دون أن ينسى الفرنسى جوميل للأقطان .

يتم تمويل الاستثمارات من ميزانية الدولة ويعتبر محمد على المالك الطبيعى للمصانع ، وبالنسبة لشبكة الرى فقد أصر على الاهتمام بمشاكل استغلالها وصيانتها والعناية بها مما سيعرضه لصعوبات جسيمة .

الأيدى العاملة الصناعية :

مهما يكن الأمر ، فإن سياسة محمد على ساعد على إنشاء عدد كبير من الوظائف الصناعية : ٣٠ ألف وظيفة فى عشرين عامًا ، وقد جاء فى كتاب « وصف مصر » تقويمًا محددًا حول الأيدى العاملة المصرية : « إن شعبًا لا يستطيع أن يتمتع بتنمية ملكاته ومواهبه إلا فى ظل الأنظم العاملة المحافظة : فالصناعة فى حاجة إلى نفس الضمانات وإلا ستظل جامدة وخاملة لاتصل إليها يد الابتكار أو الإختراعات أو الجودة أو تحسين المنتج ، وهكذا نجد فى مصر أن الفنون ومنتجات المصانع تعبر عن إحباط العمال وأصحاب الأعمال ، لا يوجد تشطيب جيد ، العناية غير متوفرة فى المنتجات التى تخرج من المصانع المصرية وذلك باستثناء أعمال التطريز ، والمنسوجات القطنية والتيل والأقمشة الصوفية والجوخ تحمل كلها علامات العيوب وعدم الكمال بصورة تدعو للدهشة . . فالمصريون المتحضرون يظلون متخلفين لأن تأثير الطغيان يقهر ذكاءهم ويلغى عبقريتهم » .

فالتقويم إذن سلبى بل تشويه لهجة ثورية إلا أن الكتاب تم تأليفه قبل سياسة التصنيع التى أقرّها محمد على .

وعلى النقيض من ذلك ، فقد أعلن مراقبون آخرون عن دهشتهم لمستوى الجودة الذى وصل إليه العملة المصرية الصناعية وهى شهادة من اقتصادى فرنسى زار مصر وأعرب عن سعادته البالغة بعمال النسيج المصريين الذين يتميزون بالتخصص والعمل الجاد والصبر .

فشل السياسة الصناعية :

لم يتمكن محمد على مع الأسف من الانهماك والانشغال بكل جوانب النشاط وكان عليه أن يعتمد على نواب ، وتلك هى نقطة الضعف فى النظام ، فالإدارة لم تكن

على مستوى الرئيس الأعلى كما أدت المركزية فى الإدارة إلى حدوث ارتباك وفوضى ، وحدث نفس الشئ مع الاقتصاد السوفيتى : فالآلات الأوروبية المستوردة ليست دائمًا مطابقة وأحيانًا يتم تسليمها على موقع سيئ وبدلاً من إعادة شحنها يتم الاحتفاظ بها فى مخازن حتى يأكلها الصدأ ، وقد وجدت حالات مشابهة عام ١٩٦٠ م عندما زودت هيئة المعونة السوفيتية غينيا بكاسحات جليد حيث توجد سلسلة جبال هناك ولكن بدون جليد .

وتتكرر هذه الأخطاء نتيجة سوء الإدارة ، وتؤدى هذه الفوضى إلى تبديد المواد لمصلحة المسئولين المحليين ، وعلى سبيل المثال ، سجل أحد المصانع استهلاك الأخشاب بصورة مبالغة مقارنة بالاحتياجات العادية للإنتاج .

وقد لقى نظام الاحتكار نجاحًا أكيدًا فى المجال الزراعى حيث أدى إلى إدخال وتطوير زراعة القطن وقصب السكر ، إلا أنه على النقيض من ذلك صادف فشلاً فى المجال الصناعى ، ففى الوقت الذى تعوّد فيه الفلاحون على زراعتها التقليدية باستخدام التقنيات التى مارسها أجدادهم والتى كانت ملائمة لهم ، بدأ محمد على فى تعليمهم أساليب أخرى حديثة فى الزراعة والرى لكن لم يخرجهم عن إطار حياتهم العادية ، أما بالنسبة للصناعة ، فلم تكن توجد ثقافة للمشروعات بالمعنى المعروف حاليًا ، وأراد محمد على أن يعبر من مرحلة الحرف اليدوية إلى المصنع مباشرة فى الوقت الذى لم يهيئ فيه لا إدارة جيدة ولا موظفين إداريين أكفاء ، كما أن اليد العاملة المعتادة على العمل فى الهواء المطلق لم يتم توجيهها فى ورشة كبيرة ، أى أنه بإضعاف قطاع الحرفيين ، فإن الباشا قد ارتكب خطأ فادحًا .

تحفظات القوى العظمى تجاه الصناعة المصرية :

فى الوقت الذى واجه محمد على تدهورًا فى النتائج الاقتصادية لصناعاته التى تشرف عليها الدولة ، لاحظ أن الشركاء الأوروبيين يبدون تحفظات شديدة تجاه الصناعة المصرية ، فقد رأت إنجلترا وفرنسا على وجه الخصوص ، فى الصناعة

المصرية منافساً لصناعاتهما فى المستقبل لأن تكاليف إنتاجها أقل من مثيلاتها الإنجليزية أو الفرنسية بسبب ضعف أجور الأيدى العاملة .

كما أن مشكلة عدم توطن الصناعات التى نعرفها جيداً هذه الأيام بدأت بالظهور لاسيما وأن إنجلترا وهى الدولة الصناعية الأولى والأقوى ، مرت فى نفس الوقت أى حوالى عام ١٨٣٠ م بأزمة خطيرة بسبب زيادة الأجور وفقدان الأسواق الأمريكية . فالولايات المتحدة التى كانت منفذاً أكيداً لتصريف منتجاتها الصناعية ، أكدت على مر الأيام استقلالها الاقتصادى عن إنجلترا ، فاعتبر الإنجليز أن مصر عليها أن تكتفى بإنتاج المواد الأولية لتصنيعها فى المصانع البريطانية ، وضغطت القوى العظمى على محمد على للحد من التنمية الصناعية فى بلده ووقف نظام الاحتكار ، وفضلاً عن ذلك ، ففى نفس الوقت الذى أنشأ فيه محمد على صناعة مصرية ، لم ينس من وضع قوانين جمركية لحماية تلك الصناعات الفنية كى تنمو وتتطور بمأمن عن المنافسة الأوروبية ، وفى عام ١٨٤١ م ، لم تتمكن الصناعات التى أقامتها الدولة من الوقوف أمام المنافسة الأوروبية وتدهورت ، واضطر محمد على إلى إلغاء نظام الحماية الجمركية .

التجارة الخارجية :

عندما وضع محمد على نظام الحماية الجمركية لتشجيع الصناعة المصرية ونموها ، تجاهل عن عمد نظام الامتيازات الأجنبية الذى منحه بعض سلاطين الدولة العثمانية لدول أوروبية .

الامتيازات الأجنبية :

منحت الامتيازات الأجنبية فى القرن السادس عشر بين تركيا والفرنسيين عندما وقّع السلطان سليمان القانونى وفرانسوا الأول ملك فرنسا معاهدة كفلت للفرنسيين فى

بلاد الإمبراطورية العثمانية حق الإقامة والتجارة والحرية الشخصية وحرية العقيدة ، كما كفلت مثل هذه الحقوق لرعايا السلطان المقيمين فى فرنسا ، وبفضل هذا النظام يخول للفرنسيين وخاصة التجار إعفاءهم من القضاء المحلى ويحق لفرنسا إنشاء محاكم قنصلية خاصة لمحاكمة رعاياها والتى اتسع نطاقها لتشمل القضايا المدنية والتجارية والجنائية ، وقد منح السلطان سليمان نفس الامتيازات للفينيسيين والبولنديين ، كانت الامتيازات فى أول الأمر مجرد حماية قضائية للرعايا الأوروبيين إلا أنها امتدت لشئون تابعة للدولة أى الخدمات العامة الممنوحة ثم بعد ذلك تخطتها إلى الاحتكارات المختلفة الخاصة بالاستيراد والتصدير .

شعر الإنجليز بالغيرة من مكانة الفرنسيين لدى استامبول ، ولم يمض وقت طويل حتى حصلوا على نفس المزايا وبعدها هولندا وهى قوة تجارية أخرى من الطراز الأول فى ذلك العصر . طالبت النمسا وروسيا بصفتهما من دول الجوار « بنص الدولة الأكثر رعاية » .

لم تتوقف الإمبراطورية العثمانية عن الانهيار والضعف ولم تصمد أمام مقاومة القوى الأوروبية الإمبراطورية خلال القرن التاسع عشر على مستوى التخطيط الاقتصادى كدولة استعمارية ذات قوى متعددة قابلة للاستعمار ، وتجمعت أغلب الخدمات العامة الكبرى فى أيدى الدول التى تفرض الحماية على تلك الخدمات : السكك الحديدية والموانئ والبريد ثم الغاز والكهرباء ، بل واتجه نفوذها جزئيًا إلى البنوك ، كما وجدت الامتيازات الأجنبية فى إيران وفى بعض بلدان الشرق الأقصى ، ففى الصين – وقبل مجىء النظام الشيوعى – استبدلت بنظام حق الانتفاع بالأقاليم التى منحت لبعض القوى الأوروبية مثلما حدث فى شنغهاى على سبيل المثال .

طبق هذا النظام فى كل أرجاء الإمبراطورية العثمانية وفى مصر بطبيعة الحال ، وتعارض نظام الاحتكارات الذى تبناه محمد على مع الامتيازات الأجنبية ، وفى هذا الصدد ، فإن الامتيازات التى منحت للأجانب المتواجدين فى مصر لم تكن موجودة ، ولذا لم يواجه محمد على صعوبة فى التخلص سرًا من الامتيازات الأجنبية .

موقف التجار الأوروبيين :

وعلى النقيض من ذلك ، فإن إلغاء الوضع الفعلى لهذا النظام فرض على الأوربيين الالتزام مستقبلاً بالقوانين المحلية وبصفة خاصة عليهم أن يحترموا القانون الخاص بحظر استيراد بضائع أجنبية من شأنها أن تنافس المنتجات المصرية وهو وضع لم يلق استحساناً أو تقديراً لدى التجار الأوروبيين فى الوقت الذى كانوا يشجعون محمد على على الإجراءات التى اتخذها ، ومما هو جدير بالذكر ، إن التجار الفرنسيين قد لعبوا دوراً لتهيئة حكومة الإدارة نفسياً لفكرة إرسال الحملة الفرنسية إلى مصر وشددوا على أهمية إنشاء فرنسا مستعمرة حقيقية لها فى مصر ، وقد أيّد هذا الإتجاه بشدة اللوبى المستفيد فى مارسيليا ليضمن زيادة التبادل التجارى بين فرنسا ومصر ، وقد قام هذا اللوبى ببعض العمليات فى شمال إفريقيا بعد عدة عقود من الزمن .

عرف التجار الفرنسيون شأنهم شأن زملائهم الأوروبيين أن يثبتوا ديناميكية كبيرة فى تخطيطهم ، ولذا فقد نجحوا بسرعة فى التأقلم مع القوانين الجديدة ، التى أصدرها الباشا .

وكان للطفرة التى أوجدها محمد على وعرف أن يبثها فى الحياة الاقتصادية لبلده أن حدث تزايد فى التبادل التجارى بين مصر وأوروبا وعرف التجار أن يستفيدوا من جانبهم طوعًا أوكرها بدلاً من التعلق بامتيازات لم تطبق ، وقبل التجار الأوروبيون التخلى عن الامتيازات الأجنبية ، وكانت التبادلات التجارية الأكثر أهمية لا تتم مع فرنسا أو إنجلترا أو مع النمسا ، أما العمليات التجارية الكبرى مع أوروبا فكان يقوم بها الأيطاليون أو الفرنسيون المقيمون فى الإسكندرية ؛ أما التجار من المواطنين المصريين فكانوا متخصصين فى تجارة البن ، والتجار الأتراك الكسالى يكتفون بإجراء التبادلات مع تركيا .

منتجات التصدير :

أصبح القطن فى عهد محمد على السلعة الرئيسية للتصدير ، وقد وصل حجم مبيعاته للخارج ٥٠ ٪ من الانتاج ، ويعتبر القطن المصرى مطلوباً بشدة من المصانع

البريطانية التى تقوم بدورها بإغراق مصر بالمنسوجات القطنية حيث تمثل ثلث واردات مصر ، وتترجم تلك المبادلة عملية كلاسيكية للاقتصاد الاستعمارى .

أما المنتجات الأخرى التى تصدر فهى الأرز والسكر والصمغ والقمح ، ويعتبر القمح مثالاً حيًا على الطريقة التى كان يتّبعها محمد على فى الاحتكار لمصلحته الخاصة ، إذا كانت مصر تورد كميات كبيرة من القمح لإنجلترا عن طريق مالطة . وفى عام ١٨١١ م أرادت الحكومة العثمانية أن تضغط على لندن ففرضت حظراً على صادرات مصر من القمح إليها ، وعندما أبلغ محمد على بذلك ، قرر أن يدور حول الحظر ويستغله لصالحه وواصل تصدير القمح ولكن بعد رفع السعر لتفادى المخاطر ، وثبت معدل تصدير القمح نتيجة الاحتكار ، ورغم أن الإنجليز وجدوا السعر مبالغًا فيه إلا أنهم اضطروا لقبوله حتى عام ١٨٣٠ م عندما سقط احتكار القمح بفعل القانون الذى أهمل تطبيقه ، لكن محمد على كان قد استفاد كثيراً من عمليات الاحتكار ، وهو ما دفع الإنجليز إلى المطالبة بإلغاء الاحتكار ، كما أن القانون العثمانى كان يحظر بيع المنتجات الغذائية لأوروبا وأن جميع المنتجات داخل الإمبراطورية يجب الاحتفاظ بها فى أسواق القسطنطينية ، والباشا هو الوحيد ، الذى يسمح لنفسه أن يحتال على القانون مثلما فعل فى موضوع القمح .

أما بالنسبة للفلاحين ، فلا يمكنهم بيع منتجاتهم المخصصة للتصدير إلا عن طريق الاحتكار وحسب الأسعار التى تحددها الحكومة ، لذا فإن الفلاح متوسط الحال يجد نفسه أعزل وغير قادر على الدخول فى منافسة ، وقد ساعد الاحتكار على عدم الدخول فى صراعات ، إلا أنه كان هناك تحفظ شديد من جانب المزارعين لبيعهم منتجاتهم بسعر بخس .

الاستيراد :

فيما يتعلق بالاستيراد ، كان على مصر ، كى تواكب حركة النمو ، أن تتزود من الخارج ليس فقط بأفضل المعدات والأجهزة وهو أمر طبيعى بالنسبة لدولة نامية ، وإنما أيضًا بالمواد حيث أنها لا تتوفر كثيراً فى مصر فليس لديها فحم ولا معادن ولا أخشاب .

وكان محمد على يعلم جيداً أن بلاده فقيرة فى المواد الأولية ، لذا حاول جاهداً أن يبحث عنها عبثًا فى الدول التى غزاها ، ولذا فقد منى بخيبة أمل عندما لم يجد شيئًا فى السودان لامعادن ولافحم ، ولو ظهرت أهمية البترول فى ذلك الوقت لكان قد وجّه اهتمامـه لإعطـاء الأولويـة لغـزو الدول البترولية المجاورة مثل العراق أو الإمارات أو المملكة العربية السعودية .

أهمية التجارة الخارجية :

مهما يكن من أمر ، إن التجارة الخارجية لمصر لم تكن مهملة بل كانت فى ازدياد نتيجة الإصلاحات النشيطة التى بدأها محمد على، واعتبرت ندى طوميس أنه فى عام ١٨٣٦ م كانت القيمة الإجمالية لتجارة مصر مع القارات الثلاثة (أوروبا بطبيعة الحال وأيضًا أفريقيا وآسيا) تمثل ١٣٠ مليون فرنك فى ذلك العصر الذى كان فيه عدد السكان ثلاثة ملايين نسمة ، وكانت النسبة لعدد السكان قريبة لنسبة التجارة الخارجية الفرنسية مما يعطى انطباعًا على أهمية وضع مصر عالميًا ، وهناك أرقام أخرى توضح اتساع نطاق التجارة الخارجية ففى عهد المماليك كانت العلاقات التجارية مع أوروبا تمثل ١٢ ٪ ، أما فى عام ١٨٣٠ فقد تجاوزات النسبة ٥٠ ٪ .

الأشغال العامة والنقل :

إذا كان هناك مجال من مجالات الاقتصاد أراد محمد على منذ البداية أن يطبع عليه بصماته فهو مجال الأشغال العامة . لقد تحقق بسرعة فائقة أن الدولة بدون بنية تحتية جيدة لايمكن أن يقال عنها إنها دخلت عصر الاقتصاد الحديث ، ومن غير المفيد إيجاد منتجات زراعية وصناعية إذا لم يستطع المرء إيجاد وسائل لسرعة تصريفها طازجة على الأقل وفى وقت معقول ، ومن هنا تحتم عليه إنشاء شبكة طرق بدائية وتحسين طرق الملاحة العظيمة فى النيل وفروعه فى الدلتا وتوسيع وتحسين الموانئ البحرية الموجودة والتى أهمها الإسكندرية ، ولم يمنعه ذلك من التفكير فى مستقبل

مصر بالعمل على دراسة إنشاء خطوط السكك الحديدية فى المستقبل على أيدى بريطانيين وتشجيع التقارب مع الفرنسيين لحفر قناة السويس . من ناحية أخرى ، وجد محمد على أن كميات المياه الضخمة اللازمة لوسائل الرى الجديدة تجعله يركز على السياسة الخاصة بإنشاء خزانات ضخمة على النيل وإعداد ما يلزمها من ترع وسدود ... إلخ .

وكما هو معروف فإن لينانت دى بلفوند Linant de Bellefonds المستشار الرئيسى لمحمد على فى مجال الأشغال العامة قام بمساعدة عدد كبير من الفرنسيين بدون وزير التجهيزات دون أن يحمل اللقب .

ترعة المحمودية :

ربما يكون أمراً مملاً أن نذكر مواقع جميع المشروعات التى تم تنفيذها بدافع من محمد على، وأول تلك المشروعات فى عهده : إنشاء ترعة المحمودية المتجهة للإسكندرية لتحسين الملاحة بالربط الدائم بين الميناء والمناطق الداخلية ، وقد اهتم محمد على شخصيًا وحضر لزيارة الموقع لأنه كان يقيم بصفة متكررة فى الإسكندرية التى يعتبرها عاصمته المفضلة . يبلغ طول الترعة ابتداءً من الإسكندرية حتى تصل إلى النيل ٥٦ كيلو متراً وعرضها ٣٠ متراً وبعمق من ٥ إلى ٦ أمتار لإتاحة الفرصة لمرور سفن محملة بالبضائع ، وعند نقطة التقاء الترعة بالنيل ، يتم نقل البضائع من سفينة لأخرى لتبحر فى النيل بواسطة هويس ، افتتح محمد على ترعة المحمودية على شرف السلطان محمود الذى تأثر كثيراً بهذه البادرة من محمد على والتى تعتبر نادرة من تابعه موضع الشك. بدأ العمل عام ١٨١٦ إلى ١٨١٩ م تحت إشراف المهندس الفرنسى كوست (Costes) واستخدام ٣٠٠ ألف من العمال وتم تنفيذ العمل دون استخدام أى ميكنة أو آلات بل تم الحفر باليد وقفة صغيرة ، كانت الظروف الصحية والأمنية التى تم فيها العمل مأساوية والماء ملوث بصورة خطيرة ، والإعاشة غير متوفرة ، وأصيب العمال بسوء التغذية وهلك منهم الآلاف ، تذكر فرديناند دى ليسبس فيما بعد هذه التجربة الأليمة ووضعها فى اعتباره عند تنفيذ مشروعه الضخم بحفر قناة السويس

لكن هذا الحرص لم يحل دون هلاك أعداد ضخمة من العمال . ولسوء الحظ ، امتلأت هذه الترعة بالرمال لمدة عشرين عامًا نتيجة خطأ فى التصور : إذا كان منسوب المياه منخفضًا جدًا لمدة ثلاثة أو أربعة أشهر كل عام فى فترة انخفاض مياه النيل مما يساعد على تخزين طمى النيل ، وأثار الإنجليز هذا الموضوع الشائك وأعربوا عن شماتتهم فى الباشا وفى مشروع تحت إدارة فرنسى ، وقالوا إن مشروعًا بهذه الأهمية كان لابد له من دراسة مسبقة ، وتمت الاستفادة من هذا الدرس عند حفر قناة السويس .

النقل :

ظهرت البواخر التى تسير بالبخار فى عهد محمد على ، وعلى ذلك ، فلكى يتوجه المرء من إنجلترا إلى بومباى ، لم تكن هناك مراجل قوية لتوليد البخار تساعد على الدوران حول رأس الرجاء الصالح مثل المراكب الضخمة التى تسير بالشراع ، ولذا فإن الطريق إلى الهند حدث به تعديل لتقصير المسافة ولكى يتم الوصول من إنجلترا للهند فى أربعين يومًا بدلاً من أربعة أشهر عند الدوران حول رأس الرجاء الصالح ، يبدأ هذا الطريق فى البحر الأبيض المتوسط مع توقف فى الإسكندرية حيث تنقل البضائع برًا إلى موانئ البحر الأحمر ثم تنقل ثانية على بواخر تسير بالبخار (ستيمر) (Steemers) تنقل البضائع إلى بومباى ، ينقل الفحم إلى القاهرة عبر النيل ثم إلى السويس بقوافل الجمال ، ورغم ذلك فيعتبر هذا الطريق أقصر وأسرع من رأس الرجاء الصالح ، وكان لابد من تأمين الطريق البرى لضمان السرعة فى الوصول وكان القنصل الإنجليزى بالإسكندرية يمثل فى نفس الوقت الشركة الإنجليزية بالهند ، وأنشأ بالسويس مخازن إيداع لإعادة التصدير وفندقًا للمسافرين الذين كانوا يقطعون مسافة بالصحراء فى ظروف مريحة بالنسبة لذلك العصر ، يركبون الجمال وعندما يكون الطريق ممهدًا يركبون عربات تجرها الخيول ، وفى عام ١٨٣٨ م ، صدر فرمان من محمد على إلى رجل إنجليزى يدعى واجون (waghon) بتنظيم الخدمات البريدية على محور الإسكندرية – القاهرة – السويس ووضع خدمات منتظمة لعربة نقل البريد الخاصة بالهند فى كل اتجاه ، وأصبحت مصر بذلك حلقة ذات أهمية استراتيجية

كبيرة لطريق الهند ومن هنا ظهر اهتمام الإنجليز وإصرارهم على رؤية خط السكك الحديدية الإسكندرية – القاهرة – السويس وقد تحقق .

ختام حول « النموذج الاقتصادى » لمحمد على :

كتب هنرى لوران (Henry Lourens) فى كتابه « الحملة على مصر » يقول : حاكم مصر الجديد هو قبل كل شئ مصلح عثمانى . . . الجزء الأول من عمله الداخلى (إلغاء نهائى للالتزام وتنظيم الاقتصاد على قاعدة الاحتكار فى الإنتاج الزراعى والحرف والمشاريع الكبرى) فهو فى الواقع يمثل عودة إلى ممارسات مؤسس الإمبراطورية العثمانية » .

وبالإضافة إلى ذلك شعر محمد على بأهمية فتح بلاده على نفوذ السوق الخارجى وبصفة خاصة العالم الغربى .

وما هى نتائج السياسة ؟ وهل حقق الآثار المرجوة ؟ وهل كان جهداً ضائعاً ؟ أم بدأ بالتنمية وهو واثق الخطى ؟

بالنسبة للميزانية فقد حدث توسع كبير فى الزراعة والصناعة والتجارة وأدت إلى نتائج طيبة على تحصيل الضرائب التى زادت زيادة ضخمة حتى فى حالة غياب رسوم جديدة ، واستطاع الباشا بموارده الخاصة تجهيز جيشه وبناء قطع جديدة للأسطول والشروع فى برنامج للمشروعات الضخمة ، وفى عهده لم تكن الدولة غنية لكنها لم تكن فى حاجة إلى الاقتراض ، أما الذين جاءوا بعد محمد على فكانوا على النقيض ، كان استقلالهم محدوداً جداً بسبب ديونهم للبنوك الأوروبية خاصة بسبب قناة السويس ، ومن ناحية أخرى، فإنه بسبب الاحتكارات ، فإن الاستبدادية والمركزية للباشا كان لابد منها لصبغ جولة جديدة للاقتصاد ، لكنها سرعان ما تركت آثاراً سيئة ، فقد سرّحت الفلاحين وقلّلت من دور صغار الموظفين ، كما كان رجال الصناعة التابعون للدولة غير متحمسين للوقوف بحزم ضد كسل وخمول الأيدى العاملة والتنظيم السئ للعمل ، والأداء الردئ للأجهزة والمعدات غالية الثمن والتى تم شرؤاها على عجل والتى كانت فى أغلب الأحيان غير مطابقة للعمل الذى أشتريت من أجله ، ومن جانبهم كان التجار

الأوروبيون يتعبون أحيانًا من معوقات الاحتكار التى كانت تلجم أى مبادرة يقومون بها . أدت تلك العوامل المجتمعة فى نهاية محمد على إلى هبوط الإنتاج الزراعى والصناعى وإلى انخفاض التبادل ، كانت القوة الاقتصادية لمصر فى عهد محمد على فى أقصى درجة لها فى الفترة ما بين ١٨٣٥ م و ١٨٤٠ م ، ثم بدأت فى الانحسار البطئ لأنه أقام الاقتصاد على الاحتكار ووجه لمصالحه الشخصية ، ولم تتدخل القوى العظمى فى الشئون الخارجية والداخلية من أجل مساعدته فى المجال الاقتصادى .

لماذا لم يفعل محمد على شيئًا سوى وضع مخطط لسياسة قائمة على التحرير وأيضًا تحت ضغط الأحداث ؟ مما لا شك فيه أنه دخل مرحلة الشيخوخة ولم يتصور أن التطور أصبح ضروريًا أو مرغوبًا للمحافظة على الإنتاج .

هل أراد محمد على أن يربط بلاده بالغرب عندما فرض بُنْيات على الطريقة الغربية ؟

ذكر بيتر جران (Peter Gran) مؤلف كتاب « مصر فى القرن التاسع عشر » فى الوقت الذى تسلم فيه محمد على السلطة ، لم يهتم التجار كثيراً بالدولة بل كان اهتمامهم بعلاقتهم مع المنتجين المصريين وعملائهم الأوروبيين .

وهكذا قام التجار بدورهم فى العلاقات المميزة التى كانت قائمة بين المنتجين فى الدلتا ومنطقة مارسيليا وهى المنطقة المستهلكة لمنتجاتهم ، ولم تلق مركزية الاقتصاد التى أرادها محمد على قبولاً لدى أوساط رجال الأعمال .

وفى مجال التجارة الخارجية فإن محمد على كان مضطراً لتبنى نموذج غربى بدلاً من اقتصاد دولة نامية ، لكنه لم يستمر طويلاً فى هذا الاتجاه وفى الختام يقدم المؤلف هذا الرأى المختصر لمارسو (Marsot) « ظهرت فى عهد محمد على دولة حديثة تحتاج إلى قدر كبير لسيطرة الشعب والموارد وكان هذا فى البداية لمصلحة طبقة صغيرة ثم لقطاع أكبر من الشعب » ، وعلى أى الأحوال فإن محاولات التقدم والتنمية التى قام بها محمد على لم تكن حبراً على ورق لكنها أدت إلى تطور بطىء لكنه متشابك ويسير فى اتجاه واحد .

الفصل الثامن

تكوين إمبراطورية المرحلة الثانية ١٨٢٧ - ١٨٣٩ م

على الصعيد الخارجي خاب ظن محمد على للنتيجة السيئة لحملته على اليونان ، كما أن السلطان لم يسلم برغبته الجارفة في الحصول على حكم سوريا . نحن الآن في نهاية عام ١٨٢٧ م وبداية عام ١٨٢٨ م ، وفي مصر ، فإن النظرة الواقعية لدى محمد على جعلته يشعر بالمرارة ، لكنه قرر أن يتخذ خطًا مكيافيليًا ، وأن يتبنى - حسب الظروف التي تظهر - موقفين متعارضين تمامًا : أن يستمر في مساندة السلطان وفي نفس الوقت يقاومه ، فالهدف الوحيد أمام الباشا محمد على هو تشجيع وتأييد مشروعاته الخاصة وكل سياسته تدور حول هذا المحور وهي قبل كل شئ في خدمة مصالح محمد على نفسه ، وضع ميزانية ضخمة لوزرائه والمقربين منه للحملة اليونانية : وهو مقتنع تمامًا بأن منافسه محمود الثاني خرج من هذه المعركة أكثر ضعفًا ، أما مصر فقد خسرت أسطولاً سئ التجهيز ومعمل وهي فرصة لإعادة إنشاء أسطول جديد على أسس حديثة . أما الجيش فهو سليم وكامل .

التقارب الفرنسي المصري :

يمتلك محمد على القدرة والمهارة العظيمة في إمكانية إعادة الأمور إلى نصابها لصالحه ، فسلوكه مع فرنسا في ذلك الوقت ملىء بالذكاء والدهاء ، فقد تظاهر الباشا بأنه نسى بأن مجموعة من سفن الأسطول الفرنسي بالتواطؤ مع مجموعة أخرى من الأسطول البريطاني قاموا بتدمير الأسطول المصري في نوارين وبأن فيلقًا فرنسيًا طرد العثمانيين المتحالفين مع المصريين من المورة ، فهو لا يحمل ضغينة للفرنسيين بل

ويعتبرهم دائمًا كحلفائه الطبيعيين ، بل كأصدقائه ، وكانت الصداقة عمومًا متبادلة بين الجانبين ، فكانت حكومة الإصلاح ترى في محمد على صديقًا تقليديًا ، وأن موضوع اليونان لا يستدعى تعكير صفو العلاقات الطيبة التى بدأت منذ مجىء نابليون : وتم الاتفاق على ألا يحكم لأحد من الخصمين : الأتراك الذين جرّوا المصريين وورّطوهم فى هذا المأزق ، والإنجليز ، الذين حرّضوا الفرنسيين بمكر على القتال معهم ، ألم يصدر الأمر بإطلاق النيران فى نوارين من القائد الإنجليزى كودرينجتون Codrington ؟

ويتذكر شاتوبريان Chateaubriand وزير الخارجية الفرنسى رحلته التى قام بها إلى مصر عام ١٨٠٦ م وساهم بفصاحته المشهورة عنه بإحياء جو الصداقة .

وسوف يجد التعاون المصرى – الفرنسى مجالاً بطريقة غير متوقعة فى الجزائر بالغرب بينما تتجه أنظار محمد على حتى ذلك الوقت ناحية الشرق .

مسألة الجزائر (١٨٢٧ – ١٨٣٠ م)

أصل المشكلة :

كانت الجزائر مثل مصر تشكل جزءًا لا يتجزأ من الإمبراطورية العثمانية ، ويحكمها داى Dey يقيم فى مدينة الجزائر ويتبع السلطان بالقسطنطينية بنفس الطريقة التى كان عليها باشا مصر ، إلا أن روابط التبعية ضعيفة نظرًا لبعد المسافة بين الجزائر واستامبول .

اتهمت فرنسا الجزائر منذ فترة بأنها تأوى الكورسيكيين الذين لا يترددون فى الاعتداء على البواخر الفرنسية فى عرض البحر الأبيض المتوسط ، وفى إبريل عام ١٨٢٧ م كلف قنصل فرنسا دوفال Duval من قبل حكومته بتقديم مذكرة إلى الداى Day حاكم الجزائر للعمل على وقف هجوم القراصنة وإنهاء الحرب التى يقوم بها الكورسيكيون فى البحر المتوسط ، لكن الداى حمل الأمر محمل السوء وضرب القنصل بمضرب الذباب . . إهانه دبلوماسية خطيرة على فرنسا أن تمحوها ، فأرسل شارل العاشر ملك فرنسا الفرقاطة لابروفانس Provence La حاملة اقتراحات للسلام تمهيدًا

لبدء محـــادثات ، فاستقبلت الفرقـــاطة بوابـــل من نيران المدفعيـــة المتواجدة فى ميناء الجزائر .

الخطة المصرية :

بحثت فرنسا عن فرصة لإصلاح هذه الإهانة الجديدة ، أعد القنصل دروفيتى Drovetti خطة عمل جريئة ضد النظام فى الجزائر عرضها أولا على محمد على ثم على الحكومة الفرنسية ، تتلخص الفكرة فى الشروع فى غزو سريع للجزائر بالجيش المصرى تحت قيادة إبراهيم باشا ، وتوقعت الخطة غزو طرابلس الغرب وتونس فى الطريق إلى الجزائر ، وهما خاضعتان أيضًا للحكومة العثمانية ، وبذا تستولى مصر على ثلاث دول يتحكم فيها أوصياء للعرض من البربر : طرابلس وتونس والجزائر ، لم يجد دروفيتى صعوبة فى إقناع محمد على بوجهة نظره ومن الفائدة التى تعود على مصر من وراء هذه العملية ، ومن فرنسا اتخذ موقف حاسم ومؤيد للخطة : وطلب من الأسطول الفرنسى تأكيد الحماية البحرية للحملة المصرية الخاصة ضد البحرية الإنجليزية ، وبفضل محمد على الذى سيصبح حليفًا لفرنسا ، تتمكن من الانتقام من الداى ومن استعادة هيبتها من الإهانات التى لحقت بها ، وكثمن لهذه العملية طلب محمد على مبلغ ٢٧ مليون فرنك بعملة ذلك العصر وتقديم أربع سفن هدية لمصر . بهذه الخطة تضرب الجزائر ضربة قاضية ويصبح محمد على حاكمًا على الجزائر ويحل محل الداى ولن يجد السلطان إلا أن يهنئ نفسه بأن مصر وحاكمها المخلص له حق الإطلاع على مشاكل الجزائر ويساهم فى زيادة الروابط والتقارب بين الجزائر والقسطنطينية .

أعرب مجلس الوزراء الفرنسى فى البداية عن ذعره لتلك الاقتراحات ، ولكن عندما وصل الأمير بولينيال Polignac إلى منصب رئيس الوزراء ووزير الخارجية عام ١٨٢٨ م جذبت تلك الفكرة انتباهه ، وأرسل مندوبًا لدى محمد على وطلب من سفيره فى تركيا جس نبض الباب العالى ، استشعرت إنجلترا حدوث شئ ما عن طريق جواسيسها ، وبطبيعة الحال عملت على إفشاله ، فتدخلت لدى السلطان الذى أعلن معارضته التامة لحملة مصرية ضد بلاد البربر فى شمال إفريقيا بموافقة فرنسا ، وفى باريس نفسها ،

رأى البعض أنها وسيلة للانتقال من وقاحة الداى حاكم الجزائر وبتكاليف قليلة ، أما البعض الآخر ، فقد أعرب عن تحفظه لفكرة تسليم سفن حربية من الأسطول الملكى لعاهل أجنبى واعتبر أن فرنسا هى التى تتدخل بوسائلها الخاصة لأن المبدأ الخاص بتجهيز حملة فرنسية لمعاقبة الجزائر قد اتفق عليه ، وأخذ رأى القوى العظمى الأخرى ، ولم تبد إنجلترا موافقة صريحة ولكن وعلى غير ما كان متوقعًا ، قبلت أن تغمض عينيها ، وسلكت كل من النمسا وروسيا وبروسيا نفس الموقف ، واقترحت فرنسا على محمد على أن تتولى هى بنفسها غزو الجزائر وتركه يصفى حساباته مع طرابلس وتونس ووافقت على مساندته بالأسطول وتقديم قرض مقداره ٨ ملايين فرنك .

رفض محمد على ذلك واعتبر أن العملية لابد أن تتم فى إطار طابع إسلامى وأنه لا يمكن أن يجازف بعمل مكشوف بهذه الطريقة ويشترك مع دولة مسيحية ضد دولة مسلمة ، وجدت فرنسا نفسها حرة فى الشروع بحملة ضد الجزائر ، أما الباب العالى ، فبسلبيته المعتادة ترك فرنسا تفعل ما تشاء ، شعر محمد على بالغضب الشديد لعدم تبنى خطته وتنبأ بأن فرنسا لن تستمر طويلاً فى الجزائر بسبب معارضة إنجلترا التى لم تقبل إطلاقًا أن ترى الجزائر وقد أصبحت مستعمرة فرنسية وتقوية تواجد عدوها التقليدى فى غربى البحر الأبيض المتوسط .

وإذا كان محمد على قد خدع فى تلكل المسألة ، فإنه أخذ يهنئ نفسه بعدم تورطه فى غزو الجزائر لأن ذلك كان سيعود عليه بمشاكل ضخمة من جانب السلطان ومن القوى العظمى الأوروبية ، أما بالنسبة للعالم الإسلامى ، فلم يكن يغفر له وقوفه بجانب دولة مسيحية مثل فرنسا .

نتائج مشكلة الجزائر :

اقتنع محمدعلى بأن الجزائر بعيدة عن قواعده وأنه من المنطق ترحيل جهوده من جديد ناحية الشرق وبالذات تجاه سوريا القريبة جداً من مصر ، نتيجة أخرى خرج بها محمد على من موضوع الجزائر وهى زيادة شكوكه وعدم ثقته فى إنجلترا ، وقد صرّح قائلاً : « إن إنجلترا دولة قوية وتوقعت منذ فترة طويلة أنه لا يمكننى الشروع فى عمل

أى شئ على جانب من الأهمية بدون موافقتها ، وفى أى جهة أتوجّه إليها أجدها هناك لإفشال ما أقوم به » ، وتلك هى الخلاصة التى استنبطها قنصل إنجلترا الجديد فى مصر باركر Barker عندما قال وهو يهنئ نفسه أن الباشا يحتفظ بالصداقة مع فرنسا وفى نفس الوقت يشعر بالخوف والرهبة من الإنجليز .

تم تغيير السفير الفرنسى دروفيتى الذى كان له تأثير كبير على محمد على حيث مدّ يد العون كثيراً لهذا الجنرال محدود الخبرة والمعرفة الذى حضر مع الجيش التركى ووجد نفسه يرتفع لأعلى المناصب على المستوى العالمى ويطّلع على خفايا الدبلوماسية الغربية ، حل محل دروفيتى شخص أكثر علماً وأكثر ذكاءً لكن ليست لديه روح المغامرة والإقدام وهو ميمو Mimaut ، ومارس عمله كدبلوماسى وليس كمستشار لمحمد على ، وآخر عمل قام به دروفيتى فى مصر هو المبادرة الخاصة بموضوع الجزائر مع الحكومة الفرنسية ومحمد على ، وبسبب تراجع محمد على عن هذا المخطط وتفضيله الاتجاه نحو الشرق ، قررت فرنسا إرسال حملة للجزائر عام ١٨٣٠ م وقدمها بولينياك Polignac كمتابعة لحملة نابليون على مصر الهدف منها مقاومة القرصنة لضمان حرية التجارة وزيادة الإنتاج ونشر المدنية وحرية التنقل بين جميع الدول على شاطئ البحر الأبيض المتوسط ، ومن بين المحتمل أن يكون نابليون فكر فى غزو الجزائر عام ١٨٠٨م ، ولمعاودة أحلام نابليون ، تم إرسال الكولونيل الشهير بوتان Boutin إلى هناك لاستطلاع الموقف .

تمنى المارشال مارمون Marmont أن يتولى قيادة العملية ولكن رشح الجنرال بورمون Bourmont ، وكما أعلن نابليون قبله فى القاهرة قام هو الآخر بأن أعلن أمام السكان الجزائريين احترامه للدين الإسلامى ، وقد لفت النظر بشدة إلى وجوب التزام آداب المناقشة أو الكلام حسب أوامر شارل العاشر الذى أعطى تعليمات لفيلق الحملة بزن يقدم نفسه على أنه المدافع والحامى للديانة الكاثوليكية ، وأن يقوم بتحويل المساجد إلى كنائس ، وهو مسلك اتسم بالغباء ومخالف تماماً لموقف الجيش الجمهورى فى مصر عام ١٧٩٨ م ، وقد التحق بالجيش الفرنسى بالجزائر عدد كبير من قدامى المحاربين الذين كانوا فى مصر .

الحملة على سوريا

مقدمة منطقية :

تقع سوريا على الحدود الشرقية لمصر وهى جزء من الإمبراطورية العثمانية ، وعلى مر التاريخ ، حرص حكام مصر دائمًا على السيطرة على سوريا من أيام الفراعنة والرومان ومماليك القرن الحادى عشر بالإضافة إلى نابليون بونابرت ، وكانت نفس التطلعات والأهداف لدى جمال عبد الناصر ، أما بالنسبة لمحمد على فيضاف إلى هذه التطلعات أهداف أخرى شخصية . الهدف الأول حقده على السلطان الذى لم يمنحه سوريا كمكافأة له على أثر تدخله فى اليونان ، الهدف الثانى : اعتبر محمد على أن هدفه من حملته على سوريا ذو طابع دينى ، ومن أين جاءته هذه الفكرة ؟ ولماذا يظهر نفسه الآن كأفضل إنسان مسئول عن حماية الأراضى الإسلامية وتكاملها فى مواجهة السلطان خليفة المسلمين ؟ لا شئ فى الواقع يبرر هذا المسلك المتغطرس إلا إذا كانت سلطة وزعامة السلطان أصبحت موضع نزاع داخل العالم الإسلامى ، وفى هذا الصدد ، فإن امتلاك سوريا هو الورقة الرابحة ، ففى عهد الخلفاء الأمويين فى القرنين السابع والثامن بدأ التوسع الضخم للعالم الإسلامى من دمشق وعبروا شمال إفريقيا وتوجهوا إلى أسبانيا قبل أن تتوقف عام ٧٢٣ م عند مدينة بواتييه بفرنسا على يد شارل مارتل .

استمر محمد على فى التمسك بأفكاره فله خلفية ومرجع لزعامة العالم الإسلامى حيث أنه أنقذ مكة من العدوان الوهابى فى الحجاز ووضع على رأس المدينة رجلاً من أتباعه هو الشريف يحيى ، وواصل الباشا افتراضاته المكيافيلية النفعيةمردداً أن السلطان ليس من الأشراف أى ليس من نسل النبى محمد ولايحق له أن يكون خليفة ، كان محمد على معنيًا بدرجة كبيرة فى أن يدعى لنفسه الحق فى هذا الموضوع ويعلم تمامًا أن أصله متواضع ، وفى المقابل ، اكتشف أن يحيى شريف مكة هو من نسل النبى محمد ، فلماذا لايصبح يحيى خليفة المسلمين ؟ مما يتيح لمحمد على أن يناور على راحته .

غير أن أعداء محمد على العديدين فى قصر السلطان بالقسطنطينية بادروا بمساندة الأفكار المعاكسة وعارضوا موقف محمد على من هجومه على السلطان ، ولكن محمد على حصر الخلافات والمعارضات للإسلام وأن الذين يعارضون هم القوى الأوروبية المسيحية التى تساند المسيحية ضد الإسلام ، ولذا آثر محمد على جانب الصواب والحكمة وكتم طموحاته الدينية ، يعلم محمد على جيداً أنه إذا رغب فى غزو سوريا فإنه سيواجه عداءً مستحكمًا من الباب العالى وأنه سيقف له بالمرصاد على الرغم من حالة الضعف الأسطورية التى يمر بها ، كما ينبغى عليه أنه يتأكد من الحياد النسبى للقوى العظمى ، وبعد موقعة نوارين ذات النتائج السيئة والتى تمسك بالحكمة فى عدم إظهار مرارته وألمه ، فإن العلاقات مع فرنسا أصبحت من جديد على ما يرام ، ولم يرد محمد على أن يتورط بصورة غير مباشرة فى الجزائر حتى لا تحدث له خسائر من جانب تركيا وإنجلترا ، ذلك أن إنجلترا متحفظة تقليدياً باتجاه محمد على لأنه صديق لفرنسا وينظر إليها بعين الريبة إزاء توسعاتها تجاه البحر الأحمر ، كما أن إنجلترا لاتتمنى رؤية الإمبراطورية العثمانية فى حالة ضعف من جراء ضربات عنيفة من جانب أحد الولاة التابعين للإمبراطورية ، وإزاء التطلعات الروسية نحو شرق البحر الأبيض المتوسط ، فإن لندن ترغب فى الإبقاء على سلطة مركزية متماسكة فى استامبول ؛ وموقف الحكومة الفرنسية مشابه لموقف إنجلترا فى هذا الصدد .

كما أن فرنسا لها مصالح أخرى تدافع عنها فى سوريا : فهى تتمتع منذ الاتفاق الذى وُقِّع بين فرانسوا الأول وسليمان القانونى بحق حماية الكاثوليك اللاتينيين المقيمين فى الإمبراطورية ، وبالتدريج ، امتدت تلك الحماية إلى جميع المسيحيين العثمانيين فى الجزء الشرقى من الإمبراطورية ، أى فى سوريا التى كانت فى ذلك الوقت تضم لبنان ، وكانت الإرساليات التبشيرية الكاثوليكية الفرنسية نشيطة جداً والأقلية المسيحية خاصة المارونيين فى حالة اضطراب ، وعاشوا فترات من الرعب على أثر المؤامرات والدسائس التى دبرها المناهضون للدين أتباع الثورة الفرنسية ، ولكن سرعان ما اطمأن المسيحيون المقيمون فى سوريا ولبنان بعد عودة الملكية والسلطة الكاثوليكية إلى فرنسا ، ولذا فإن حكومة لويس - فيليب عارضت بشدة عام ١٨٣٠ م فكرة إقامة سلطة مركزية قوية فى دمشق وبيروت تخضع لطاعة المسلمين وتحت سيطرة المندفع

والمتحمس محمد على مهما كانت متانة العلاقات معه ، لكن محمد على لديه تحليل واضح للموقف ويدرك أن عليه أن يتصرف بحذر وأن ينتظر اللحظة المناسبة .

وعلى ذلك ، ظهرت ذريعة للتدخل عندما ظهر فى اصورة عبد الله باشا حاكم عكا الذى تبنى موقفًا عدائيًا من نظام محمد على منذ مدة ، فقد تلقى بفرحة كبيرة خبر تدمير الجيش المصرى كما رفض إرجاع الفلاحين المصريين الذين هربوا من مصر إلى الشام تخلّصا من الضرائب وفرّوا من الخدمة العسكرية ، أعرب الباب العالى عن سعادته البالغة فى أن يرى عبد الله باشا وقد أصبح منافسًا عنيدًا لمحمد على ، وسانده فى نزاعه مع محمد على وعرض وساطه فى الصراع القائم بينهما لكنه فشل .

شعر محمد على بأنه جرح فى كبريائه من التصرفات السيئة والألفاظ البذيئة فبدأ يسرع فى الاستعدادات العسكرية ضده ولم يخف نيته فى القضاء عليه ، وبعد تجديد ترسانة الإسكندرية بإشراف المهندس سيريزى Cerlsy ، تم تشكيل أسطولاً قويًا وأعيد تنظيم القوات البحرية .

أصبح الأسطول جاهزًا للتحرك نحو سوريا عندما ظهر فجأة وباء الكوليرا الذى انتشر من الحجاج القادمين من مكة وعم أرجاء مصر عام ١٨٣١ م ، وهلك أكثر من مائة وعشرين ألفا من المصريين فى شهر أغسطس وحده ، ومن بين الثمانية آلاف جندى بحرى مات حوالى ٧٠٠ منهم .

الحرب السورية :

عين إبراهيم باشا قائدًا عامًا للحملة فى نوفمبر عام ١٨٣١ م حيث استطاع أخيرًا التحرك من الإسكندرية على ظهر سفينة قيادة ، وكان يساعده دائمًا سليمان باشا مستشاره العسكرى ، كما غادرت القوات البرية القاهرة فى ١٥ أكتوبر بقوة قوامها ١٥ ألف من المشاه وخمسة آلاف من الفرسان ، قام الأسطول المصرى بحركة التفاف حول يافا قبل أن يكون لدى قبطان باشا القائد التركى الوقت كى يتصرف ، ولا يملك عبد الله باشا أى سفينة حربية وبذا أصبحت السيادة البحرية لمصر ، تمركز

الأسطول فى حيفا على بعد عدة كيلو مترات من عكا وتم إنزال فيلقًا من ستة آلاف رجل والتحموا مع القوات البرية التى استولت على غزة .

حاصر إبراهيم باشا قلعة عكا وتحدى الرأى الذى نادى به الخبراء العسكريون الأوروبيون باستحالة انتصار المصريين فى عكا لأن نابليون فشل فى اقتحام تلك القلعة قبله منذ ٢٢ عامًا ، لكن إبراهيم قام بحركة كماشة حول القلعة الشهيرة وأخذ يهاجمها من البر والبحر ، وكان يعرف أن سر فشل نابليون يكمن فى عدم وجود أسطول فرنسى الذى كان قد دُمّر على يد نيلسون فى أبى قير ، لم تكن العملية سهلة كما كان متوقعًا ، وبدأ محمد على يشعر بالقلق وهو فى قصره بالإسكندرية لأنه يعرف جيدًا أن عدوانًا من هذا النوع ضد بلد مجاور لابد أن يتم بنجاح وفى فترة قصيرة وأن تتم بسرعة البرق وتخلق أمرًا واقعًا يفرض على الرأى العام الدولى الذى يحسب حسابه فى ذلك العصر ، ولذا فقد قرّر محمد على إعادة أسطوله إلى الإسكندرية فى يناير ١٨٣٢ م مع تدعيم الحصار والبدء بحملة برية ، ومع ذلك فقد فوجئ الباب العالى بالمقاومة الشديدة من جانب عبد الله باشا وشدد من لهجته مع محمد على وأنذره بأن يضع حدًا لعدوانه ، ولكن الرد كان سريعًا وحاسمًا فى ذهن محمد على الذى يتميز بالدهاء الشديد إذ أكد للسلطان أنه بمجرد دخوله عكا فسيعيد مفاتيح القلعة إلى سيده السلطان وأن هدفه الوحيد هو عزل عبد الله لأن تصرفاته السيئة تجاهه تستحق عقابًا صارمًا .

التدخل العثمانى :

إلا أن هذه الإجابة لم تقنع السلطان محمود الثانى ولم يُخدع ، وتذكر الباب العالى أن لديه جيشًا وقوات بحرية فجهّز فيلقًا للتوجه لملاقاة القوات المصرية فى سوريا ، وتولى قيادة القوات التركية عثمان باشا واختيرت حلب كقاعدة للعمليات بينما صدرت الأوامر للأسطول التركى بالتحرك باتجاه مصر .

تأكد إبراهيم باشا ذو المهارة العسكرية الممتازة أنه يجب أن يأخذ الفيلق التركى على حين غرة وبأسرع ما يمكن ويعمل على ملاقاته وبدأ فورًا حملة خاطفة ، وضع

محمد على وابنه إبراهيم فى اعتبارهما أن المقصود هذه المرة هو السلطان نفسه الذى سوف يهاجمونه ولابد من اتخاذ عنصر المفاجأة سواء داخل الإمبراطورية أو خارجها فى مواجهة القوى العظمى ، استولى الجيش المصرى على طرابلس بلبنان يوم ١٨ إبريل ١٨٣٢ م ثم توغل للداخل بإتجاه حمص فى وسط سوريا الحالية واشتبك مع القوات العثمانية وحقق نصراً حاسماً عليهاوأبعد الخطر عن هذه الجهة وعاد إبراهيم إلى عكا ، والواقع أن النصر يجلب النصر ، فقد أسرع الأمير بشير أمير الدروز والموارنة على رأس جيش قوامه ١٥ ألف رجل لمساندة المريين ، وتم الاستيلاء على القلعة واقتحامها فى مايو ١٨٣٢ م ، شعر الباب العالى بالمهانة لهزيمة جيشه وقائده عثمان باشا ، عندئذ فكّر فى تحجيم محمدعلى بل وعزله من حكم مصر ، إذ أن الإمبراطورية العثمانية كانت تتبع تقليداً غريباً ، تقوم إدارة الخدمات التابعة لرئيس الوزراء بطبع قائمة بالولاة حكام الأقاليم التابعة للإمبراطورية ، وطبعت القائمة فى ٧ مارس ١٨٣٢ م وتركت خانة مصر وكريت بيضاء لم يكتب فيها أحد ، اعتبر ذلك تحذير واضح لمحمد على الذى لم يفهم إلا نصف الرسالة أو على الأقل تظاهر بأنه لم يفهمها .

اقتنع محمد على أنه بعد هزيمة عثمان باشا فسوف يضطر السلطان مراعاته ووضع نفسه فى موضع المنافس للسلطان وبدأ يتصرف بفظاظة واستخفاف ، وفى ٢٣ إبريل ١٨٣٢ م صدر فرمان بخلع محمد على وتعيين شخص يدعى حسين باشا ، أثبتت هذه الإجراءات عدم جدواها ولم يعقبها أى أثر فهل كانت فى ذهن السلطان محمود الثانى مجرد تهديد لمحمد على لإشعاره بأنه مجرد موظف لدى السلطان ، وإن منصبه مؤقت وغير دائم ، وإنه تحت رحمة قرار من السلطان ؟ ولم يهتم محمد على بموضوع العزل ولم يأخذه مأخذ الجد واستمر ابنه إبراهيم فى الحرب الخاطفة فاستولى على دمشق ثم حمص وحلب وتابع مسيرته نحو الشمال فى اتجاه تركيا والتقى بالفيلق التركى بقيادة حسين عند جبال طوروس وهزمه عند بيلان Beilan فى ٢٩ يولية ، وتقهقر العثمانيون فى اتجاه أضنه Adana ولكن إبراهيم باشا استخدم حق الملاحقة فزحفت جيوشه داخل الأناضول بتركيا وواصلت القوات الزحف ووصلت إلى مدينة قونية Konya ، ومن هناك هدد القسطنطينية والبوسفور .

تدخل القوى العظمى :

فى هذه المرة ، فاض الكيل ، فإبراهيم بنجاحه المتوالى والصاعق قد أظهر التفوق الساحق للجيش المصرى على الجيش العثمانى ، وأرتعدت فرائص الحكومة الإمبراطورية على قواعدها ، والشعوب الخاضعة الذليلة للسلطان منذ عدة قرون بدأ الأمل يجرى فى عروقها وتصلى من أجل انتصار محمد على ، وفى نفس الوقت بدأت الحكومات الأوروبية تستيقظ وتشعر بصدمة بأن انتصارات هذا المتآمر فى عيوب البعض أو هذا المغتصب فى عيون الآخرين ، يعرض البنية الأساسية للإمبراطورية العثمانية للهلاك وفى نفس الوقت ينهى التوازن الهش الذى يسود فى أوروبا .

ومنذ عام ١٨٣٠ م قام بالمرستون وزير خارجية بريطانيا وميترنيخ Metternich مستشار النمسا القوى وبروسيا والقيصر والعالم الغربى بأجمعه باتخاذ موقف موحد ضد التضليل والدجل ، ونادى كل منهم بحقه فى اقتسام غنائم الامبراطورية العثمانية ، وحتى بروسيا التى صعدت مؤخراً إلى مصاف القوى العظمى والتى ليس لها علاقة مباشرة بمشكلة الشرق خشيت من أن النمسا المجاورة للحدود التركية الأوروبية تأخذ نصيب الأسد ، فقد قوى وضع فيينا فى وسط أوروبا وأصبح يغطى على برلين ، ولم تعد إنجلترا تثق فى فرنسا وفضلت التفاهم مع النمسا وتضغط على محمد على حتى يقبل أن ينتظم مع الباب العالى .

تدخلت فرنسا من جانبها ونصحت محمد على بالاعتدال ، والذى تخيل لفترة أنه يسيطر على حكومة الإمبراطورية دون أن يدعى لنفسه إمكانه أن يحل محل السلطان ، وأخيراً وافق محمد على على شروط السلطان محمود الثانى للسلام : منحه سوريا بالإضافة إلى مدينة أضنة الواقعة داخل الحدود التركية والتى تمثل قيمة رمزية لمحمد على هذا بالإضافة إلى أن أقليم أضنه غنى بالغابات والأخشاب اللازمة للأسطول المصرى ، فدائمًا يربط محمد على الواقع الاقتصادى بالاعتبارات السياسية . وقد أرسل السلطان مبعوثًا رفيع المستوى إلى محمد على هو حبيب باشا حيث قدم اقتراحًا لمحمد على بضم عكا وطرابلس والقدس ونابلس إليه كخطوة أولى .

اقتنع محمد على بمفاوضاته مع الباب العالى وخشى من رد فعل القوى العظمى ضده فأرسل لابنه إبراهيم يأمره بوقف تقدمه ، إلا أنه لم يستمع لنصائح والده مدعياً أن رجاله يسرعون الخطى من أجل إنها الحملة ، أما فى واقع الأمر فكانت رواتب الجنود المصريين ضئيلة وملابسهم رثة ولا تتحمل برد الشتاء القارص فى الأناضول حيث لم يتعوّدوا على هذا الجو ، وهبطت روحهم المعنوية رغم انتصاراتهم ولكى يرفع القائد العام من معنوياتهم لمحّ لهم باقتناص الفرصة غير العادية بالسلب والنهب فى مدينة استامبول ، فليس هناك مجال من حرمانهم من شئ أو إحباطهم ، وفى يوم ٢١ ديسمبر ودون انتظار قام القائد العام بمهاجمة الأتراك فى قونية وهزموهم شر هزيمة وأسر رئيس الوزراء رشيد باشا الذى كان يتولى بنفسه قيادة الجيش التركى .

وعندما علم السلطان بالهزيمة الساحقة لجيشه ، شعر بالخوف والذعر من رؤية الجيش المصرى وقد دخل عاصمته ، فاتجه إلى أقرب جار له وهو القيصر نيقولا الأول الذى شعر هو الآخر بالقلق من محمد على المسبب للقلاقل ، وخشى من أن يهاجم القسطنطينية وأن يسيطر على المضايق (الدردنيل والبوسفور) . وللوهلة الأولى ، ثارت لديهم الهواجس بأن روسيا ستتدخل بقوة فى شرقى البحر المتوسط بل وفى البلقان وتركيا بحجة الدفاع عن حليفها الجديد .

قامت فرنسا وإنجلترا بالضغط مرة أخرى على محمد على ليطلب من ابنه إبراهيم بالتوقف عن مسيرته الحربية ، وجد القائد العام وهو فى كوتاهية أنه على مسيرة ستة أيام فقط للوصول إلى البوسفور . وهذه المرة ، وبكل الحزن والأسف الذى كان بداخله امتثل لأوامر والده ، وكان مقتنعًا أنه بمجرد وصوله إلى استامبول ، فإن الصدمة النفسية التى ستتولد لدى الرأى العام الإسلامى ستمكنه من عزل السلطان محمود الثانى ، ونجح إبراهيم باشا فى اقناع الأئمة بأنه إذا كان والده يرغب فى عزل السلطان محمود الثانى فلن يكون ذلك طمعًا فى عرشه ولكن على النقيض من ذلك لكى يحل محله الصغير عبد المجيد حتى يمكنه هو ووالده من المناورة بسهولة . بدأ إبراهيم باشا يهتم بالسياسة وحاول أن يستغل فى لعبته رئيس الوزراء رشيد باشا الذى كان أسيراً لديه ، فقد قرر أن يصطحبه إلى القسطنطينية وبطبيعة الحال دون أن يعطى السلطان خبراً بذلك .

نهاية تدخل القوى العظمى - اتفاقية كوتاهية :

✍ وصل سفير جديد لفرنسا إلى القسطنطينية فى ١٤ فبراير ١٨٣٣ م ، وهو الأميرال روسان Roussin ، ولم يكن قد اكتسب فن الدبلوماسية بعد فكان يتصرف كرجل عسكرى أكثر منه كمفاوض ، وأعلن لوزير الخارجية التركى بصورة ارتجالية أنه إذا وصل الروس إلى استامبول فيؤدى ذلك إلى عواقب وخيمة بالنسبة لممتلكات الإمبراطورية العثمانية فى أوروبا وطلب من السلطان أن يوقف تقدم الأسطول الروسى وأن يقدم مقترحات جديدة للسلام إلى محمد على ، وعلى الرغم من هذا التحذير ، ففى ٢٠ فبراير ١٨٣٣ م ، شوهد الأسطول الروسى فاستشاط الأميرال - السفير غضباً وهدد بالعودة إلى فرنسا إذا لم ينسحب الروس ، فأعطى السلطان موافقته بانسحاب الروس بشرط أن تلتزم فرنسا بأن تضمن تسليم عروض السلام التى قدمها حبيب باشا إلى محمد على ، فوافق السفير الفرنسى على ذلك تلك الشروط إلى محمد على .

رفض محمد على بأدب ولكن بحزم مطالب السفير الفرنسى ، إلا أنه تجاوز حدود تعليماته ونجح فى إهانة محمد على والتى تعتبر فى الشرق غلطة لاتغتفر ، ومن حسن حظ السفير - الأميرال البحرى أن الأسطول الروسى لم يلتزم بتعليمات السلطان واستقر فى البوسفور مما أتاح الفرصة للسفير الفرنسى بعدم الارتباط بالتعهد الذى قطعه على نفسه . ومنذ ذلك الوقت بدأ يكرس نفسه للدفاع عن الاقتراحات السلمية لمحمد على وظهر فى ثنايا حديثه الخبث والإضرار الذى يحاول إخفاءه . وعندما علم وزير الخارجية الفرنسى بالتصرفات الحمقاء للسفير الفرنسى أرسل البارون دى بوالكوت إلى الإسكندرية فى إبريل ١٨٣٣ م ونجح فى خلق جو من الثقة مع محمد على .

وبقيت حكومة سوريا وأضنه معلقه ، وأحيط السفير البريطانى فى القسطنطينية اللورد بونسوينى Ponsonby علماً بأن زميله سفير فرنسا يصر على تلبية مطالب محمد على ، وأثناء ذلك تأكد السلطان محمود الثانى أن وصول روس مسيحيين أرثوذكسى إلى القسطنطينية له وقع سئ جداً على السكان المسلمين ، فأسرع بعقد اتفاقية صلح كوتاهية مع محمد على فى ٥ مايو ١٨٣٣ م وانسحب الأسطول الروسى ، ونصت

الاتفاقية التى ضمنتها القوى العظمى منح محمد على حكومة سوريا وتعيين إبراهيم باشا حاكماً على أضنه ، وعندما أعلن باغوص وزير الخارجية المصرى النبأ لمحمد على ، كان القنصل البريطانى كامبل حاضراً عند محمد على : فذكر أن محمد على عندما سمع النبأ قفز واقفاً وعيناه مغرورقتان بدموع الفرح وبدأ يطلق ضحكات هيستيرية .

ومنذ ذلك الحين ، شعر الباشا بالسعادة لحصوله على حكم لصالحه وأمر ابنه بالعودة هو وجيشه من طوروس وأن يستقر فى الإدارة السورية .

معاهدة خنكار أسكلة سى:

إذا كان محمد على قد حصل على كل مكاسبه أينما حل ، فإن السلطان محمود الثانى يشعر بالمرارة لأنه ذاق طعم الهزيمة على يد المصريين كما تعرض للمهانة والإذلال من جانب القوى العظمى لتدخلهم المستمر فى شئونه ، واعتبر أن باريس ولندن بصفة خاصة قد غيرتا من موقفهما تجاهه والذى يتعارض مع كرامته ، أما روسيا فقد وقفت بجانبه وهى جارته المباشرة بينما إنجلترا وفرنسا تتواجد فقط بأساطيلهما وبالدبلوماسيين ، ولذلك عندما وصل الكونت أورلوف Orlov المبعوث الخاص للقيصر يقترح عليه مساندة القيصر لم يتردد السلطان وقبل بارتياح ووعد بدراسة شروط المعاهدة . وبسرعة بالغة ، وفى ٨ يوليه ١٨٣٣ م وقع الطرفان المعاهدة السرية خنكار أسكلة سى وهى عبارة عن معاهدة دفاعية هجومية التزم الطرفان بمقتضاها أن يساعد كل منهما الآخر أمام الخطر الخارجي أو الداخلى ، ومن جانبه تعهد السلطان بإغلاق مضيق الدردنيل والبوسفور ولايسمح إلا بمرور السفن التركية أو الروسية بالمرور فيهما وأن الدخول إلى البحر الأسود محظور على السفن الغربية . ورغم أن المعاهدة لم تبرم إلا فى عام ١٨٤١ م فإن مشكلة المضايق قد وجدت . وقد نتج عنها فيما بعد حرب كريما (أوكرانيا) . أعتقد السلطان أنه لا داعى لإخطار القوى العظمى بنواياه . وقد أحدث توقيع الاتفاقية أثراً سيئًا ، ونظرت كل من فرنسا وإنجلترا نظرة مشئومة لوصاية روسيا التى تسعى لممارستها على تركيا وأصيبا بذعر لمنعهما من دخول المضايق ، واحتجت باريس دون جدوى لدى روسيا فردّت باستعلاء قائلة أن هذا

اتفاق تم بين دولتين ذات سيادة ، واعتبر ميترنيخ من جانبه أن التوازن فى المنطقة قد انهار لصالح روسيا وتحرك فى هذا الصدد لدى الطرفين ، وتحت ضغط مستشار النمسا ، وافق القيصر على إضافة شرط أساسى فى المعاهدة : لا يحق لروسيا حماية تركيا إلا بعد اللجوء لوساطة النمسا ، وبدأ ميترنيخ بنفوذه يقنع إنجلترا وفرنسا ويهدئ من روعهما، إلا أن روسيا خرجت منتصرة من الأزمة .

استئناف الهجوم الدبلوماسى لمحمد على :

ماذا فعل محمد على أثناء ذلك ؟ إنه على استعداد دائمًا لصب الزيت على النار إذا لزم الأمر لتحدى مشوعات ومغامرات السلطان . فقد لاحظ باهتمام يتسم بالهدوء ردود الفعل السلبية للقوى العظمى إزاء التقارب التركى - الروسى . واعتقد مرة أخرى أن اللحظة المناسبة قد واتته لأخذ المبادرة بما يتفق وطباعه المغامرة ، ففكر أنه يحسن صنعا لو بادر بتقديم المساعدة للقوى العظمى الغربية ويعرض عليهم خدماته متصوراً أنه الرجل الذى بيده مفاتيح حل مشاكل المنطقة . وفى ٣ سبتمبر ١٨٣٤ م ، أرسل مذكرة إلى حكومة كل من فرنسا وإنجلترا والنمسا يعرض عليهم أن جيشًا مصرى اقوامه ١٣٠ ألف رجل على استعداد للقتال لصالح هذه الحكومات الثلاث ضد روسيا ، ولم يضع إلا شرطًا واحداً وهو هام فى نفس الوقت : الاعتراف بحقه فى الاستقلال ، وهى المرة الأولى التى يتحدث فيها رسميًا عن الاستقلال ، لكنه أعلن أنه متمسك بأن يكون الحليف للباب العالى ، عندما يتخلص من الروس .

لم تعط المذكرة الأثر المرجو منهاوقوبلت بوجوم من جانب الأوروبيين واعتبرت فى غير محلها وغير لائقة ، فالإنجليز الذى لا يخفون مشاعرهم تجاه محمد على تمسكوا بأن يظل تحت وصاية السلطان ولو حتى نظريًا ، أما ميترنيخ الذى يفضل أن يؤدى دور المصالحة فقد طمأن محمد على بالنسبة لنوايا القيصر السلمية ، وزيدت فرنسا تحفظًا شديداً وأعربت عن امتعاضها لأنه رغم العلاقات المميزة ، فإن الباشا لم يكلف خاطره بإبلاغ فرنسا مسبقًا ، وعلى أى الأحوال ، فإنها تتمنى بقاء الوضع الحالى فى المنطقة على ما هو عليه ، فقد وصل اقتراح محمد على فى وقت غير مناسب ، ولأنه

لم يعد إعداداً جيداً ، فإن الأثر الوحيد الذى تركه هو إزعاج فرنسا ووضع القوى العظمى الأخرى فى حالة قلق ، تأكد الباشا مرة أخرى أنه سبب إزعاجاً وخلق وضعاً مؤسفاً من عدم الاستقرار ، وبذا فقد وجد نفسه وحيداً وأنه فى حالة وقوع عدوان تركى ضد مصر فلن تحضر أى دولة من الدول العظمى لنجدته .

وعلى ذلك ، قرر التفاوض من جديد وبصورة مباشرة مع السلطان ، وفى النهاية ، فإن صلح كوتاهية لم يكن بهذه الدرجة من السوء ، وحاول سفير فرنسا فى القسطنطينية أمير البحر روسان أن يعيد العلاقات الطيبة مع محمد على ببذل جهده لجعل حكومة مصر وراثية فى مقابل بعض الامتيازات الإقليمية ، لكن الطلب كان سابقاً لأوانه وقام أعداء محمد على فى الباب العالى باستامبول بإفشال المحادثات وإنهائها ، أصبح لدى الباشا اهتمامات ومشاغل أكثر إلحاحاً بسبب أحداث وقعت فى سوريا .

الإدارة فى سوريا :

فى عام ١٨٣٣ م وفى أعقاب الحرب التركية – المصرية التى انتهت لصالح محمد على بإتفاقية صلح كوتاهية وجد نفسه فى وضع مريح تماماً ، فقد هز بنية الإمبراطورية العثمانية وحصل على حكومة سوريا ، ولأن السلطان كان فى موقف ضعف ، فقد اضطر إلى إطلاق يد محمد على وجعله يتصرف بحرية فى الوقت الحالى على الأقل . حاول محمد على الاستفادة من تلك المهلة المتاحة لينظم الإدارة فى سوريا على هواه حيث نقل نظام الإدارة المصرية لتطبيقه فى سوريا .

الوضع فى سوريا لدى وصول المصريين :

كيف كان الوضع فى سوريا عندما غزاها إبراهيم باشا ، كانت سوريا الكبرى فى ذلك الوقت تضم ثلاث مناطق جغرافية هى : لبنان وفلسطين وسوريا الحالية : الساحل والمرتفعات الجبلية والسهول بفلسطين وسهل البقاع بالشمال ومنذ الغزو

التركى فى القرن السادس عشر ، قُسِّمت سوريا إلى عدد معين من الوحدات الإدارية المتمتعة بالحكم الذاتى لكنها غير محدودة تحديدًا واضحًا فمثلاً :

- على الساحل : عكا مع نابلس وأحيانًا القدس وطرابلس وصيدا .

- فى الداخل : دمشق وحلب وبيلان وأيضًا أضنه رغم أنها تدخل ضمن الحدود التركية .

وكل وحدة يحكمها باشا يطبق مبدئيًا توجيهات الباب العالى لكنه يصوغها لتكون وفق مصلحته الشخصية . زادت حدة العصيان أمام هذه القوى الضعيفة والتى لا تتمتع بشعبية ، فمثلاً داود باشا حاكم دمشق كان عليه أن يرضخ أمام الهياج الشعبى الذى وقع عام ١٨٣١ م . وسادت حالة من الفوضى شملت أرجاء البلاد ومارس الرجال ذوى النفوذ المحليين سلطاتهم على رعاياهم دون الرجوع إلى السلطان . كان مجموع السكان الإجمالى فى ذلك الوقت مليونًا وسبعمائة ألف نسمة ، وتعتمد مواردهم أساسًا على الزراعة والرعى والصيد ، تطورت الموانئ الساحلية فى نهاية القرن الثامن عشر بفضل زيادة التبادل التجارى بين الإمبراطورية العثمانية وأوروبا ، وكانت عكا الأكثر أهمية وتتمتع بنفوذ كبير فى المنطقة منذ أن وقف أحمد باشا الجزار أمام نابليون الذى فشل فى اقتحام القلعة أو المدينة .

والأغلبية الساحقة من السكان حضر يقيمون فى المدن باستثناء البدو الرحل الذين يتنقلون بخيولهم السريعة ويروعون سكان السهول بغاراتهم الموسمية كما يرهبون الفلاحين بغزواتهم وينهبون محاصيلهم . أما سكان الجبال فكانوا بمأمن من غزواتهم ، فهم يختبئون فى مخابئهم وتكون بمثابة كمائن ضد البدو حيث لا يغامرون بشن غزواتهم على سكان الجبال ، وكانت الجبال المجال والمقر للمسيحيين الموارنة والدروز الذين يخضعون تحت سلطة الأمير بشير باشا ، وفى عام ١٨٣٢ م ساند إبراهيم باشا مساندة قوية ليتمكن من الاستيلاء على القلعة فى عكا ، وبعيدًا عن هذه المشاجرات المحلية ، كانت الجاليات الدينية تعيش بعقلية متفتحة ومستنيرة خلافًا لما يحدث فى أيامنا هذه فى لبنان .

احتلال المصريين لسوريا :

أستقبل المصريون استقبالاً طيبًا من قبل المسلمين ، أما المسيحيون فقد شعروا بالقلق فى البداية ولكن سرعان ما اطمأنوا للسلوك الحيادى للمصريين فى هذا الصدد .

عمل إبراهيم على استتاب الأمن والنظام وغرس الثقة فى نفوس الجميع واعتمد على رؤساء ثبتهم فى أماكنهم ، وعين الشيخ الحسينى فى حكومة فلسطين ووضع القدس ونابلس تحت حماية الشيخ الحسينى . كافأ إبراهيم باشا الأمير بشير على خدماته فأعطاه حكومة بيروت وصيدا ، وعين حاكم مصرى على دمشق هو شريف بك مع إعطائه سلطة على سوريا وفلسطين بالكامل . كان يساعد شريف بك قائد عسكرى هو عمر بك ، ولم يجرؤ البدو الرحل على مهاجمة الفلاحين أو القوافل ، كان البدو يقطنون فى الوسط والجنوب والتركمان والأكراد فى الشمال ، حظى النظام المصرى على ما يبدو برضاء الجميع ،وكتب فرديناند ديليسبس الذى كان قائمًا بأعمال القنصلية الفرنسية فى مصر أن المركزية التى أوجدتها سلطة قوية فريدة يمكن الشعور بآثارها فى سوريا وبأن الغارات التى كان يقوم بها البدو انتهت وأن أهالى البلد الأصليين لم يعودوا يغادرونها بل إن سهولة حمص وحماة وحلب بدأت الآن تغطى بالزراعة .

لاحظ التجار الأجانب بسكينة وهدوء نفس مدى التقدم الهائل الذى حدث فى سوريا تحت الإدارة المصرية ، وعاودوا نشاطهم التجارى وأصبح بإمكانهم دخول سوق دمشق وفتحت الدول الغربية قنصليات لها ، وفى الوقت الذى كان فيه الأوروبيون سواء المقيمون أو القادمون فى زيارة يجبرون على ارتداء ملابس شرقية خوفًا من التنكيل بهم ، أصبحوا الآن بإمكانهم ارتداء الملابس التى تعجبهم ولم يعودوا فى حاجة إلى وضع علامات مميزة على ملابسهم ، كما صارت الأوضاع هادئة فى القدس . ولأن القدس كانت تعتبر مدينة مقدسة للإسلام ، فإن رعايا الدول المسيحية لا يستطيعون الإقامة بها ، ولم يكن يسمح بزيارة الأماكن المقدسة المسيحية حتى ذاك الوقت إلا لممثلى الجماعات العلمانية المقيمين فى الأرض المقدسة .

وعلى الصعيد الاقتصادى ، شرع محمد على فى وضع برنامج للأعمال الضخمة يخصص لإنشاء البنية التحتية الأساسية على غرار ما حدث فى مصر : ميناء صيدا ،

إنشاء طرق ، إعداد وتهيئة نهر حلب ، تجفيف المستنقعات .. مع وضع أولوية للزراعة : بذر البذور فى الأراضى غير المنزرعة ، التوسع فى زراعة أشجار الزيتون والكروم . وسرت شائعات بأن إبراهيم يقلد الطرق التى اتبعها أباه ، فقد قرر تطوير سهل أنطاكية لحسابه الخاص .

اضطرابات فى سوريا :

ظاهريًا ، كان الاحتلال المصرى على ما يبدو موضع رضاء الأوساط السورية المختلفة ألا إن الوضع فى الحقيقة بعيد عن الوضوح : فكان من عادة السوريين أن يدفعوا ضرائب أقل أو لا يدفعون شيئًا على الإطلاق ، إلى أن جاءت الإدارة المصرية وفرضت عليهم نظام الجباية الصارم والفعال مما كان له أثر فى ازدياد السخط لدى السوريين ، كذلك كان التجنيد غير إجبارى ولا يُهتم به لكن محمد على أراد تعديل هذا النظام وفرضه على السوريين رغم معارضة ابنه إبراهيم فاستقبل هذا التعديل استقبالاً سيئًا ، كما أجبر سكان القرى على أعمال السخرة .

من ناحية أخرى ، فإن نظام الاحتكارات الذى حاول إبراهيم تعديله ليكون صورة مماثلة كما فى مصر ، لم يتقبله التجار ورجال الأعمال السوريين الذين لهم نفوذ وسطوة وعددهم ضخم سواء كانوا أجانب أو سوريين بخلاف المصريين الذين فرضت عليهم إرادة محمد على دون مقاومة من جانبهم . أما السوريون ، فعلى العكس من ذلك ، كان التجار السوريون المسلمون يتميزون بأنهم أصحاب مشروعات عظيمة ولديهم روح الإقدام وطوّروا منذ قرون علاقات تجارية مع الأناضول والعراق والحجاز وبلاد فارس . أما التجار المقيمون فى سوريا خاصة المسيحيون فكانت لهم علاقات ميسرة مع الشركات الأوروبية الكبرى ويحتكرون تصدير المواد الأولية والمنتجات الزراعية ، كما يستوردون منتجات مصنعة أو أجهزة ومعدات صناعية . أما احتكار الدولة الذى يريد المصريون فرضه عليهم فى المجال الصناعى فإنه يقضى عليهم ويحكم عليهم بالخراب . ولذلك فقد أصروا على معارضته ، وشعروا بالأسى على النظام التركى ، وتركه حرية التجارة دون معوقات رغم غارات البدو .

أدت مشاعر عدم الرضا المختلفة إلى سلسلة من التمرد ضد الاحتلال المصرى وزادت حدته فى المناطق التى يسيطر عليها المسيحيون إذا كانوا متحفظين ضد إيجاد سلطة مركزية يهيمن عليها المسلمون . وانفجرت ثورة عارمة فى مايو ١٨٣٤ م فى نابلس على أثر تجنيد مجموعة من الجنود بقرار من إبراهيم باشا . تحصن المتمردون فى الجبال وكان قوامهم حوالى عشرة آلاف رجل وقاوموا كتائب االجيش النظامى الذى أرسل من دمشق والقدس . شعر محمد على بالقلق ، وإزاء هذا الموقف قرر الحضور بنفسه شخصياً على الرغم من ثقته فى ابنه إبراهيم ومعه ثمانية آلاف رجل ونزل فى يافا وأقام بها شهراً وقمع الثورة ثم عاد إلى الإسكندرية ، وفى العام التالى حدثت اضطرابات أخرى فى لبنان حيث تآمر الأمير بشير لأنه كان على خلاف مع مصر ثم عقد صلحًا ، لذا فقد قرر الجيش المحتل نزع الأسلحة من لبنان .

هدأت الأحوال حتى عام ١٨٣٨ م عندما قامت حركة تمرد خطيرة فى حوران وهى منطقة غنية بالحبوب وتقع فى دائرة اختصاص دمشق ألا إنها أصبحت تحت سيطرة الدروز المجاورين . فهدد المحتلون المصريون بنقلهم بعيداً عن المنطقة لكنهم رفضوا ترك حقولهم ومحاصيلهم التى يصدرونها إلى أوروبا . وقد أدى طلب سلطات الاحتلال المصرية تجنيد مجموعة من الجنود إلى إشعال الفتنة ، ولم يتمكن شريف باشا الحاكم العام لسوريا من القضاء على الفتنة حيث زاد عدد المتمردن . وهنا كان لزامًا على إبراهيم باشا وسليمان بك من السيطرة على زمام الموقف بصورة حيادية تجاه المحتلين أصبح التمرد محصوراً فى مكانه ولم ينتشر فى مناطق أخرى . ورغم تخوف محمد على ، فإن سلطته على سوريا ظلت سائدة على الرغم من بعض التحفظ من جانب السكان المسلمين والعداء من جانب المسيحيين .

محمد على فى قمة مجده :

شهد عهد محمد على فى السنوات التى أعقبت غزوه لسوريا من ١٨٣٠ م إلى ١٨٣٩ م ذروة مجده . فالإمبراطورية التى كوّنها فى قلب الإمبراطورية العثمانية أصبحت الآن قائمة على مؤسسات صلبة وتستند على أسطول وجيش منظمين تنظيماً جيداً . تضم الإمبراطورية مصر وسوريا ولبنان والسودان بالإضافة إلى الساحل

الشرقى والساحل الغربى للبحر الأحمر وأصبحت دولة عربية لها وزنها وقوّتها بحيث من الممكن أن تنصهر فيها أقاليم تركية أخرى فى الشرق الأوسط مثل العراق أو الإمارات .

وبالتأكيد ، فإن ممتلكات محمد على هذه ذات طابع مؤقت لأنه من الممكن الغاؤها ونقضها فى أى لحظة عن طريق إرادة السلطان لأن محمد على لم ينجح فى جعل السلطان يعترف بالجانب الوراثى الذى طالما تمناه .

ينتمى النظام المصرى لحد ما لبعض دول الدومينيون البريطانية فى نهاية القرن التاسع عشر مثل كندا أو أستراليا وملك إنجلترا هو نفس العاهل لتلك الدولة لكنها تتصرف باستقلالية تامة ولها عملتها الخاصة بها وجيشها ودبلوماسيتها . ومع ذلك ، لا يتصور المرء أن كندا أو استراليا ستدخل فى حرب ضد إنجلترا بينما جابه محمد على السلطان بالأسلحة علنا وهزم جيشه .

عرف محمد على كيف يحصل على الحكم الذاتى من السلطان مما أكسبه احتراماً واهتماماً دولياً وكان على القوى العظمى أن تعترف به طوعاً أو كرهاً كشريك له وزنه فى الشرق الأوسط ، وأخيراً ، فإن تلك الفترة صاحبتها فترة ازدهار اقتصادى ملموس ولكن تجنى ثماره فى المستقبل . وبذا وجدت الدولة المصرية وتميزت بمركزية السلطة والإجراءات المتناسقة التى تم تطبيقها .

والسؤال الآن : هل المشروعات التى أقامها محمد على وابنه إبراهيم على المستوى العربى كانت تسير فى الطريق الصحيح ؟ إن إبراهيم لم يتنازل عن حلمه فى تحقيق دولة عربية كبرى ، والغريب أنه فى السنوات التى قضاها فى استامبول « كرهينة » كان قلبه يمتلئ حقداً على الأتراك وعلى المغتصبين للإمبراطورية العثمانية، وفى الوقت الذى كان والده يعتبر نفسه تركياً بينما هو ألبانى الأصل ، فإن إبراهيم رفض الجنسية التركية وأراد لنفسه أن يعيش عربياً ومصرياً بالثقافة وبالمصاهرة .

وهكذا ، أصر إبراهيم من جديد لدى والده على تكوين دولة عربية كبرى تحت سلطته تشمل مصر وسوريا واليمن والسودان ، والخطوة الأولى استقلال مصر .

تدخل جديد من جانب القوى العظمى :

كان محمد على أكثر دهاءً ودقة فى السياسة عن ابنه إبراهيم ويشعر بتحفظات القوى العظمى إزاء مشروعاته ويعرف تمامًا أنها تفضل بقاء الوضع الحالى . وقد حدثت أنشطة دبلوماسية مكثفة نتيجة إعلان قيصر روسيا مساندته للسلطان . إذ إن أقل حدث من الممكن أن يدمر التوازن الهش الموجود فى المنطقة ويكون له بالتالى تأثير على أوروبا نفسها : ومن هنا ، فإن أى شخص لا يريد النظام المصرى حتى فرنسا نفسها ذات الصلة الحميمة بمحمد على . وقد عاد لامارتين Lamartine مؤخرًا من رحلة فى الشرق وقد بهر بما شاهده . وقد ذكر فى أحد مؤلفاته« فرنسا البرلمانية (١٨٣٤ - ١٨٣٥ م) » ، إنه يجب مساندة المسيحيين فى الشرق لتطوير حضارة أوروبية . وتعرّض لمسألة تقسيم الإمبراطورية الرومانية : تتولى كل دولة أوروبية تطبيق نظام الحماية على المنطقة : وفى خطابه أمام مجلس النواب تعجب بأسلوبه الشاعرى المعروف به : « بناءً على هذه الأسس المبدئية سيقام هذا النظام الكبير والمترامى من الهيمنة السلمية الذى . . . سيعمل على نشر الحضارة فى جزء من أجزاء المعمورة وسوف ينصهر بعامل الزمن فى أسرة واحدة من الأجناس والأديان والأخلاق والصناعات والاقتصاد ، أوروبا وأسيا » . تلك كانت نبوءة من جانبه حيث تنبأ بتفكيك الإمبراطورية العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨ م) وأنشأ الوصاية والحماية الإنجليزية والفرنسية فى الشرق الأوسط .

تميزت سياسة فرنسا فى سوريا فى ذلك الوقت بالتناقض : فمن ناحية كانت تحمى المسيحيين بينما هؤلاء يثورون ضد إقامة سلطة مركزية بقيادة الاحتلال المصرى ، ومن ناحية أخرى ، فإن حكومة لويس فيليب من المؤيدين المتحمسين لسياسة مصر المتحضرة .

أدرك السلطان محمود الثانى الحقائق داخل امبراطوريته وقرر أخيرًا إصلاح البنيات المختلفة لإمبراطوريته المترامية على أن يبدأ أولا بإعادة تنظيم الجيش الذى أظهر عجزه أمام القوات المصرية . فالأتراك يتباهون بتقاليدهم العسكرية ، لذا فهم يشعرون بالأسى لما حدث خاصة أن مصر تعتبر تباعة للإمبراطورية وأنهم هزموا على أيدى أتباع من داخل الإمبراطورية . وجه السلطان نداء إلى بروسيا لتنظيم الجيش

التركى فأرسلوا الجنرال مولتك Moltke وبذا بدأ التعاون العسكرى بين روسيا وتركيا ثم مع ألمانيا والذى استمر حتى بعد الحرب العالمية الأولى .

فى يناير ١٩٣٧ م اتخذ السلطان محمود الثانى مبادرة أخرى ، إذ أرسل مبعوثًا لمحمد على مكلفًا بتقديم اقتراح مفاده جعل السلطة وراثية مقابل تنازل محمد على عن جزء صغير من ممتلكاته ، رفض محمد على فى بادئ الأمر ولكن كلمة توريث الحكم رنّت فى أذنه ووضعها الباشا فى ذاكرته . وهكذا ، وعندما قام بالمرستون Palmerston بجس نبض محمد على حول نواياه السلميّة رد عليه قائلاً إن همه الشاغل هو تأكيد الطابع الوراثى لممتلكاته ، ولايبحث عن أى شئ آخر سواه وأنه على استعداد للتنازل عن أقاليم فى المقابل . ويبدو أنه تنازل عن حلمه الخاص بالاستقلال لأن كل ما يهمه هو جعل الحكم وراثيًا فى أسرته .

وفى مايو ١٨٣٨ م أثار هذا الموضوع مرة أخرى مع كوشليه Cochelet القنصل الفرنسى العام الجديد وكذلك مع كامبل Compbell القنصل العام البريطانى ومع قناصل كل من النمسا وروسيا ، إلا أن رد الفعل من جانب القوى العظمى حول هذا المطلب كان سلبيًا ، وأعربوا عن قلقهم ونفاذ صبرهم تجاه محمد على الذى اعتبروه منغصًا لحياتهم فى المنطقة ؛ بل وتمادوا أكثر ولبسوا ثوب النفاق لدرجة اهتمامهم بمصير السوريين التعساء الذين سقطوا تحت نير الاحتلال المصرى فى الوقت الذى لم يظهروا فيه أى تعاطف نحوهم عندما كانوا تحت الهيمنة التركية . وجه بالمرستون رسالة شديدة اللهجة إلى محمد على يحذره فيها بأنه فى حالة حدوث أى صراع بينه وبين السلطان فسينحاز إلى صف السلطان لتجنب حدوث تصدع للإمبراطورية العثمانية . وأرسل موليه Molé وزير الخارجية الفرنسية خطابًا إلى محمد على بهذا المعنى وأن فرنسا ستكتفى بإرسال قع حربية من الأسطول الفرنسى إلى الإسكندرية . صُدم محمد على لدى سماعه ترجمة هذا الخطاب .

وقد ذكر الأمير بوكلر من بروسيا هذه المسألة المتعلقة بالاستقلال وجعل الحكم وراثيًا فى كتابه عندما أكد أن اليونان حصلت نهائيًا على استقلالها عام ١٨٣٠ وهو نفس العام الذى احتلت فيه فرنسا الجزائر ، وكان بإمكان محمد على أن ينادى نفسه ملكًا على مصر عقب انتصاره على العثمانيين . فهل كانت القوى العظمى ستقبل

بإتمام ذلك ؟ هذا ما ذكره ذلك الأمير البروسى عندما قال « إن ما رفضت قبوله بالأمس ، لن يعود إليك مرة أخرى » .

ولكن الأمير كان مخطئًا لأن محمد على انتهى به الأمر إلى الموافقة على حصوله على نقل الحكم وراثيًا فى نسله من الذكور وذلك فى حالة عدم حصوله على الاستقلال وفى مذكرة بعث بها محمد على إلى القوى العظمى يوم ٥ سبتمبر ١٨٣٨ م أكد فيها أنه يتنازل عن الاستقلال إذا تم الاعتراف له بملكية مصر وراثيًا لنسله من الذكور . وبهذه المذكرة تنازل عن فصلين : الأول تناوله عن الاستقلال ، والثانى أن تقتصر الوراثة على مصر فقط واستبعاد باقى الأقاليم . وفى نهاية عام ١٨٣٨ م ، شعر محمد على وهو فى أقصى درجات قوته أنه ملّ من الصراعات العميقة مع السلطان ، لأن القوى العظمى عيونهم مفتوحة عليه ويتربصون به ، وقرر وضع حد لطلباته المتكررة مع الأوروبيين والاتجاه جنوبًا لتحقيق حلمه القديم وهو زيارة السودان ملكه الجديد الذى لا ينازعه فيه أحد حتى هذه اللحظة .

الفصل التاسع

محمد على والسودان

تأكد محمد على أن النيل هو مصدر الحياة والثروة لبلاده ووضع فى اعتباره من جديد العبارة التى فكر فيها نابليون من قبل : « نهرالنيل يجلب النور والخير لشعوب أفريقيا » . وربما يقصد بالنور الخير المادى لأن طمى النيل يجلب الخصب للزراعة المصرية . يتحد النيل الأزرق والنيل الأبيض ليكوّنا النيل العظيم . ومن المنطقى أن يفكر محمد على فى سيطرته على أعالى تلك الأنهار باستيلائه على السودان لوقوعه على نهر النيل ، ولأن السودان يقع جنوب مصر مباشرة فلابد من حدوث تكامل تام لتكوين إمبراطورية عربية عظمى فى شمال شرق أفريقيا .

وهكذا وفى عام ١٨٢٠ م قرر محمد على الشروع فى غزو السودان دون أخذ رأى مستشاريه ودون العودة إلى السلطان ودون أن يحتاط لنفسه بإبلاغ ممثلى القوى العظمى المقيمين فى الإسكندرية أو القاهرة . توغل الجيش المصرى فى السودان وجعل الجزء الأول من حملته حقيقة ملموسة عندما قام بإنشاء مدينة الخرطوم العاصمة الحالية أعلى الشلال السادس عند ملتقى النيل الأزرق والنيل الأبيض . ووجود الخرطوم عند ملتقى الطرق بين الحبشة والسودان أكد أهميتها كمركز هام للاتصالات .

الوضع فى السودان

كيف كان السودان فى بداية القرن التاسع عشر ؟ يقع فى شرق أفريقيا جنوب مصر يحيط به من الشرق البحرالأحمر ومرتفعات الحبشة فى الجنوب الشرقى وهضبة

البحيرات العظمى فى الجنوب . ووقوع السودان فى منطقة صحراوية قاحلة لم يجعل منه دولة موحدة ولكن تجمع من دول تحافظ على علاقات مختلفة على مر العصور .

تقع النوبة فى منطقة الشلالات وهى الدولة المعروفة بصورة أكبر ، وفى الماضى ، كانت مملكة الحبشة تضم النوبة السفلى والنوبة العليا وعاشت أمجادها فى القرنين الخامس والسادس قبل الميلاد عندما استولت على مصر وكونت أسرة الفراعنة التى سميت « الأثيوبية » . وفى القرن السادس بعد الميلاد تحولت مملكة الحبشة إلى المسيحية ، وظلت الديانة الكاثوليكية سائدة حتى عام ١٥٠٤ م عندما حلت مكانها مملكة إسلامية عاصمتها سنار ، وفيما بعد استولت الإمبراطورية العثمانية على النوبة السفلى ثم انضمت لمصر . وفى عام ١٨٢٠ م امتدت مملكة سنار على النيل المتوسط ويحكمها ملك طيب القلب . كانت النوبة تضم نوعين من السكان : سكان المدن التى تقع على النيل وهؤلاء يعملون بالزراعة، والبدو الرحل ويعيشون فى الصحراء ويعملون بالرعى.

وبخلاف النوبة ، توجد دولتان أخريان لهما دور فى السودان : دارفور وكردفان ، كان يحكم دارفور أسرة الدادجار حتى القرن الخامس عشر عندما استقرالبربر بها فى أواخر القرن السادس عشر ، وغزوا بعد ذلك كردفان المجاورة .

تجـــارة الرقيـــق :

لم يكن محمد على يسعى باهتمامه بالسودان إلا إلى فرض السيادة والسلطة . سعى أولاً للبحث عن الذهب لإعادة إعمار خزائنه الخاوية وأيضًا الرجال لتقوية جيشه ، إلا أنه وجد الذهب بكميات قليلة لكنه استطاع أن يجند عددا كبيرا من السودانيين السود الذين ساعدوا على تقوية صفوف الجيش المصرى ، غير أنهم لم يتأقلموا على جو مصر ولا على النظام الغذائى وأدى ذلك إلى هلاك العديد منهم .

لقد أدى السودانيون أعمالاً هامة على مر التاريخ داخل الإمبراطورية العثمانية عندما كان يتوفر منهم العديد من الرجال المخصيين (الأغوات) للعمل داخل سراى السلطان ولدى الحريم واستخدم عدد كبير منهم كعبيد فى مصر .

لم يعارض محمد على فى البداية تطوير التجارة التقليدية للعبيد والتى ، كما يتخيل البعض ، تعتبر تجارة مربحة بين السودان ومصر ، وكان يخصص لهم سوق فى القاهرة يسمى عقلة الجلابين . وكما كان الحال فى الولايات المتحدة فى ذلك العصر ، يعرض السود التعساء أمام المشترين والبائعين يعرضون بضاعتهم ويمتد حولها بصوت عال نوعيات وأصناف « بضاعتهم » . كان العبيد من الحبشة ومن كردفان وسنار ، وقد ذكر تاجر فرنسى عاش فى السودان حوالى عام ١٨٣٠ م أن العبيد القادمين من الحبشة أكثر رقة من هؤلاء القادمين من كردفان وأغلى فى السعر منهم لكنهم لا يتحملون الأعمال الشاقة ، وكانوا مصدر بهجة لسادتهم ، والنساء موضع تقدير فى غرف النوم ، والرجال للتباهى فى المنزل ، ويشتهر السود القادمين من كردفان بالإخلاص والخدمة الجيدة فى المنازل ولا ينفرون من الأعمال الوضيعة .

كانت منازل العظماء فى القاهرة والإسكندرية تعج بأعداد كبيرة من العبيد . نشأت الحركة المناهضة للرق فى إنجلترا فى نهاية القرن الثامن عشر وتضم عدداً كبيراً من مؤيديها فى فرنسا من الثورة الذين كانوا يدينون جلب الزنوج من أفريقيا إلى المستعمرات الإنجليزية بأمريكا . وفى الوقت الذى كان الرأى العام فى أوروبا يعارض هذه التجارة ، فإن محمد على لم يشغل باله بتلك الوساوس وكان كل همه توفير أيدى عاملة رخيصة ، لكنه لم يسىء معاملة العبيد لديه بل على العكس كان يعتنى بهم ليؤدوا العمل على أفضل وجه .

اقتصر محمد على فى اختياره للعبيد على الجيش فقط : وفى نهاية حياته شعر بالفزع من هذا النظام وقرر محاربته .

وقبل أن يتوجه إلى السودان ، كان محمد على فى حقيقة الأمر مشاركاً معتدلاً فى تجارة الرقيق حيث وجد أنها أسلوب ميسر وسهل لاختيار الجنود والخدم بل وحتى الأغوات ، غير أنه صدم من ممارسة عملية التجارة هذه والتى تتم تحت بصره إلى هذا الحد والخزى والعار من جراء عملية الجلب هذه ، ووصف ماكسيم دى كامب Maxime du Camp الذى رافق جوستاف فلوبير Gustave Flaubert فى رحلته إلى مصر عام ١٨٥٠ م وقال : « تتكوم النساء فى القوارب الكبيرة بلا نظام منهن الزنجيات ومنهن المولدات والحبشيات وعرايا احترق جلدهن من الشمس ، فى حالة بله ،

وضيعات لا حول لهن ولا قوة تفحصتهن فوجدت أن معظم الزنجيات قد نكل بجسدهن بطعنات سكين فى الظهر والذراع .

تأثر محمد على باستخدام العبيد بهذه الصورة كما تأثر بالأفكار التى تنادى بالغاء الرق وتحرير العبيد والتى انتشرت فى إنجلترا وفرنسا . وفى ٤ ديسمبر ١٨٣٨ م أصدر محمد على مرسومًا بحظر مطاردة العبيد واصطيادهم ، وهى عملية إنسانية أولاً ولكنها أيضًا عملية دعائية موجهة للقوى العظمى . وللأسف ظل المرسوم حبرًا على ورق رغم الحماسة التى أبداها المحيطون به ، ولم تحل هذه المسألة إلا فى عهد الخديو إسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩ م) .

دوافع أخرى لمحمد على :

عندما أراد الباشا غزو السودان كانت له أهداف أخرى ، فعلى الصعيد الاقتصادى ، فكر فى إعادة إنشاء التبادلات التقليدية بين مصر والسودان التى كانت تتم فى الماضى بالقوافل ، وبسبب عدم توفر الأمن بين المحيط المصرى - السودانى ، فضل التجار اختيار خط سير آخر باستخدام المراكب عبر البحرالأحمر ، ولهذا شجع محمد على على إحياء هذا الجزء الهام من التجارة المصرية وإيجاد التكامل لفائدته فى إطار احتكاراته .

ومن بين دوافعه الأخرى تحييد مواطنيه الألبان المخلصين ، فهو يعترف لهم بالفضل فى مساعدته على تولى السلطة ولكنهم غالبًا يتمردون ويقومون بأحداث شغب . وقد حاولوا التمرد عدة مرات ولولا القبضة الحديدية لقائدهم لفلت الزمام . والقيام بحملة إلى منطقة بعيدة كالسودان يتبعها احتلال دائم كفيل بخلق مخرج للتخلص منهم .

ومن المحتمل أن تكون حكومة الإدارة قد تصرفت بهذا الشكل عندما أرسلت الحملة الفرنسية على مصر لإبعاد بونابرت . ويعرف محمد على جيداً أن مواطنيه لا يمكنهم أبداً الانخراط فى سلك الجندية المنظمة حسب النظام الغربى خاصة تحت قيادة سليمان باشا ، والأفضل له أن يقوم باختيار عناصر جديدة يتولى تدريبهم وليكونوا من المصريين ، وبعد ذلك يمكن تدريب السودانيين .

وأخيراً ، كان فى نية محمد على القضاء تماماً على آخر معاقل المماليك الذين فرّوا إلى السودان حيث كوّنوا دولة من المماليك فى دنقله ، ومن هنا ، كان غزو السودان فرصة لكسر شوكة المماليك .

غــــزو الســــودان :

الچنرالات المصريون : إسماعيل باشا ومحمد بك :

فى بداية القرن التاسع عشر ، لم يكن لدى الدول المختلفة التى تضمها السودان جيش باستثناء مملكة سنار ، بل أن هذا الجيش كان بسيطاً ولم يكن لديه أسلحة نارية ولذلك تغلّب عليهم المصريون بسهولة وبقيت الحملة من ١٨٢٠ إلى ١٨٢٢ م .

قسم محمد على جيشه إلى قسمين : القسم الأول تحت قيادة إسماعيل باشا الابن الثالث والقسم الآخر تحت قيادة صهره محمد بك الدفتردار ، تميز الاثنان بالقسوة الرهيبة استغلوها فى الانتقام الدموى لمواجهة السكان المتمردين ، لم يبد سكان المدن فى الواقع أية معارضة لدى وصول المصريين خصوصاً وأن النوبة السفلى تعتمد على مصر . أما البدو الرحل فعلى النقيض من ذلك ، اعتادوا على التمتع بالحرية التامة فى الصحراء ونظروا بنظرة كلها سوء وشر لهذا العدو الذى جاء يسلبهم حريتهم ولم يقبلوا هيمنة الرجال القادمين من الشمال ودخلوا معهم فى مناوشات .

لم يحبذ محمد على الطريقة التى اتبعها الچنرالين فى إخماد الثوار ، ورغم مذبحة المماليك التى اقترفها فى القلعة بالقاهرة عام ١٨١١ م ، فإنه لا يحب إسالة الدماء بقسوة ، وقد فزع فزعاً شديداً عندما أرسل له ابنه إسماعيل ٣٠٠ زوج من آذان المتمردين قطعها وأرسلها لوالده . وأرسل له محمد على خطاباً يؤنبه فيه وأنه كان من الأفضل لكى تكسب ود الشعوب المشاكسة أن تطبق العدالة بدلاً من قطع آذانهم .

لم يستمع إسماعيل لنصائح والده وواصل أعماله الاستفزازية . وفى أكتوبر ١٨٢٢ م أهان أحد الرؤساء المحليين ويدعى نمر ملك وأمره بأن يسلمه ١٠٠٠ عبد فى

خلال يومين ، وأخطأ إسماعيل بأن عذبه بواسطة الخازوق ، وهى طريقة كانت متبعة لدى العثمانيين ولكنها غير معروفة فى السودان . لم يقبل نمر هذه الطريقة فى التعذيب وقرر أن يفاجئ جلاده ، فدعاه إلى المبيت فى مقر إقامته وجمع كمية ضخمة من القش المخصص كعلف لخيول الجنرال المصرى ، وفى أثناء الليل ، أضرم النار فى القش وأحرق إسماعيل حيا هو وحاشيته إلا أن نمر قد هرب إلى الحبشة ولم يستطع محمد بك الدفتردار اللحاق به ولكنه اتجه إلى القرية التى يقطنها نمر وأبادها وأحرق مساكنها .

لم يوافق محمد على على وحشية وقسوة صهره رغم حزنه على فقد ابنه الذى لم يكن راضياً عنه . كان رد فعل السودان إزاء هذه المذبحة عنيفا وهاج السكان ضد المصريين وامتلأت قلوبهم بالحقد عليهم ، لقد كانت حرباً استعمارية وظلت مجزرة شاردى (قرية نمر) ذكرى أليمة لدى السودانيين لفترة طويلة .

متابعة الغزو :

أراد محمد على أن يواصل الغزو ، فتابع المصريون تقدمهم نحو شرق النيل باحتلالهم إقليم طوكر الواقع بين عطبرة والبحر الأحمر ، بدأ احتلال طوكر عام ١٨٣٤م لكنه انتهى بالفشل لأن السكان المحليين من قبيلة الهدندوة رفضوا الخضوع للمصريين . وفى عام ١٨٤٠ م ، شن الحاكم العام للسودان هجوماً بحملة قوامها عشرة آلاف رجل لكنه كان يحتاج لأعداد أكثر لكسر شوكة الهدندوة . اصطحبت الحملة معها مهندساً ألمانيا فكر فى إنشاء خزان بعرض نهر جوسن على ارتفاع ثلاثة أمتار لكى يمنع انسياب المياه إلى أسفل النهر وبالتالى تموت القبيلة المتمردة من العطش . لكن الهدندوة اكتشفوا الحيلة ونجحوا فى تدمير الخزان . ورغم ذلك ، نجح المصريون فى فرض أنفسهم وأنشأوا مدينة كسلا عاصمة للأقليم . ثار السكان من جديد عام ١٨٤٤ م بسبب قسوة وعنف سلطات الاحتلال المصرية : إلا أن هذه الثورة تم إخمادها بمنتهى العنف .

تم تثبيت التوسع المصرى نحو البحرالأحمر عندما تم الاستيلاء بسهولة على ميناءين سودانيين هما سواكن ومصوع وكانا تابعين للسلطان . عزز محمد على مركزه على البحر الأحمر وسيطر على التجارة فى تلك المنطقة . نجح محمد على باحتلاله السودان فى بسط نفوذ امبراطوريته نحو الجنوب ، وبذلك فتح شهية الدول الأوروبية نحو إفريقيا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وفى ذلك الوقت ، كان لكل من فرنسا وإنجلترا والبرتغال وأسبانيا وكالات تجارية على سواحل أفريقيا ولكن لم تكن لهم مستعمرات باستثناء جنوب أفريقيا المستعمرة الهولندية القديمة ، إلا أن الإنجليز استقروا فى رأس الرجاء الصالح عام ١٧٩٥ م قبل أن يستولوا نهائيًا على مستعمرة جنوب أفريقيا من أيدى الهولنديين عام ١٨١٤ م .

الجوانب العلمية للحملة :

اهتم محمد على بأن تصطحب الحملة على السودان مجموعة من العلماء كما فعل نابليون بونابرت فى حملته على مصر . فقد انضم للجيش المصرى الفرنسى كايو Cailliaud والإنجليزيان وادنجتون Waddington وهانبرى Hanbury . وصل كايو إلى مصر عام ١٨١٥ م ولمس محمد على فيه معرفته الواسعة بالمعادن واستخراجها من باطن الأرض فألحقه بالحملة مع ابنه إسماعيل إلى السودان . أحدثت رحلة كايو إلى السودان دويا كبيراً فى أوروبا ، استمر كايو فى مهمته العلمية وعند الشلال الأول توجه إلى جزيرة فيله ليتجه إلى النوبة والجنوب حيث اكتشف أهرامات مروى ، وقد تنكر فى زى رجل تركى حتى يتمكن من التجول فى هذه المنطقة .

رحلة محمد على :

فى عام ١٨٣٨ م قرر محمد على القيام برحلة إلى السودان وكان عمره فى ذلك الوقت يقترب من السبعين عامًا . أراد أن يتأكد بنفسه من حالة مستعمرته التى تخيل أنها ستجلب له ثروة كبيرة من الموارد المعدنية : الذهب أولاً ثم المعادن غيرالمتوفرة فى

مصر للعمل على تنميتها والنهوض بها ، إلا أن الأحداث على الصعيد الدولى لم تكن فى صالحه ، فقد شاهد أحلامه تتبخر والتى كان يحلم فى يوم من الأيام بتكوين إمبراطورية مستقلة عن الإمبراطورية العثمانية ، كما أن الوضع الداخلى ليس على ما يرام ، إذ جاءت محاولاته الخاصة بالإصلاحات الاقتصادية وإنشاء صناعات بنتائج أقل مما كان يحلم به ، وأصبح فى حاجة ملحة للأموال لدفع رواتب الجنود .

شعر بحاجته إلى أن يحقق أمام رعيته عملية تعطيه هيبة لإصلاح صورته الباهتة لفشله فى المساومات مع القوى العظمى الأوروبية . من أجل ذلك ظهرت له تلك الرحلة بمثابة فرصة أراد اقتناصها رغم بسنه الكبير وحرارة الجو وطول المسافة (١٥٠٠ كيلو متر) وطول الوقت الذى تستغرقه هذه الرحلة . رفض جميع الاعتراضات التى وجهت إليه من أصدقائه ومن عائلته ومن أطبائه الذين نصحوه جميعًا بعدم الاندفاع فى هذه المحاولة المجنونة ، لكنه كان يشعر فى قرارة نفسه أنها المغامرة الأخيرة ، وغادر القاهرة على ظهر سفينة بخارية فى ١٥ أكتوبر ١٨٣٨م من بولاق الواقعة على النيل ، وترك حكم البلاد لحفيده عباس باشا الذى كان عمره وقتئذ خمسة وعشرين عامًا . لم تستطع الباخرة السير أبعد من أسوان نظرًا لاندفاع الماء السريع هناك فاضطر إلى الانتقال هو وحاشيته فى ذهبية حيث عبروا النوبة ودنقله وبعدها أصبحت الملاحة مستحيلة . رفض محمد على أن ينقل على مِحَفّة وأنهى رحلته على ظهر جمل ووصل الخرطوم فى ٢٤ نوفمبر ١٨٣٨ م بعد خمسة أسابيع فقط قضاها فى الرحلة ولم يشعر إطلاقًا بالتعب ، نالت لياقته البدنية الخرافية إعجاب الجميع .

البحث عن المعادن :

اصطحب محمد على معه مجموعة من الأوروبيين بينهم طبيب إيطالى ومهندسين فرنسيين هما لوفيفر وشارل لامبير Lefevre et Charkes Lambert وقد حصلا على الجنسية المصرية منذ وقت طويل . وطوال الرحلة كان الباشا العجوز وشارل لامبير يحلمان بتحقيق استثمار طيب لتطوير البلاد والنهوض بها ، وكان كل منهما يشجع الآخر بالنسبة للسودان التى وصفت منهما بأنها « الهند المصرية » ،

وجرى تفكيرهم حول إنشاء سكك حديدية فى المستقبل وترع وسدود وكلها مشروعات سابقة لأوانها لكنها مثالية إن لم تكن خيالية ، ومع ذلك فقد وصل القطار إلى الخرطوم فى نهاية القرن التاسع عشر على أيدى الإنجليز .

قام لوفيفر بدراسة باطن الأرض للبحث عن النحاس والفضة حيث وجدها فى سنار لكنه لم يتمكن من تحديدها ، أبحر فى النيل الأزرق لفحص الرمال التي تحتوى على ذهب فى فازوجال داخل حدود الحبشة لكنه لم يجد بها ذهبًا كثيرًا . انطفأت جذوة حماسة محمد على وأصبح يشعر بعدم الرضا لأن التوقعات من جانب مساعديه لم تعط أية نتائج إيجابية ، فى الوقت الذى وضع فى ذهنه أن السودان يحتوى على مناجم ضخمة . والغريب أنه فى أيامنا هذه لم يثبت وجود أى مناجم يمكن استغلالها فى السودان وظل قبل أى شىء بلدًا زراعيًا .

أما شارل لامبير فقد أسس مستعمرة زراعية للإنتاج الزراعى وأصبح الحلم حقيقة عام ١٩٢٥ م عند إقامة سد سنار على النيل الأزرق مما أتاح زراعة ملايين الهيكتارات فى مشروع سهل الجزيرة خصصت لزراعة القطن والحبوب .

اكتشاف منابع النيل :

بعيدًا عن اهتماماته ومشاغله الاقتصادية كان محمد على يأمل أن يتمكن من إعلان اكتشاف منابع النيل أثناء رحلته ، وذلك لما لهذا الاكتشاف من أهمية علمية ، وفى نفس الوقت تضفى عليه شهرة واسعة ، كى يمحو الانطباعات السيئة نتيجة شروده وانسحابه من السلطان والقوى العظمى . ذكر إسماعيل باشا لكايو منذ عام ١٨٢٢ م أن والده شديد الاهتمام بهذه المسألة وأنه يأمل أن يتوجه هو والمكتشف الفرنسى إلى منابع النيل الأبيض ، اصطحب إسماعيل معه لهذا الغرض بعثة من ضباط البحرية ، استقلوا ثلاث ذهبيات مزودة بمدفعية وعلى كل ذهبية ثلاثون رجلاً للتوجه إلى منابع النيل .

وكان الأب باويز وهو من الآباء اليسوعيين البرتغال قد اكتشف منبع النيل الأزرق فى ٢١ أبريل ١٦١٨ م وكان يصحبه امبراطور الحبشة والذى غير مذهبه إلى

الكاثوليكية متحدياً تقاليد بلاده فى المسيحية . وبعد مائة وخمسين عامًا استأنف الإنجليزى جيمس بروس أبحاث الأب باويز ، أرسل محمد على حملة أخرى للتعرف على منابع النيل .

وفى عام ١٨٣٩ م توجه البحارة ومعهم شارل لامبير والتاجر تيبو ووجدوا أنه من الصعب اجتياز النيل الأبيض ووصلوا إلى قرية فاشودا حيث تم اللقاء الشهير بين البعثة الفرنسية بقيادة الكابتن مارشاند والحملة الإنجليزية التى يرأسها اللورد كيتشنر Kitchener عام ١٨٩٨ م . لم يحقق محمد على آماله فى اكتشاف منابع النيل وكان عليه أن ينتظر للفترة من ١٨٦٠ إلى ١٨٧٠ م والتى حدث فيها صراع بين المكتشفين سبيك Speke وبيرتون Burton وبيكر Beker للتعرف على المنابع الحقيقية لنهر النيل .

اتصالات مع رؤساء القبائل:

سعى محمد على أثناء تواجده بالسودان إلى مقابلة رؤساء القبائل الرئيسية وهى مسألة لم تكن سهلة دائمًا وتحتاج إلى مفاوضات مسبقة : لأن سلطة العاهل المصرى لم تكن معروفة على نطاق واسع فى أرجاء البلاد .

كان التاجر الفرنسى تيبو يقيم فى المنطقة المتخصصة بالعبيد وسعى إلى ترتيب لقاء بين زعيم قبيلة الشلك عبدالرحمن وبين محمد على .

الجانب الدينى لرحلة محمد على :

رغم أن محمد على لم يكن معروفًا عنه أنه متدين ورع إلا أنه يكفيه أنه عاهل مسلم لدولة مسلمة كبرى ، وفى كل تنقلاته كان يساند الإسلام ، كما طرد الوهابيين من مكة والمدينة بعد أن سقطتا فى أيديهم ، وكان يفتخر بأنه المدافع عن الدين والإيمان ويؤدى دور الزعيم فى العالم الإسلامى . وقد سبب ذلك إزعاجًا للسلطان الذى يعتبر نفسه خليفة للمسلمين .

وفى الوقت الذى كانت فيه النوبة تدين بالمسيحية مثل أثيوبيا ، فإن وصول المسلمين شجعهم على الدخول فى الإسلام وظلت الديانتان متواجدتين حتى أيامنا هذه وهو مايفسر الصراع الداخلى المرير الدائر حاليًا فى السودان ، وقد زار البابا يوحنا الثانى السودان عام ١٩٩٣ م بغرض دعم وتقوية الأقلية المسيحية المعزولة داخل العالم الإسلامى . وحتى الآن ، فإن التعرف على نهرالنيل والذى أقره محمد على ، أتاحت الفرصة للإرساليات التبشيرية الكاثوليكية بالتوغل إلى جنوب السودان ومحاولة استعادة وضع الديانة المسيحية الذى كان سائدًا من قبل . أما عن سكان إفريقيا الوسطى السود فلهم ديانتهم الخاصة بهم ولم يهتموا بالديانة المسيحية ولا بالإسلام . واجهت الإرساليات الكاثوليكية صعوبات كبيرة مع النخاسة تجار العبيد لأن عدد منهم كانوا يعتنقون المسيحية السائدة فى سوريا .

نهاية حملة محمد على :

صُدم محمد على عندما اكتشف أنه خُدع ولم يجد السودان أرض الذهب كما كان يحلم وفكر فى العودة إلى مصر ، بعد أن أدرك أنه ترك البلاد فترة طويلة فى الوقت الذى حدثت تطورات وتغيرات كثيرة داخليًا وخارجيًا . وقد أرسل له وزير خارجيته باغوص بك يستعجله بضرورة العودة بسبب الأحداث التى وقعت فى أوروبا . وفى ٢ فبراير ١٨٣٩ م قرر محمد على العودة وسافر مع حاشيته إلى الخرطوم بالطريق النهرى .

وطلب من المهندسيين البقاء فى أماكنهم لمتابعة التنقيب عن المعادن وعاد إلى مصر مع باقى البعثة وعبر صحراء النوبة حتى كورسكو حيث استقل ذهبية ، وفى إسنا حيث يوجد هويس لتنظيم الملاحة على النيل ، أخذ سفينة بخارية ووصل إلى القاهرة فى ١٥ مارس واستغرقت رحلة العودة ستة أسابيع .

النتائج النهائية لحملة محمد على :

ماذا يفعل الفنيون بعد رحيل العاهل المصرى الذى قام بتوجيه اللوم لهم على فشلهم فى أعمال البحث التى طلبها منهم ؟ لوفيفر الذى أنهكه الجو الحار مات على الفور فى أكتوبر ١٨٣٩ م ، لامبير قام بجولة أخرى فى كل الاتجاهات ووصل إلى كردفان للبحث عن مناجم للحديد وانتهى به الأمر إلى العودة لمصر دون الحصول على إذن بذلك ، وشعر بالقلق والاضطراب عندما حضر لمقابلة محمد على الذى كان على درجة كبيرة من الحكمة وأحسن استقباله وعينه مديراً لمدرسة المهندسخانة .

أخذ مهندس آخر هو درانو d'Arnaud الاتجاه الخاص بعمليات اكتشاف النيل وروافده وأخذت هذه العمليات الطابع العسكرى وتمت الاكتشافات فى الفترة من ١٨٣٩ إلى ١٨٤٢ م ليعلن بعدها الحملات الاستعمارية الضخمة للقوى العظمى الغربية وفى حقيقة الأمر ، فهى لم تؤد إلى اكتشاف منابع النيل ولكن هذه البعثات جمعت معلومات قيمة عن الأنهار وأحواضها والسكان المقيمين على شواطئ الأنهار وثقافاتهم . وتعتبر هذه المعلومات على جانب كبير من الأهمية لأنها أدت إلى التوغل الجاد لأول مرة فى إفريقيا الوسطى .

غير أن هذه المعلومات أدت إلى آثار ضارة إذ شجعت تجارة الرقيق كما أن الأبحاث فى أعالى النيل أوضحت تجارة أخرى مثمرة وهى تجارة العاج ، كون تجار العاج اتحاداً قوياً ينظمهم وأسسوا مبان عبارة عن حظائر أطلقوا عليها اسم زريبة Zeribas تقع على شواطئ الأنهار وتشمل سكنا للأوروبيين وصيادى الفيلة من الأفارقة . ومن العاج اتجه المهربون أيضاً إلى تجارة الرقيق حيث يقومون بالنشاطين فى وقت واحد ، «ويخزنون» بضاعتهم البشرية فى الزريبة انتظاراً لبيعها لمشترين خصوصيين .

رحل محمد على من القاهرة فى ١٥ أكتوبر ١٨٣٨ م وعاد فى ١٥ مارس ١٨٣٩م بعد غياب خمسة أشهر ولكن إقامته بالسودان كانت ثلاثة أشهر فقط بسبب طول المسافة التى قطعها فى الذهاب والعودة واستغرقت أكثر من شهرين ، أدت زيارته إلى دعم مكانة مصر فى السودان وظل البلدان متحدين لعدة عقود تحت أشكال ومسميات مختلفة .

الفصل العاشر

(بالمرستون)

هل الرحيل المتعجل لمحمد على كان الدافع وراءه إعلان هجوم تركى وشيك ، أخذ محمد على به علماً عن طريق جواسيسه فى استامبول ، أم مجرد إحساس بذلك ؟

هذا الفرض مستبعد بدون شك لأن الأتراك لو كان بنيتهم حقاً الهجوم على مصر لكانوا قد أعلنوا الحرب فى بداية رحلة محمد على وعند الوصول إلى الخرطوم مثلاً ، ولكنه شعر بالملل من الرحلة النيلية التى قام بها ، كذلك فكر أنه ليس من الحكمة البقاء فترة طويلة خارج البلاد وبعيداً عن مسرح الأحداث الدولية ، وكانت الطريقة الوحيدة " للاتصالات " عن طريق الرسائل ، والسؤال الآن : كيف كان الوضع الدولى لدى عودة الباشا إلى مصر فى نوفمبر ١٨٣٩ م ؟

قضيـــة الشـــرق :

فى الوقت الذى كانت القوى العظمى تقحم نفسها دائماً عن قرب أو عن بعد فى الصراع المحتدم بين محمد على والسلطان ، فإن الأمور سوف تأخذ الآن مظهراً أكثر حدة داخل إطار أكثر إتساعاً .

لقد طرحت قضية الشرق ، وسوف تثير اهتمام الدول الأوروبية لفترة طويلة مع اقتران ذلك باحتمال تفكك الإمبراطورية العثمانية ، والمشكلة ليست جديدة ، ولكن كان هناك شعور فى منتصف القرن التاسع بأنه لابد من إيجاد حل دون تأجيل أو تأخير .

وضـع القـوى العظمـى :

أظهرت أربع دول أوروبية طموحات تنافسية :

– أولاً – النمسا : يحكمها سلالة أسرة الهابسبورج ولها عدة حدود مشتركة مع الإمبراطورية العثمانية ، كانت بوهيميا وصربيا وكرواتيا تشكل جزءًا لا يتجزأ من الإمبراطورية النمساوية ومتاخمة لبلغاريا والبوسنة والهرسك التى تتبع الإمبراطورية العثمانية ، ومعظم سكان تلك الدول من السلافيين وتدرك النمسا جيداً بأن أى ثورة من جانبهم سوف تحدث صدى وتكون أذنًا صاغية لسكانها حيث أنهم من أصل سلافى واحد .

لذا فإن النمسا تتمنى ، ولأسباب أمنية ، أن ترى السكان السلافيين وقد ارتبطوا بتركيا ، كما ترغب أسرة الهابسبورج الحاكمة فى النمسا أن تسيطر بمفردها على الملاحة فى نهر الدانوب حتى مصبه فى البحر الأسود ، كما لا تشعر بالراحة من رؤية بعض الدول المطلة على هذا النهر العظيم وقد تخلت عن سلطة استامبول لها .

– ثانيا – روسيا : تهتم بمضايق البوسفور – تلك المضايق الشهيرة التى تسمح لسفنها بالتوجه إلى البحر الأبيض المتوسط قادمه من البحر الأسود ، لأن دخول البحر المتوسط يعتبر أمرًا حيويًا لروسيا : فإذا لم يتمكن الأسطول الروسى من الملاحة بحرية ، سيجد القيصر نفسه فى حالة عجز ولا يمكنه القيام بأى دور فى هذا الجزء من العالم ، كما أن تفكك الإمبراطورية العثمانية يهم روسيا بالدرجة الأولى إذ إن ذلك سوف يساعدها على المرور بحرية فى المضايق ، لكن فى نفس الوقت يقوم القيصر بدور تطوعى لحماية السلاف المقيمين فى الإمبراطورية الرومانية ، وإذا كان عدد كبير منهم قد تحول للإسلام تحت ضغط المحتل التركى ، فإنهم مرتبطون إرتباطا وثيقا بأصولهم العرقية .

يشكل السلافيون مجموعة عرقية – لغوية تنتمى إلى عائلة الهندو – أوروبية ويتحدثون بلغات أصلها واحد ويشغلون الجزء الأعظم من وسط وشرق أوروبا وهم حوالى ٢٧٠ مليونًا فى ذلك العصر موزعين على ثلاث مجموعات :

– السلاف الشرقيون : الروس والأوكرانيون .

– السلاف الغربيـون : البولنديون والتشيكوسلوفاك .

– السلاف الجنوبيون : الصرب والكروات والبلغار .

ويعتبر السلاف الشرقيون الأكثر انتشاراً ولذا فإن إمامهم وهو القيصر يريد أن يفرض نفسه على أنه حامى السلاف الجنوبيين .

إضافة إلى هذه الناحية العرقية ، هناك أيضًا واقع دينى ، فمن الضرورى أن تمتد « حماية » العاهل الروسى لتشمل المسيحيين الأرثونوكس وهم رعايا السلطه ومتناثرون فى وسط اسلامى داخل الإمبراطورية العثمانية الشاسعة .

– أما عن إنجلترا ، فهى لا تود رؤية البواخر الروسية فى البحرالمتوسط لتتمكن أساسًا من السيطرة بمفردها على طريق الهند ، وتشعر بالانزعاج من تحركات الأسطول الفرنسى ولكنها لا تحاول منعها من التجول فى شرق البحرالمتوسط .

يتمكن الأسطول الروسى نظرياً من التوجه إلى البحرالمتوسط بالتحرك من موانئ البلطيق ويبدو أن ذلك كان صعباً فى تلك الفترة لنقص المعدات اللوجيستية كما أن عليه أن يجتاز مضيق جبل طارق .

من ناحية أخرى ، لم تكن إنجلترا تشعر بالارتياح أن ترى دولاً معينة تحت هيمنتها بشكل أو بآخر من الشرق الأوسط وفى نفس الوقت تحت طاعة السلطان ، وهذه الدول هى الإمارات العربية والتى لم تكن قد أخذت بعد اسم السعودية وسوف تحتل مكانة هامة فى النصف الثانى من القرن العشرين بسبب حقول البترول الخرافية لديها . عرف الإنجليز كيف يتحلون بالصبر وينتظرون اللحظة المناسبة : فبعد نهاية الحرب العالمية الأولى وعندما أصبح تقسيم الإمبراطورية العثمانية أمراً واقعًا ، استولت إنجلترا على مقدرات الإمارات والعراق والأردن ، كما ظلت مسيطرة على مصر لعدة سنوات .

– وأخيراً فرنسا :يبدو أنها لم تكن متورطة بشكل مباشر فى عملية تقسيم أسلاب الإمبراطورية العثمانية رغم أن لها علاقات اقتصادية هامة مع سوريا وعلاقة متميزة

مع لبنان ، كما تهتم أيضًا فى ذلك الوقت بالجزائر وتونس لقربهما من شواطئها ولبعدهما عن الإمبراطورية العثمانية ، ومنذ البداية ، وفرنسا تساند محمد على فى المقام الأول كعلاقة صداقة تقليدية وإخلاص نحو حليف قديم ولكن أيضًا لتقطع الطريق على نفوذ انجلترا التى تحاول بشتى الوسائل السيطرة على مصر .

تطورت العلاقات بين فرنسا وإنجلترا فى منطقة البحر الأسود بشكل إيجابى فيما بعد أيام حكم نابليون الثالث : إذ كان يحرص بشدة على التقارب الفرنسى – الإنجليزى حيث تحالف مع إنجلترا عام ١٨٥٤ م ليشرع فى حرب القرم بهدف تحجيم التوسع الروسى فى الحدود بين تركيا وروسيا .

حالة الإمبراطورية العثمانية :

مما لاشك فيه ، إن قضية الشرق تهم مصر ودول الشرق الأوسط المقتطعة من القسطنطينية ولكنها تهم فى المقام الأول سكان البلقان حيث يريد المسيحيون الأرثوذكس التخلص من عبودية المسلمين . فقد ساعد الحقد المتوارث عبر الأجيال بين الجماعات المسيحية والمسلمة على تعقيد المشكلة ، ونرى فى أيامنا هذه عمليات « التطهير العرقى » البشعة التى يقوم بها الصرب الأورثوذوكس ضد مسلمى البوسنة والهرسك فى الوقت الذى ينتمى فيه الاثنين إلى أصل سلافى واحد ولكن الدين هو المختلف . وعندما أعلن استقلال صربيا فى مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ م كان عليها أن تتنازل عن البوسنة والهرسك التى ستنضم إلى الإمبراطورية النمساوية – المجرية ، وهو وضع مقلوب عما كان عليه أيام الإمبراطورية العثمانية ، إذ كيف يتبع سكان مسلمون لحكومة كاثوليكية متزمتة فى فيينا . وحدث فى سراييفو عاصمة البوسنة والهرسك أن قام أحد المتعصبين فى ٢٨ يونية ١٩١٤ م باغتيال الأرشيدوق فرانسوا فرديناند من النمسا وهذا الاغتيال كان الشرارة الأولى التى أشعلت الحرب العالمية الأولى .

وإزاء تلك الدوافع ذات الطابع الدينى ، ظهرت اهتمامات أخرى قومية ، فمنذ ثورة اليونانيين عام ١٨٢٢ م عندما هب محمد على لنجدة السلطان ، ظهرت تطلعات قومية

فى الدول المجاورة لدى الصرب والبلغار والرومانيين ، وكانت القوى العظمى تنتظر تفتت الإمبراطورية العثمانية .

وسعت كل دولة من الدول العظمى من جانبها لمساعدة تلك الدول لحصولها على الحكم الذاتى واستقلالها عن الإمبراطورية العثمانية وكانت تمدها بالسلاح كفرنسا فى الجزائر حيث سعت للاستيلاء على بعض أملاك الإمبراطورية العثمانية .

ومع ذلك ، ففى حوالى عام ١٨٤٠ م وإزاء المخاطر العديدة لانفجار الموقف والتى من الممكن أن تحدث فى أى وقت فى البلقان ، فإن القوى العظمى تتمنى أن يبقى الوضع الراهن على ماهو عليه ، فالإطار السياسى الذى يشكل الإمبراطورية العثمانية يمثل عاملان من عوامل التوازن فى هذه المنطقة المضطربة ، ورغم بنيتها الغريبة غير المتجانسة فإنها حافظت على نفسها حتى عام ١٩٢٠ م بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى . وقد ذكر نوربير Norbert فى كتابه «تركيا فى العالم » أن الإمبراطورية العثمانية مقطعة الأجزاء خارجيا وفى حالة فساد وتحلل داخلياً وغارقة فى ديونها لم يتبق إلا ظلها وأطلق عليها الأوروبيون اسم الرجل المريض ... وهذه الجثة التى لازالت تعيش والتى كان من المفروض أن تنهار منذ فترة طويلة لولا المساندة المصطنعة لها من جانب القوى العظمى لتقف على أرجلها ، إنها تحتضر لكن لا يجب أن تموت ، هكذا قرر رؤساء الدول الأوروبية ، « وبصفة خاصة لا ينبغى لأى من القوى العظمى أن تنتهز فرصة ضعفها وفى غفلة من الآخرين تنقض عليها وتستولى عليها بمفردها » .

وهكذا ، ساعدت الخلافات بين الباب العالى ومحمد على على بقاء الإمبراطورية على قيد الحياة .

ظهور بالمرستون على مسرح الأحداث :

فى هذا الصدد ، انحاز بالمرستون إلى جانب السلطان الذى تولى الحكم بالوراثة ضد محمد على الذى يمثل فى نظره الرجل المغتصب .

والسؤال الآن .. من هو هذا الإنجليزى الذى سيكون له الدور الرئيسى فى سقوط إمبراطورية محمد على ؟ إنه بالمرستون الذى ظل اسمه فى التاريخ نموذجا للقوة والغطرسة البريطانية فى منتصف القرن التاسع عشر .

عمل وزيراً لخارجية بريطانيا فى الفترة من ١٨٣٠ إلى ١٨٤١ م ثم من ١٨٤٦ إلى ١٨٥٤ م وأخيراً رئيساً لوزراء بريطانيا من ١٨٥٥ حتى وفاته عام ١٨٦٥ م ، ترك بالمرستون بصماته على السياسة البريطانية والأوروبية والدولية فى عصره . تميز بالشراسة والعنف فى الدفاع عن الإمبراطورية البريطانية ولا يتساهل مع من يجرؤ على انتقاد بريطانيا العظمى . كان زملاؤه الأوروبيون يشنّعون عليه لكنه كان يتمتع بشعبية كبيرة فى بريطانيا ، وإذا كان يعلن على الملأ عداءه لفرنسا فإنه كان لا يتردد فى التقرب إليها إذا رأى فى ذلك مصلحة لبلاده ، وكانت له عبارة شهيرة : « ليس لدى إنجلترا أصدقاء على الإطلاق ، لها فقط مصالحها » .

موقف بالمرستون تجاه محمد على :

كل الأعمال التى قام بها محمد على لا تحوز إعجاب بالمرستون ، ولا التزامه وتمسّكه بالسلطة ، فإنه لم يقبل من محمد على أن يسخر بصورة علنية من قرارات السلطان الذى يعتبر رئيسه وألا ينفذ إلا مايروق له . من ناحية أخرى ، فرغم أنه ينتمى إلى حزب تحررى ، فإن بالمرستون لم يكن يعلن إطلاقًا أفكاراً تحررية فيما يتعلق بتحرير الشعوب ، وهكذا ، فإن تذبذب محمد على الذى أظهره تجاه الاستقلال شكلت سابقة تدعو للسخط ، مثل الوضع الذى حصل فى اليونان ، إذ جلب عدم ثقة الوزير البريطانى ، لأنه كان يريد تجنب قيام الدول المختلفة التابعة للإمبراطورية العثمانية بالتحرر حتى لا تقع تحت نير النمسا أو روسيا ، واعتبر بالمرستون أنه هو وزملاءه الطبيعيين أمثال ميترنيخ أو القيصر عليهم أن ينظموا الأمور حسب ما يتراءى لهم وحسب فهمهم هم وليس حسب مايراه ذلك « الألبانى - المصرى » المزعج ، كما يلوم محمد على بسبب ميله الطبيعى تجاه فرنسا التى تسعى إلى أن تفقد إنجلترا استقرارها فى الشرق الأوسط . ويرى بالمرستون أن محمد على وفرنسا يتصرفان معًا : فهما متحالفان ضد أعدائهما : السلطان من ناحية وإنجلترا من ناحية أخرى .

كما لم يحبذ السياسة الاقتصادية التى طبقها محمد على فى مصر عن طريق الاحتكارات التى آلت لمحمد على نفسه ولأسرته ولأصدقائه ، فقد جعل هذا النظام الاقتصادى من محمد على والمحيطين به -من خلال الدولة - الملاك الحقيقيين لثروات مصر ومحاصيلها ومنتجاتها . فالدولة الحديثة التى يفتخر محمد على بإنشائها فى مصر ، ليست فى نظر الوزير الإنجليزى سوى مهزلة ونكتة سخيفة وتؤدى إلى كارثة ، وقد كتب إلى سفيره فى استامبول اللورد بونسونبى Ponsonby فى يونيه ١٩٣٨ م قائلاً : « قسم محمد على السكان فى مصر إلى طبقتين ، الأغنياء والفقراء ، لا تشمل طبقة الأغنياء إلا محمد على فقط ؛ أما طبقة الفقراء فتضم باقى سكان مصر » ، ومن خلال المزح والدعابة الإنجليزية يظهر تحقير دفين لمؤسس مصر الحديثة .

والسؤال الآن .. كيف أن بالمرستون لم يكن مستاءً بدرجة كبيرة لإنشاء الاحتكارات الصناعية فى مصر والتى أدت ليس فقط إلى تقليل الصادرات البريطانية إلى مصر ، بل أحدثت نوعًا من التنافس الدولى للصناعات الإنجليزية مثلما حدث فى مجال صناعة المنسوجات ؟ لأن بالمرستون يرى أن السلطان الضعيف الذى يقبل بكل المتطلبات الإنجليزية والذى ليست لديه القدرة على منافسة التجارة البريطانية فإنه يعتبر أفضل حليف .

أما الذى له مصالح تجارية حقيقية وصناعات تتطور .. فمثل هذا المنافس يشكل خطراً ويجب أن يرحل مهما كانت التسهيلات التي يقدمها أو الشروط التى يكون على استعداد لقبولها ، ولهذا السبب ، وبعيداً عن الاعتبارات السياسية ، فإن تلك الدوافع الاقتصادية هى التى جعلت بالمرستون يقف بعنف ضد محمد على بحيث لم يترك وزير الخارجية البريطانى فرصة إلا وعمل على تقويض الوضع الاقتصادى لمحمد على لكى يمنعه من تقوية الوسائل التى تساعده على ذلك أى الجيش والبحرية ، ولذلك فقد عمل على منع محمد على من الحصول على موارد ضخمة من خلال احتكاراته .

كان محمد على يعرف قيمة الأموال ، فكان يغدق على المحيطين بالسلطان من الوزراء حتى يجذبهم إلى نفسه عن طيب خاطر ، كما كان يدفع رسميًا للسلطان إتاوة بصفة شخصية ولذلك كان يقدره على كرمه وسخائه . أما بالمرستون ، فقد تركت هذه الأساليب فى نفسه حنقًا شديداً على محمد على ، وذكر أنه يكن له حقداً وكراهية

ووصفه بأنه بربرى جاهل وطاغية ومضطهد لشعبه ، وأيضاً بالدجال والمشعوذ الذى يغرى شعبه بقدوم مدنية حديثة لكنها لا تتطابق مع أى شئ فى حقيقة الأمر .

الحرب السورية الثانية ونتائجها (١٨٣٩ - ١٨٤٠ م) :

نصح بالمرستون السلطان بالعدول عن شن حرب هجومية ضد سوريا وذكر له أن إنجلترا لن تساعده إلا إذا تطورت الأحداث فى غير صالح الإمبراطورية العثمانية ، وإزاء هذا الموقف الذى يتسم بالغموض ، غامر السلطان محمود الثانى بمهاجمة الجيش المصرى الذى كان دائماً تحت قيادة إبراهيم باشا ، عبرت القوات التركية نهر الفرات واشتبك الجيشان فى معركة يوم ٢٤ يونية ١٨٣٩ م فى نزيب على الحدود التركية السورية شمال حلب ، هزم إبراهيم باشا الأتراك هزيمة ساحقة . فى تلك الأثناء ، توفى السلطان محمود الثانى فى ٣٠ يونيه على أثر إنهاك متواصل قبل أن يعلم بهزيمة جيشه ، وترك السلطة لشاب صغير عمره ١٨ عاماً هو السلطان عبدالمجيد الذى استمر حكمه حتى عام ١٨٦١ ، وأصبح الرجل القوى فى الإمبراطورية رئيس الوزراء الجديد خسرو باشا العدو التاريخى لمحمد على الذى قرر أن يجعل محمد على يذوق الأمرين على يديه انتقاماً منه للإهانات التى وجهها إليه فى أوقات أخرى .

هروب الأسطول التركى :

فى هذه الفترة التاريخية الحافلة بالإثارة ، وقع حدث غير متوقع ساعد على زيادة عدم التوازن بين القوى الموجودة : إذ هرب الأسطول التركى فجأة بمبادرة من القائد البحرى التركى قبطان باشا واتجه نحو ميناء الإسكندرية وبقى تحت إمرة محمد على فى ١٥ يولية ١٨٣٩ م . ولم تتضح أسباب هروب الأسطول التركى ، من المحتمل أن يكون بسبب خلاف وقع بين قبطان باشا وخسرو باشا رئيس الوزراء الجديد ، أو قد يكون قبطان باشا تلقى وعداً من محمد على بالحصول على مكافأة سخية .

وبمجرد نزول قبطان باشا فى ميناء الإسكندرية ، تم اقتياده إلى القاهرة حيث خر ساجدًا أمام محمد على الذى استقبله بفرح واستبشار وكان من المتوقع انتظار وصول القوات العثمانية لتلحق بقوات مصر لكن ذلك لم يحدث .

أصبح إبراهيم باشا له الخيار فى أن يسير بجيشه نحو القسطنطينية للمرة الثانية إلا إذا حافظ بالمرستون والقوى العظمى على صيانة قلب الإمبراطورية العثمانية . ومن ناحية أخرى ، تدخل المارشال سول Soult رئيس المجلس الفرنسى قبل الانتصار الذى حدث فى نزيب لتهدئة حماسة واندفاع السلطات المصرية ومنع إبراهيم باشا من اجتياز الحدود التركية والقضاء على الجيش التركى ، تدخل سول فى اللعبة التى يمارسها بالمرستون على الرغم من أن محمد على يمثل ورقة رابحة لفرنسا ولكن خوفًا من تدخل روسيا فى تركيا طبقًا لمعاهدة خنكار أسكله سى فى عام ١٨٣٣والتى تنص على التدخل الفورى لروسيا فى حالة تهديد سلامة أراضى الإمبراطورية العثمانية . وعلى أى الأحوال ، فإن فرنسا لم ترد إطلاقًا فى الماضى أو الحاضر الوقوف بجانب محمد على بصورة مكشوفة خوفًا من حدوث ردود فعل متوالية فى أوروبا .

خطـــة بالمرستـــون :

تقاسم بالمرستون مع فرنسا نفس الشعور بالتخوف وصدرت الأوامر للأسطولين الفرنسى والإنجليزى بالتوجه نحو مضيق الدردنيل لردع الروس من احتمال التدخل .

ومع ذلك ، كان بالمرستون قد وضع خطة للسلام قبل معركة نزيب مباشرة يتعهد محمد على بموجبها بالجلاء عن كافة الأراضى السورية ولكن مع منحه السيادة الوراثية على مصر ، قدم بالمرستون هذه الخطة إلى وزير الخارجية الروسى الذى استقبلها بإيجابية ، فوجئ بالمرستون بانتصار المصريين فى نزيب وبوفاة محمود الثانى ، ومن ناحية أخرى ، شعر محمد على بتخوفه من القوى العظمى ولذلك أمر إبراهيم بوقف تقدمه نحو استامبول ، وإزاء هذا الموقف الإيجابى من محمد على وتعيينه واليًا على مصر والشام ، ولكن ، تحت ضغط ميترنيخ والدول الخمس العظمى :

النمسا وروسيا وإنجلترا وأيضاً فرنسا وبروسيا أعلنت معارضتها لهذا الاقتراح وقامت بتسليم محمد على مذكرة سميت المذكرة الجماعية فى ٢٧ يولية ١٨٣٩ م .

وأرادت القوى العظمى بذلك أن تسيطر على الأحداث ، ولا تشك لحظة فى أن ترى إبراهيم باشا وقد وصل إلى استامبول ، والحقيقة إن المرء يقف حائراً إزاء تلاحق الأحداث وسرعة اتخاذ القرارات من جانب الوزراء والسفراء فى وقت كانت فيه وسائل الاتصال لازالت بطيئة .

أزمة عام ١٨٤٠ م :

أصبح لدى بالمرستون الآن الوقت الكافى لاستئناف مخططه بالتعاون مع القوى العظمى والاستمرار فى لعبة الشطرنج التى يهواها وتطبيقها فى السياسة .. يقوم ميترنيخ بعقد مؤتمراً فى فيينا فى يوليه ١٨٣٩ م ويعلن فيه المندوب الفرنسى موافقته على اقتراحات إنجلترا على الرغم من الحملة الصحفية الضخمة فى فرنسا لصالح محمد على ، ومن ناحية أخرى ، يعلن السفير الفرنسى فى لندن أن حكومته تعارض إجبار المصريين على الجلاء بالقوة عن الشام .

طرحت قضية الشرق جانباً لفترة وظل محمد على ساكناً فى مكانه ، رغم أن السلطان الجديد استغل شبابه ونشاطه ليبدأ إصلاحات تأخر تنفيذها فى الإمبراطورية .

وصول تيير إلى السلطة :

أقيل المارشال سول من منصبه كرئيس وزراء لفرنسا وحل محله أدولف تيير Adolphe Thiers ، وبقى جيزو Guizot سفيراً لفرنسا فى لندن ، احتفظ تيير بوزارة الخارجية أيضاً ، وكانت العلاقات بين بالمرستون وجيزو طيبة ، أحيا تيير بحث قضية الشرق مرة أخرى ، إلا أن موقفه كان صعباً بين الملك لويس فيليب الذى يرغب فى إقامة علاقات حسن تفاهم مع إنجلترا وبين الرأى العام الفرنسى الذى يؤيد محمد على وتمجده الصحافة .

أعلن بالمرستون موقفه صراحة فى أنه لا يسمح لمصر أن تمتلك الشام ، فى الوقت الذى استقرت فيه فرنسا بالجزائر . وفى الوقت الذى كانت فيه مصر صديقة لفرنسا ، فإن منطقة النفوذ الفرنسية كانت عملياً ممتدة بين المغرب حتى خليج الإسكندرية .

رغم الصعوبات التى تواجه تيير ، فإنه أخذ خطاً متشدداً وأكد أن محمد على ينبغى عليه الاحتفاظ بالشام .

لكنه قام بجولة إلى ساحل العاج ، وانتهزت القوى العظمى الأخرى الفرصة وواصلوا التواطؤ بتحريض من بالمرستون وميترنيخ . « وقررت إنجلترا والنمسا وروسيا وبروسيا ودون إخطار فرنسا بتسوية المسألة التركية – المصرية بمفردهم . ولما علم تيير قرر إجراء مفاوضات مباشرة مع السلطان ومحمد على بدون علم القوى العظمى الأخرى ، التى شعرت بالانزعاج الشديد ، إلا أن تلك الإجراءات من جانب القوى العظمى لاقت قبولاً ورغبة من محمد على .

تغير الموقف لصالح محمد على :

وقع حادث مفاجئ آخر فى القسطنطينية : فقد أقال السلطان خسرو باشا رئيس الوزراء وعين مكانه أحمد فتحى باشا سفير تركيا السابق فى باريس . شعر محمد على بالسرور البالغ : فقد تخلص من عدوه اللدود خسرو بينما خلفه حريص على تشجيع المصالح الفرنسية ، وهذا ما جعل محمد على يخفف من مواقفه المتشددة . وكبادرة للولاء للسلطان ، أمر بإعادة الأسطول التركى الذى كان محجوزاً بالإسكندرية .

وأعلن محمد على عن نيته فى استئناف المفاوضات المباشرة مع الباب العالى على أمل الوصول لحل عادل يرضى الطرفين . وفى الواقع ، كان محمد على يفضل دائمًا إيجاد علاقات مباشرة مع استامبول بعيداً عن القوى العظمى التى تضع فى المقام الأول مصالحها الخاصة بها والتى تكون أحياناً متعارضة ؛ إذ أدت المنافسة فيما بينهم على الصعيد الدولى إلى تجاوز قضية الشرق ، فأحياناً يساندون محمد على وأحياناً أخرى يقفون بجانب السلطان حسب ما تمليه ضرورات سياساتهم فى اللحظة الحاضرة .

أدرك محمد على أنه يجب أن ينحاز للقوى العظمى لأن ضعف الإمبراطورية العثمانية أصبح فى هذه المرة فى غير صالحه ، فلو كانت الإمبراطورية العثمانية أكثر تماسكًا لما تكالبت عليها القوى العظمى وتدخّلت فى شئونها الداخلية ، وعلى ذلك أصبح الباشا أكثر اقتناعًا أنه فى مقابل تنازلات إقليمية معينة فسوف يحصل على ملك مصر له ولأسرته من بعده .

فى يولية ١٨٤٠ م ، فقد بالمرستون صبره وأراد أن ينهى المسألة المصرية لأنه لولم تقبل خطته فسوف تنقسم الإمبراطورية العثمانية إلى جزأين : جزء تحت حماية محمد على والنفوذ الفرنسى ، والجزء الآخر يدخل فى الفلك الروسى ، وقد اهتز رئيس الوزراء البريطانى بالتهديدات التى عرضها عليه وزير خارجيته بالمرستون وأعطاه موافقته ، وعندئذ استدعى سفراء روسيا والنمسا وبروسيا وتركيا ، وقدم إليهم الموضوع بتجهم وخشونه وقررت الدول الأربع العظمى تجاهل فرنسا لأنها لن تدخل الحرب ضد أوروبا من أجل قضية محمد على .

توقيع معاهدة لندن :

تم توقيع معاهدة لندن فى ١٥ يولية ١٨٤٠ م ، حصل محمد على بموجبها على حكم مصر وراثيًا ولمن يأتى بعده من أسرته من الذكور وتبقى معه فقط طوال فترة حياته عكا فى الجزء الجنوبى من سوريا (فلسطين) وإخلاء جزيرة كرتب والحجاز وأدنه مع إعادة الأسطول العثمانى ، وإذا لم يقبل هذا القرار فى مدة عشرة أيام ، يحرم من حكم ولاية عكا (فلسطين) ، فإذا استمر رفضه مدة عشرة أيام أخرى يصبح السلطان فى حل من حرمانه ولاية مصر كما يدفع محمد على جزية سنوية للسلطان ، كما يلتزم محمد على بتطبيق كافة المعاهدات التى أبرمتها الإمبراطورية العثمانية مع الدول الأوروبية ، على أن تعد قوات محمد على البرية والبحرية جزءًا من قوات الإمبراطورية العثمانية وتكون فى خدمة السلطان ، فى حالة رفض محمد على على هذه الشروط يلجأ الحلفاء الموقعون على هذه المعاهدة إلى استخدام القوة ضده مع التزامهم بحماية عرش السلطان العثمانى .

ولقد وقعت الدول الأوروبية العظمى هذه المعاهدة فيما عدا فرنسا ، حيث تم الاتفاق من وراء ظهرها نظراً للتنافس التقليدى بينها وبين إنجلترا ، وبدأت فرنسا فى تحريض محمد على لكى يرفض شروط المعاهدة ، إلا أنها سرعان ما تركته وحده فى الميدان .

أما محمد على فقد رفض المعاهدة وتأهب للحرب واستعدت الدول الأوروبية المتحالفة لحصاره ، وفى الوقت نفسه قام أهالى سوريا بثورة ضده ، وانتهى الأمر بقبول محمد على شروط معاهدة لندن .

استمرت الأسرة العلوية تحكم مصر حتى عام ١٩٥٢ م حيث كان الملك فاروق آخر سلالة محمد على رغم أنه لم يكن يشبهه لا فى الجسم ولا فى الأخلاق .

الفصل الحادى عشر

الحياة فى مصر فى عهد محمد على

مرت الحياة فى مصر فى عهد محمد على بتطور بطئ للعقول والسلوك وتميزت بتغيرات محسوسة . ومن الضرورى تحليل الجوانب المختلفة للوقوف على تلك التغيرات التى أثرت بشكل واضح على إطار الحياة لسكان المدن أو سكان الريف وأيضًا على المشاكل الاجتماعية . كما تطورت النظرة العقلية للأمور الدينية أو دور المرأة ، ولوحظ أيضًا تقدم واضح فى مجالات الصحة والتعليم وظهور بوادر لحياة ثقافية معينة .

القاهرة فى النصف الأول من القرن التاسع عشر :

السياسة الخاصة بتنظيم المدن فى عهد محمد على :

أوضح كتاب « وصف مصر » الذى ألفه العلماء الفرنسيون ، أن القاهرة لم تتغير كثيراً منذ القرن الخامس عشر سواء فى المساحة أو فى عدد السكان ، وقد قدر عدد السكان عند مجىء نابليون بونابرت بحوالى ٢٦٠ ألف نسمة بينما لم يزد العدد عن ٢٨٢ ألف نسمة عام ١٨٦٥ م مما يدل على ثبات واستقرار عدد السكان بصورة تدعو للدهشة حيث تجاوز العدد الآن أكثر من عشرة ملايين نسمة ، ومن المنتظر أن يصل العدد إلى ١٥ مليون نسمة بحلول عام ٢٠١٠ م . ولذا فإنه من المنتظر حدوث كثافه سكانية فى المدن نتيجة للإزدهار الاقتصادى للدولة وللتقدم الصناعى . إلا أن محمد على لم يشجع إطلاقًا الهجرة من الريف إلى المدن : وأصر على إنشاء مصانع المنتجات

الزراعية فى نفس أماكن الانتاج . وبصفته مالك أرض فى الأصل ومعتاد على السكن فى المدن الصغيرة ، فلم يرد أن يفرّغ الريف من سكانه لأنه لم يكن يسعى إلى تكوين طبقة من عمال المدن تكون تربة خصبة لانتشار الأفكار الثورية . ومن ناحية أخرى ، فلو كان مثلاً مهتمًا بتنمية بلده فى معظم المجالات ، فقد تجاهل عن عمد التخطيط العمرانى للمدن حيث إن هذا الجانب لم يستحوذ على اهتمامه بل كان كل همه الاهتمام بمشاكل المعيشة ، وفى الفترة من ١٨٠٥ إلى ١٨٤٩م ، لم تتغير القاهرة كثيراً .

ومما لا شك فيه أنه بتأثير من محمد على حدث اهتمام كبير بنظافة المدينة لكن لم تنفذ أى عملية كبيرة للتخطيط العمرانى داخل القاهرة . وبعد أقل من عشرين عامًا قام نابليون الثالث بتنفيذ مشروعات ضخمة عمرانية فى باريس وذلك جنبًا إلى جنب مع التوسع الاقتصادى فى فرنسا حيث قام البارون هوسمان بإنشاء باريس الحديثة وكذلك فى مارسيليا وفى ليون . أما مع محمد على فلم يحدث شىء من هذا القبيل : إذ كان يرتاب كثيراً من مدينة القاهرة ومن حالات الفتن والثورات الشعبية العديدة التى كانت تحدث عبر القرون ، أما الإمبراطور، فكان يرى فى افتتاح المحاور المرورية الضخمة وإلغاء الطرق المهلكة والخطيرة طريقة فعالة لوأدّ أى عصيان شعبى فى مهده . أما محمد على ، فلم يستوعب سياسة التنظيم العمرانى ، بل كان همه الشاغل زيادة ثروته الشخصية ولم يدرك الفائدة الكبرى التى تعود عليه من عمليات التنمية العمرانية كما فعله بعض رجال السياسة فى الإمبراطورية الثانية .

كما يفسر الركود الذى كان سائداً فى القاهرة بتفضيل محمد على الإسكندرية على القاهرة ، فرغم تاريخ الإسكندرية العريق من أيام الإسكندر الأكبر والبطالمة حيث كانت تضم أكثر من خمسة آلاف قصر وألف حديقة ، لم يتبق منها سوى أطلال ، .. حتى فنار الإسكندرية أحد عجائب الدنيا السبع والذى كان ارتفاعه ١٣٠ مترا لم يعدله أثر إذ دمره الغزاة العرب . كان محمد على مغرمًا بالاسكندرية لوقوعها على البحر الذى كان يشد انتباهه عندما كان فى بلدته قولة . كما أنشأ وزارة الخارجية فى الإسكندرية .

عانت القاهرة وهى العاصمة لكل الأقليم المصرى - من نفوذ ومنافسة المدينة التى تطل على البحر . أما إبراهيم باشا فقد أدرك أهمية القاهرة وعمل على إدخال

الاصلاحات الإدارية والاقتصادية للبلاد عن طريق تحديث العاصمة ووصل عام ١٨٣٠ م إلى إقناع والده بإعداد تصميمات ومخططات لمشاريع عمل للمدينة . وتقرر إعداد التصميمات لإنشاء شارع تجارى ضخم هو شارع الموسكى تم حساب عرضه بتلاقى جملين محملين ، وكانت حركة المرور فى ذلك العصر متواضعة جدا ؛ فقد ترك الموكب الضخم لنابليون انطباعًا كبيرًا فى المدينة حيث كان الباشا فقط وبعض كبار الأعيان هم الذين لهم عربات تجرها خيول . ظلت العمليات العمرانية بالرغم من ذلك محدودة فى القاهرة حتى عام ١٨٥٤ م عندما وصل خط السكك الحديدية الإسكندرية – القاهرة – السويس إلى العاصمة : وكان من المفروض قبل ذلك إنشاء محطة مركزية تليق بمقام العاصمة واشتدت الحاجة إلى إعادة تحديث وسط المدينة ولكن تم كل ذلك فى عهد الخديوى إسماعيل باشا الذى حكم من ١٨٦٩ إلى ١٨٧٩ م حيث تم تنفيذ المشروعات العمرانية على أيدى المقاولين الأوروبيين .

مدينة القاهرة :

أول مدينة أُنشئت هى الفسطاط على النيل عام ٦٤٢ على أيدى الغزاة العرب . وأنشئت القاهرة الحالية بعد ثلاثمائة عام وعلى بعد خمسة كيلومترات على يد أول خليفة فاطمى وسمّاها القاهرة ومعناها « المنتصرة » .

فى بداية القرن التاسع عشر كانت القاهرة تبدو رائعة وذلك بشهادة الذين زاروها فى تلك الفترة . وكانت تبدو وكأنها مدينة خرافية يخترقها النيل بمياهه الحمراء الغرينية تعلو بما فيها مآذن ١٥٠٠ مسجد . وتتفوق القاهرة عن بعد بالمدن الإسلامية الأخرى بالشرق ، بما فى ذلك استامبول وموقعها الفريد على البوسفور . إذ كان السلطان يشعر بالمرارة لأن المقارنة بين العاصمتين تميل لصالح القاهرة .

وقد قام شاتوبريان برحلة نيلية طويلة وبطيئة وأخيراً وقع بصره على القاهرة « كان النيل فى ذلك الوقت أشبه ببحر صغير ، وامتزاج رمال الصحراء بالخضرة اليانعة والنخيل وأشجار الجميز والقباب ومساجد ومآذن القاهرة . والأهرامات البعيدة

عن سقاره حيث يبدو من هناك وكأن النهر يخرج من خزاناته العديدة .. كل ذلك يشكل لوحة لا مثيل لها على وجه الأرض » .

وعند الدخول إلى القاهرة نجد أن المدينة لها ٦٠ باباً ، وفى ميدان الأزبكية نجد موقعًا مربعًا يحيط به القصور والفنادق والمنازل الفاخرة . وتنساب الشوارع الفسيحة وعلى جانبيها أشجار السنط الرائعة وتصطف مقاهى متواضعة لكنها مليئة بالمترددين عليها . وكان يوجد بوسط الميدان حوض كبير يمتلئ بمياه النيل أثناء الفيضان حيث كان يتم فيه الاحتفال بعيد وفاء النيل . وكان هذا الحوض نادراً ما يمتلئ طوال العام فعمل نابليون على ملئه وحول وسط الميدان إلى حديقة غناء يفوح منها شذى الورود وعبير الزهور . وإذا انتقلنا إلى المدينة القديمة ، نجد الشوارع الضيقة المتعرجة والحمير هى وسيلة النقل الوحيدة .

وأهم ما يجب الاهتمام به هو الحماية ضد حرارة الشمس ، وفى بعض الطرقات توجد بلكونات من الخشب تخرج منها مشربيات . وفى الشوارع الفسيحة مثل شارع الموسكى نجدها مغطاه بحصائر مجدولة أو بسعف النخيل والأرض ليست مرصوفة وترش حتى فى الشتاء لتخفيف حدة الغبار .

كل حى له أبوابه الخاصة به ويتم غلقها فى المساء لدواعى الأمن مثلما كان يحدث فى العصور الوسطى فى أوروبا . منازل الأحياء الشعبية فقيرة ومتلاصقة يفصلها حارات ضيقة ومظلمة .

أما عن القلعة التى أسسها صلاح الدين الأيوبى فهى تشرف على المدينة من فوق جبل المقطم وكان يتم الوصول إليها عبر طريق ضيق استغله محمد على فى أحد أيام شهر مارس ١٨١١ م وقام بمذبحة المماليك وبعد ذلك استبدله بشارع فسيح محاط بالأشجار .

تعتبر القلعة بمثابة مدينة حقيقية تضم قصوراً وحدائق وعشرات المساجد وثكنات للجنود وترسانات ومبان إدارية . وقد أمر محمد على ببناء مسجده فى أعلى نقطة وكان قد بدئ فى إنشائه عام ١٨٢٠ م ولم يتم بناؤه إلا بعد وفاته عام ١٨٥٧ م ويوجد بداخله برج صغير مربع يحمل ساعة حائط وهى هدية من الملك لويس فيليب إلى

محمد على . ويقع قصر محمد على بجوار المسجد وهو بناء حديث لكنه متواضع والأثاث أغلبه صناعة أوروبية . وأهم شئ كان يهتم به محمد على هو أريكته . وقد فاجأ لويس الرابع عشر العالم ويثير إعجابهم عندما بنى قصر فرساى . أما محمد على فلم يكن يهتم بتأكيد مركزه العالمى بالاندفاع أو بنوعية الإنشاءات . كما لم يكن يفضل الأماكن كثيراً بالقاهرة بل يقضى أغلب أوقاته فى قصره برأس التين بالإسكندرية .

ومن المساجد الشهيرة بالقاهرة الجامع الأزهر الذى يعتبر أشهر جامعة إسلامية .

النشاط الاقتصادى بالقاهرة :

يقتصر النشاط الاقتصادى فى القاهرة حتى في أيام محمد على على الحرف والتجارة . تقع الأسواق الكبرى للمنتجات الطازجة وأسواق المواشى فى أطراف المدينة وكذلك المذابح والأنشطة الأخرى التى تساعد على التلوّث ودبغ الجلود وصناعة الفخّار . وقد أنشأ محمد على داراً لصناعة السفن بمساعدة الفرنسيين فى بولاق . من ناحية أخرى ، ظهرت السياحة فى مصر وبدأت أعداد غفيرة من الأوروبيين تزور مصر وتقيم بالقاهرة وينزلون فى فنادق وكان فندق الشرق المطل على ميدان الأزبكية أشهر الفنادق فى ذلك العصر .

إدارة المدينـة :

بالرغم من نقص التخطيط العمرانى وانعدام الظروف الصحية والتواجد المفاجئ لأكوام القاذورات فى الشوارع ، فإن المدينة كانت مقسمة تقسيماً جيداً وتدار بصورة سليمة . وقد دهش الجنود الفرنسيون لدى وصولهم لما لمسوه من طابع الحفاوة وعمق القاهرة واتساعها حتى أنهم وجدوها أكبر من مدينة باريس وكانت أغلب الأحياء نظيفة والخدمات العامة على أفضل حال حيث تديرها شركات متخصصة : حيث تتولى الإشراف على حاملى المياه لتوزيعها على المنازل ، وشركة أخرى للنقل بواسطة الحمير والجمال ، وشركة ثالثة تتولى جمع القمامة من المنازل والتخلص منها فى أماكن مناسبة .

كان نابليون بونابرت مغرمًا دائمًا بالتنظيم العلمى ، ولذلك قام بتقسيم القاهرة إلى ثمانية أقسام ليتمكن من إدارة المدينة ولتسهيل جباية الضرائب . وحافظ محمد على على تلك التنظيمات بل وأضاف عليها ترقيم الشوارع والمنازل ، وأدخلت بعض التحسينات على شبكة الطرق ، وألغى محمد على المصاطب الموجودة فى الشوارع التى يكثر فيها مرور الناس لأنها كانت تعتبر إشغالاً للطرق وتغييراً لحركة المرور . كما منع تركيب المشربيات الخشبية لأنها كانت تساعد على انتشار الحرائق واستبدلت بالزجاج .

المجتمع العمرانى :

يتمركز المجتمع العمرانى لمصر العثمانية بصورة أساسية فى مدينة القاهرة . ويوجد ثلاثة مستويات من هذا المجتمع :

– الطبقة الحاكمة : وتوجد فى القمة وتنقسم إلى عنصرين :

* المماليك أو البكوات : حيث يتم اختيار كبار الموظفين والرتب العالية منهم ورؤساء الإدارة والجيش . وهم أصلاً عبيد تم شراؤهم من جورجيا أو شراكسة ويستمدون مواردهم وثرواتهم من استغلالهم للفلاحين من جباية الضرائب .

* هناك أيضًا طبقة الإنكشارية : وهم أقل شهرة من المماليك وأصلاً من الأتراك وكانوا حراس الوالى الذى يعيّنه السلطان وتأتى مواردهم من تحصيل الإيجارات فى المدينة وأيضًا رسوم الجمارك .

كان هناك إذن توزيع بين فئتين من الطبقة الحاكمة : الفئة الأولى وهم المماليك يضطهدون الفلاحين ويستنزفونهم والفئة الثانية وهم الإنكشارية يستغلون سكان المدن .

– الطبقة المتوسطة : وكانت أساسًا من العلماء وكانوا أقرب للنبلاء واستطاعوا الانخراط فى الحياة الأرستقراطية بينما الطبقة الحاكمة من الأجانب وأصلهم من العبيد .

مارس العلماء ورجال القانون التعليم والقضاء ، وكان عددهم حوالى خمسة آلاف أغلبيتهم الساحقة من المصريين وكانوا على علاقة طيبة بالطبقة الحاكمة .

فى القاعدة هناك الطبقات الشعبية وهم باقى سكان القاهرة وهم حوالى ٢٠٠ ألف ويمارسون الأنشطة الاقتصادية التقليدية والحرف والتجارة .

كان يوجد من بين تلك الفئات طبقة أغنياء بورجوازيين من التجار وملاك العمارات وكانت المصاهرة والزواج يجمع بينهم ويكوّنون طبقة رجال الأعمال .

أما الطبقة المتوسطة فهم الحرفيون وصغار التجار .

– أما الطبقة الكادحة فتضم الحمّارين والسقايين وعمال اليومية والذين ليس لهم أجر ثابت . ولأن دخلهم ضعيف جداً فكان يبدو عليهم الهزال وسوء التغذية ويسكنون فى أماكن حقيرة فى أطراف المدينة .

وهناك أخيراً الفقراء والمعوزين وموردهم الوحيد الشحاذة .

عندما تولى محمد على السلطة فى بداية القرن التاسع عشر حدث تطور ضئيل فى تلك التركيبة التقليدية . فتميّزت الطبقة الحاكمة بتركيز السلطة فى يد بعض البكوات وكان من أثر ذلك زيادة الضغط على سكان الريف .

كما شعر العلماء من جانبهم أن دورهم يتعاظم كوسيط بين الشعب والطبقة الحاكمة وبدأوا فى ممارسة دوراً سياسياً مثلما حدث فى ثورات القاهرة المختلفة . كما ازدادت أهميتهم بسبب نفوذهم وتأثيرهم على القوى الدينية فى البلاد . وكان محمد على يعرف مكانة العلماء عندما كان يناضل بشراسة ضد المماليك واعتمد عليها بمهارة للوصول إلى السلطة . ومنحهم حق الحصول على دخل من الضرائب الزراعية – الالتزام – التى كانت مخصصة حتى ذلك الوقت للمماليك . وحل العلماء والتجار محل المماليك وأصبحوا يشكلون قاعدة للتنظيم السياسى والاقتصادى لمصر العثمانية . وتأكد دورهم البورجوازى فى إدارة الأعمال وفى التجارة والصناعة . ومنذ أن تولى محمد على السلطة كان العلماء وطبقة التجار البورجوازيين يشكلون جزءاً من الطبقة الحاكمة .

المجتمع الريفى :

ظهرت آثار سياسة التنمية الاقتصادية التى طبقها محمد على بشكل واضح وملموس فى تطوير ورقى سكان المدن بينما لم يتضح أثر ذلك على سكان الريف بل ظلت تلك السياسة مجمدة منذ قرون ولم يحدث إلا تطوير بطىء .

فقد حدث تعديل فى نظام ملكية الأراضى . كانت الأرض ملكًا للدولة . ويجب عدم الخلط بينها وبين الملكية الشخصية للحكام والتى كانت موجودة من أيام الفراعنة ثم السلطان وبعد ذلك محمد على نفسه الذى أكد على نظام الاحتكار . معنى ذلك هناك أملاك عامة وأملاك خاصة يضمها الحاكم . والشئ المؤكد هو ذلك الفلاح البائس الذى لا يملك شيئًا من الأرض وإنما يزرعها لحساب الدولة وينتفع من ورائها بعد تسديد ما تقرره الدولة من ضرائب تقصم ظهره بل يعمل فى الأرض بنظام السخرة بلا رحمة وليس لديه أى وسائل مادية لإقتناء أرضه بل يحيا عيشة الكفاف هو وأسرته ولكى يتسنى له ذلك ، يخفى جزءًا من المحصول يعيش به هو وأسرته من جشع مالك الأرض ومن سطوة الملتزم فى جمع الضرائب واستغلال نفوذه فى فرض إتاوات خارج الضرائب المقررة لكى يعوض ما دفعه للخزينة ويحقق فائضًا ماليًا .

أدعى محمد على لنفسه حق ملكية الأراضى بصفته ممثل السلطة العثمانية فى مصر . وقد استفاد محمد على من وراء ذلك فائدة كبرى . أنشأ فى البداية إدارة إشراف الدولة على الأراضى الخاضعة للضرائب ثم أدخل تعديلا فى النظام الأساسى للملكية ، إذ أعاد توزيع مساحات من الأرض على الفلاحين وذلك للانتفاع بها بشرط دفع ما تقرره الحكومة من ضرائب وأموال لا تنزع الأرض من المنتفع إلا إذا عجز عن دفع ما عليها من أموال ، وهناك فريق آخر توزع عليه الأرض بالحيازة (لفترة محدودة) وفريق ثالث يحصل على قطعة أرض معفاه من الضرائب مقابل الخدمات التى يقومون بها للحكومة من حيث استضافة موظفى الحكومة فى المهام المختلفة .

أما ملاك الأراضى السابقون فقد استبعدهم محمد على بقسوة ، وضمّ الأراضى له ولأفراد أسرته وكبار رجال الحاشية وكبار الموظفين وبعض الأجانب وبعض رؤساء قبائل البدو ونشأت بذلك طبقة من أصحاب الملكيات الكبيرة . واهتم أصحاب تلك الأراضى بإدخال زراعات جديدة وتطويرها مثل القطن طويل التيلة .

وقد وصف أحد السويسريين الذين قدموا إلى مصر لتطوير زراعة القطن حالة الفلاح المصرى قائلاً إن الحكومة تتعمد عدم تطوير الفلاح أو نقل أى تقدم فنى له بل تركه ليعمل كآلة إنتاج ويعامل معاملة أقل من الحيوان الذى يعمل فى المزرعة .

كما لوحظ أن فلاح الدلتا أحسن حالاً من فلاح الصعيد وذلك بفضل نظام الرى فى الوجه البحرى مما يتيح له أن يزرع أرضه عدة مرات ويربح من ورائها بينما فلاح الصعيد قابع فى مكانه ويطبق أساليب الزراعة البدائية والتقليدية التى تعتمد على رى الحياض .

أما عن البدو فهم معتادون منذ قرون طويلة على التنقل والترحال للقيام بغزوات وغارات على أراضى الفلاحين لكنهم شعروا بالفزع لشراسة الفلاحين والتصدى لهم مما جعلهم ينشدون الاستقرار والإقامة فى المدن بعيداً عن التهور .

حياة النساء :

كيف كانت المصرية تعيش التغيرات العميقة للمجتمع فى ضوء الإصلاحات التى أدخلها محمد على ؟ هناك فكرة عامة تقول بأن مكانة المرأة فى العالم الإسلامى ظلت جامدة على مر التاريخ بسبب التزامها بالدين الإسلامى ، وأن الدور البسيط الذى منحها الإسلام أنكر عليها أى إمكانية للرقى والتطور فى المجتمع الحديث . وقد تمردت جوديت توكر مؤلفة كتاب « النساء فى مصر فى القرن التاسع عشر » على هذا الزعم قائلة « إن كثيراً من المؤلفين اتجهوا نحو الإسلام لوصف وتفسير وضع المرأة فى ضوء العادات والمفاهيم والأعراف «الإسلامية » ووجدوا أنها تؤكد دور المرأة فى المجتمع » . فهى تعتبر أن هذا الدليل السهل ليس هو المطلوب إثباته وإنما تريد أن توضح أن القوانين والعادات الإسلامية ماهى إلا انعكاس لحقيقة وضع وظروف المرأة . وعندما نقول إنها لم تتطور بسبب المبادئ الإسلامية الصلبة ، فإن تاريخ المرأة فى مصر فى القرن التاسع عشر يدحض هذا القول لأن النساء ساهمن بقوة بنشاطهن فى إحداث تغييرات فى المجتمع .

شعرت المرأة المصرية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر بانفتاح بلدها على العالم الغربى ، ورغم التقاليد التى تقف حجر عثرة أمامها ، وجدت نفسها مضطرة إلى التأقلم مع تلك التقاليد الغربية حسب رغبتها وأحيانًا للضرورة . فكانت نساء الطبقة العليا من المجتمع على صلة وثيقة بالغرب عن طريق ترددهم الدائم لأوساط السفارات والأعمال . أما عن المرأة فى الريف ، فإن العامل الرئيسى فى التغيير يكمن فى حصول المرأة على حق التملك . فالقانون الإسلامى يعطى المرأة فى الواقع الحق فى الميراث لممتلكات عائلتها ، كما أن من حقها امتلاك المهر . ومع ذلك ، فإن القانون الخاص بالميراث لم يكن يطبق بدقة بالنسبة للفلاحين المتزوجين من مدينة أخرى بحجة عدم ضياع الممتلكات وإبقائها لصالح الأخوة المقيمين فى الأسرة . كما أن حق الزوجات فى امتلاك أثاث المنزل كان بصفة عامة غير معترف به باسم المحافظة على وحدة الأسرة . ثم بدأت النساء على استحياء فى تكوين اتحادات على غرار الرجال للدفاع عن مصالحهن . وبالتدريج ، بدأت الأفكار تفرض نفسها . وفى نفس الوقت بدأت بعض النساء فى القاهرة تمارس أنشطة مغايرة لما يمارسه أزواجهن كبعض الصناعات اليدوية والتجارة الصغيرة ومساعدة الأسر فى المنازل .

أما بالنسبة للتعليم ، فكان هناك تمييز شديد بين الولد والبنت وظلت محرومة منه فترة طويلة وكانت المدارس الرسمية المحدودة مخصصة فقط للبنين . ولم يكن يوجد سوى مدرسة نسائية واحدة هى مدرسة الولادة ولم يكن يدخلها إلا الحبشيات .

وذكرت جوديت توكر أن التمييز ضد النساء نشأ عن التقاليد المحلية ومن التأثير الغربى ، لأن انتشار أفكار الثورة الفرنسية والتأثير الأوروبى جاء فى غير صالح المرأة . وفى ذلك العصر ، كان الأوروبيون فى القاهرة والاسكندرية يسعون إلى تأكيد السيطرة على الاقتصاد المصرى من تجارة ونقل وصناعات ناشئة أو ممارسة دور سياسى على حساب الإمبراطورية العثمانية . وكانوا يسخرون دائمًا من حقوق المرأة إضافة إلى محمد على . كما أن التقاليد المحلية السائدة والتى تعكس الحالة النفسية التى تسيطر على عقلية سكان الشرق الأوسط منذ قرون عن هذا الموضوع :

« يا مآمنة للرجال ، يا مآمنة للمية فى الغربال » .

« العِجْل اللى تربيه واحدة ~~ست~~ عُمره ما يقدر يحرث أرض » .

وعلى الصعيد السياسى ، ظهرت النساء فى المناسبات الكبرى ، فقد أبدين نشاطًا ملحوظًا فى ثورات القاهرة أيام حكم المماليك وكذلك أيام حكم محمد على ، وفى المظاهرة التى قامت بالقاهرة عام ١٨١٤ م ، تطالب بإلغاء نظام « الالتزام » . وهى الضرائب التى كان يجمعها الملتزم من الفلاحين على الأرض الزراعية والمحاصيل . فكانت ربات البيوت وليس الرجال هن اللائى يقدن المظاهرة .

ظهرت عوامل متناقضة فى تطوير المرأة : ففى الوقت الذى كان بإمكانها تأكيد حقوقها الاقتصادية بل والسياسية ، إلا أنها ظلت دائمًا خاضعة للقانون الإسلامى والعادات والتقاليد المؤيد لنظام رب الأسرة فالمرأة لا يمكنها تجاوز حدودها أو تفرض سيطرتها على الخلية الأسرية المعترف بها من الجميع بل عليها أن تظل مخلصة للتقاليد .

المسائل الدينية :

أدى وضع المرأة إلى تأكيد دور الإسلام وتأثيره الحاسم والسؤال الآن .. ما هو موقف محمد على تجاه المشاكل الدينية ؟ من المعروف عنه أنه مسلم فى الأصل ويمارس عبادته باعتدال ويتسامح تجاه الديانات الأخرى مثل الأقباط المسيحيين . وكان يجب أن يظهر لأسباب تكتيكية بأن يؤكد أمام السلطان والإسلام كحامى حمى الإسلام والمسلمين ومحرر المدينتين المقدستين مكة والمدينة . ولكى يتمكن من الوصول إلى السلطة استعان بالعلماء ورجال الدين ولعب بورقة أنه مواطن مصرى فى مواجهة حكومات أجنبية فى الأصل كالمماليك أو الأتراك .

يؤمن محمد على بالله ولكنه يستغل صفته كمسلم ليفرض نفسه على الشعب . كما أنه بعيد تمامًا عن التعصب الدينى مثل عدد كبير من الحكام المسلمين فى القرن العشرين . وعلى أى الأحوال ، فإن هذا المسلك لم يكن له أى صدى فى ذلك العصر لأن السكان المسلمين لم يكن لديهم أى شك أو عدم ثقة أو تحفظ تجاه الغرب .

والواقع أن انتشار الإسلام فى أوروبا كان موجودًا قبل مجىء الأتراك وفرضه بالقوة لأن السلطة العثمانية استخدمت الإسلام لأغراض سياسية محضة . ولم يتصرف محمد على خلاف ذلك .

لم يشعر العالم الإسلامى أنه مهدد فى أرضه ، ومقصود تغييره بديانات أخرى كالمسيحية . فعصر الحروب الصليبية انتهى من زمن بعيد . وفى الواقع ، فإن الشعب المصرى يجهل كل شىء عن أوروبا . أما بالنسبة للأتراك ، فهم يعتبرون الأوروبيين كفاراً ولكن منذ بدأت العلاقات الودية بين فرانسوا الأول وسليمان القانونى نشأت تسوية مرضية بين المسلمين والمسيحيين لكنها لم تمنع الحروب بين العثمانيين والغربيين .

والمعروف أن المسلمين لا يهتمون كثيراً بديانات الغرب ، فهم يعرفون فقط أنهم مسيحيين لكنهم لا يميزون بين كاثوليك وبروتستانت ولوثريين والكلفاتى والإنجيلى .

ويعتبر المسلمون أنفسهم أنهم أصحاب ديانة ذات جوهرسامى غطت على سائر الأديان التى سبقت الإسلام وبصفة خاصة المسيحية . والارتداد فى نظر الإسلام يعتبر جريمة . ومن النادر جداً أن يتحول مسلم عن دينه إلى المسيحية بينما هناك أعداد غفيرة تحولت من المسيحية إلى الإسلام .

ومن المهم بمناسبة اعتقاد المسلمين بسمو وسيادة الدين الإسلامى على الديانات الأخرى أن نعود إلى الوراء ونذكر الواقعة التى حدثت بين امبراطور ألمانيا فريدريك وملك جزيرة سيشل عام ١١٩٤ إلى عام ١٢٥٠ ، فقد سافر إمبراطور ألمانيا إلى جزيرة سيشل حيث اكتشف ديانة الإسلام وأعجب به تماماً . ونشأت خلافات خطيرة بينه وبين البابوات ، كان الإمبراطور يتمتع بثقافة عالية واعتبر أن الإسلام يشجع التقدم العلمى بينما الكنيسة المسيحية تظل جامدة سواء فى مجال العلوم أو فى المجالات الأخرى . فبالنسبة للكنيسة المسيحية فإنها تعتبر أن تطوير المعلومات والمعرفة لن تؤدى إلا إلى سيطرة الشيطان ، بينما الإسلام ينظر إلى المعرفة العميقة للقوانين التى تحكم العالم تؤدى إلى تعمق الإيمان بالله وبالتالى إلى عرفان وشكر من المخلوق إلى الخالق .

وكانت الحضارة الإسلامية فى ذلك الوقت متقدمة على الحضارة المسيحية . وفى بداية القرن التاسع عشر ظل المسلمون فى حيرة أمام المتطلبات الايديولوچية للثورة الفرنسية على الرغم من عدم اكتراثهم بالغرب ، ذلك أن ظهور مجتمع جديد لا يعترف بوجود الله جعلهم فى وضع يتسم بالتردد والارتباك ثم بدأوا يخشون من انتشار هذه الإيديولوجية الجديدة فى الشرق مع قدوم الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت الذى

أولى احترامًا كبيرًا للإسلام ولم يقدم نفسه للرأى العام المصرى على أنه مسيحى جاء يغزو مصر ، كما لم يضع المسألة الدينية فى أولويات أهدافه السياسية . وسار خلفاؤه على نفس النهج . وليس هناك أدنى شك فى أن الجنرال مينو لم يكن يشعر بالضيق أو التردد عندما تحول إلى الإسلام ليتزوج من فتاة مصرية جميلة .

تجنب محمد على المساس بالشريعة الإسلامية أو القوانين التى جاءت بالقرآن والتى تعتبر بالنسبة للمسلمين المرجع الدينى والأخلاقى والروحانى . فالإطار الدينى الذى يضم فى داخله نظم وقوانين الدولة أعطاه حرية التصرف فى المجالات التى تستهويه : غزو امبراطورية ، الاقتصاد ، الحكم الذاتى وجعله وراثيًا لأسرته .

كما أن تحرير المدينتين المقدستين مكة والمدينة أضفى عليه هالة من المجد فى العالم الإسلامى وعرف كيف يستغل ذلك بنجاح ولكن باعتدال حتى لا يفسد علاقاته الطيبة مع دولة مسيحية كفرنسا . كما استغل النفوذ الذى اكتسبه لدى السلطات الدينية بأن وضع يده على ممتلكات الأوقاف .

الأقبـــــاط :

إذا كان مزاج محمد على يدفعه بطبيعة الحال إلى التسامح ، فهو بالأحرى يميل إليه بسبب وجود جالية قبطية قوية فى مصر ؛ وهم من المسيحيين الشرقيين الذين عاشوا بعد انهيار الإمبراطورية البيزنطية حيث كان دين الدولة هو المسيحية . وكلمة قبطى مشتقة من اليونانية بمعنى مصرى وحورها العرب إلى قبطى . تتميز الجالية القبطية بأنها نشيطة ومبدعة . وهم أول من أنشأ الأديره ثم انتشرت فكرتها بعد ذلك فى الغرب حيث لاقت نجاحًا كبيرًا .

انفصل الأقباط عن الكنيسة الأم عام ٤٥١ فى أعقاب اجتماع المجمع المسكونى الذى أكد وحدة المسيح فى شخصين أحدهما مقدس والثانى بشرى ، بينما اعتنق الأقباط الفكرة القائلة بأن للمسيح طبيعة واحدة هى الطبيعة المقدسة . يعتمد أصل الأقباط على ثلاثة اتجاهات :

عرقى (بالنسبة للعرب) ، ودينى (لموقفه المعارض للإسلام والكنيسة الكاثوليكية الرومانية) ، ولغوى ، واللغة القبطية مشتقة فى الواقع من اللغة المصرية القديمة التى كانت سائدة أيام الفراعنة والتى انطلق منها شامبليون واكتشف سر اللغة الهيروغلوفية . يمثل الأقباط اليوم حوالى ٧ ٪ من السكان المصريين .

يشغل الأقباط وظائف عديدة فى إدارة البلاد هم والأرمن واليونانيون وتجنب محمد على حرمانهم مؤكداً بذلك إخلاصهم وولاءهم ، وكانوا فى الحكومة على قدم المساواة مع المسلمين ، بل إن بعض الأقباط عينوا بكوات من قبل السلطة أى من كبار الموظفين فى الدولة مثل باغوص بك وزير الخارجية المخلص .

اليهود والبروتستانت :

ذكر هنرى لوران مؤلف كتاب « المملكة المستحيلة » أن عصر الثورة الفرنسية كان له نتائج غير متوقعة إذ ساعد على إعادة الحياة فى المذهب البروتستانتى سواء فى إنجلترا أو فى قارة أوروبا . وعاد الناس إلى « سفر الرؤيا » للقديس يوحنا ليسيروا عليه جنبًا إلى جنب مع « أعمال الرسل » الذى أعلن عن تجمع اليهود فى الأرض المقدسة وتحولهم إلى المسيحية قبل يوم الحساب . وكان البروتستانت الإنجليز قد اعترافوا بأن نابليون بونابرت هو المسيح الدجال المكلف بإجراء هذا التجمع . وبالنسبة لجموع البروتستانت ، فإن فكرة الشرق مرتبطة بفكرة الأيام الأخيرة . ومن أجل ذلك يهاجر رجال الدين البروتستانت إلى الشرق بعيداً عن أسرهم : الإنجليز أولا ثم الأمريكان فالسويسريين والألمان لغزو الأقاليم العربية التابعة للإمبراطورية العثمانية ومعهم كتب التوراة وقد ترجمت إلى اللغات المحلية وسموا أنفسهم « التوراتيون » .

هاجمت السلطات المسلمة والحكومة العثمانية الإرساليات التبشيرية التى قام بها البروتستانت لكنهم لجأوا إلى حماية الإنجليز لهم ، الذين وجدوا دعمًا من جانب البروتستانت لهم ضد المذاهب المسيحية الأخرى كالكاثوليك الذين تحميهم فرنسا أو الأرثوذكس الذين تدافع عنهم روسيا .

ولم تكتف إنجلترا بتشجيع انتشار المذهب البروتستانتي بل عملت على الاهتمام باليهود حسب تنبؤات « أعمال الرسل » لكي يؤكدوا تأثيرهم لدى السكان اليهود المقيمين في المنطقة . وهكذا فإن النتائج الدولية لهذه المسائل المحيرة التي نشأت سوف تنكشف بعد أقل من قرن وذلك باحتلال البريطانيين فلسطين وتقسيم فلسطين بين اليهود والعرب .

وفي هذا الأطار ، كان لابد من تسوية وضع مدينة القدس تحت وصاية محمد على عندما كانت بلاد الشام تحت سيطرته ، لكن محمد على لم يكن متواجدًا في جميع الجبهات . ولم يتمكن أولم يرد أن يشغل نفسه بمصير المدينة المقدسة التي احتلتها القوات المصرية ثم كان عليها أن تخرج في عام ١٨٤١ . وأمام عدم وجود سلطة في مدينة القدس ، فضل الإنجليز إقامة دولة يهودية مسيحية تحت حمايتهم . أما الملكيون الفرنسيون فاقترحوها مملكة كاثوليكية يحكمها دوق بوردو . ورأت بروسيا إيجاد سلطة دولية بروتستانتية ، وهي الفكرة التي رفضها الروس بشدة . وأخيرًا قرر الأتراك إقامة سلطة والإبقاء على الوضع الحالي دون تدخل محمد على . وإبان حكم محمد على لم يتم إثارة المسألة الدينية في مصر . ومع ذلك فعند مجيء الفرنسيين أيام نابليون وبقاء عدد منهم بالقرب من محمد على ، دخلت فكرة العلمانية الأوروبية التي تشكل تهديدًا للإسلام .وقد وجدت هذه الفكرة صدى مشجّعًا لدى عدد من العثمانيين المثقفين الذين ينشدون تطوير بلادهم ؛ وكان أشهرهم مصطفى كمال أتاتورك الذي أسس تركيا الحديثة بعد أن أطاح بعرش الإمبراطورية العثمانية المتهالكة بعد هزيمتها في الحرب العالمية الأولى .

مقارنة بين موقف محمد على وموقف مصطفى كمال أتاتورك بالنسبة للإسلام :

سلك كل منهما موقفًا مغايرًا بالنسبة للإسلام .

فبينما كان محمد على متسامحًا ، كان مصطفى كمال أتاتورك يريد تحطيم الإسلام الذي اعتبره عملاً ضارًا ومفسدًا . وبعد قرن من الزمان ، وفي عام ١٩٢٠ م ، نجد أن تركيا تواجه مشاكل تختلف عما واجهته مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر .

إذ قرر مصطفى كمال أتاتورك تحطيم هيمنة الدين الإسلامى عام ١٩٢٠ م . واستشاط غضباً ضد الإسلام ووصفه بأنه نظرية لاهوتية لا يقبلها العقل جاء بها رجل فاسق من البدو ، وصاح قائلاً : « منذ أكثر من ألف عام والقوانين والنظريات التى جاء بها شيخ عربى عجوز ، والتفسيرات التعسفية المغايرة للشرع من أجيال رجال دين وضعوا كل التفاصيل الخاصة بالقوانين المدنية والجنائية بشكل راسخ . كما نظموا أدق تفاصيل وأمور الحياة لكل مواطن : طعامه وساعات نومه وساعات استيقاظه وتفصيل ثيابه وما يجب أن يتعلمه فى المدرسة وعاداته وتقاليده حتى وصل الأمر إلى الحظر على تفكيره وآرائه الخاصة به » . ويذكر أتاتورك أن اليوم الأكثر سواداً فى تاريخ تركيا ليس هزيمة بايزيد (١٤٨٢ - ١٥١٤ م) فى أنقرة ولا الهزيمة التى منى بها الأسطول التركى فى معركة ليبانت البحرية عام (١٥٧١ م) ولا مذبحة الإنكشاريين الأتراك (١٨٢٦) ، ولكن فى اليوم الذى غزا فيه سليم الأول مصر (١٥١٢-١٥٢٠م) واستعاد فيه لقب أمير المؤمنين بواسطة شبح خليفة قابله فى القاهرة . ومنذ ذلك اليوم ، استعاد رجل الدين مكانته وأخذ ينتقم بنشر دين يصلح على الأكثر لعرب مخنثين وليس لأتراك محاربين ويتسمون بالرجولة .

وأضاف مصطفى كمال قائلاً : « رجل السياسة الذى يلجأ إلى الدين من أجل الحكم ليس سوى رجل جبان . ولذا لا يجب لأى جبان أن يستغل وظائف رئيس الدولة » .

وقبل قرن من الزمان ، اضطر محمد على إلى التوقيع على بيان شبيه لأنه بدلاً من الدخول فى صراع مع الرؤساء الدينيين كما فعل أتاتورك آثر الاعتماد عليهم لمساندته .

التعليم :

ارتبط التعليم فى عهد محمد على إلى حد ما بأهداف سياسة الاحتكار الاقتصادى وبناء القوة الذاتية .

اهتم محمد على بالتعليم على اختلاف درجاته من عالى وثانوى وابتدائى لكنه بدأ أولا بتأسيس المدارس العالية وإيفاد البعثات لها لكى يقوم المتخرجون من هذه المدارس بمسئولية التعليم .

أقام محمد على المدارس التى تخدم أهداف التنمية الاقتصادية والعسكرية مثل مدرسة المهندسخانة والطب والولادة والصيدلة والفنون والصنايع والزراعة والبيطرة .

وكان يلتحق بهذه المدارس تلاميذ الأزهر والكتاتيب فى البداية من الذين حصلوا على قسط معقول من التعليم ، ثم أصبحت المدارس عامة ومدنية الطابع . ولما تعددت المدارس واتسع نطاقها ، أنشأ محمد على إدارة خاصة لها سميت ديوان المدارس ، فكانت أول وزارة للتعليم .

إلا أن ضُرب محمد على سياسياً واقتصادياً ، كانت له آثاره السلبية على مسار النهضة التعليمية ، فقد ساءت حال المدارس وأغلق بعضها وبدأ تشجيع الأجانب من أوروبا والولايات المتحدة على إنشاء مدارس خاصة بهم (مدارس للتبشير) فتأسست بالقاهرة والإسكندرية مدارس الإرساليات الكاثوليكية والبروتستانتية . وكانت أشهر مدرسة أسست فى نهاية القرن التاسع عشر مدرسة الآباء اليسوعيين (الجيزويت) .

كما شجع محمد على إرسال البعثات إلى أوروبا خاصة إلى فرنسا فقد أوفد محمد على بعثات لإيطاليا وفرنسا وإنجلترا . وكانت البعثات فى أول الأمر لدراسة الفنون العسكرية وبناء السفن والملاحة وتعلم الهندسة والميكانيكا وأصول الرى والصرف .

وكان رفاعة الطهطاوى الذى أرسله محمد على إماماً لطلاب أول بعثة كبيرة إلى فرنسا واقتُرح على محمد على تأسيس مدرسة الألسن لتدريس اللغات الأوروبية والترجمة . وكان لتلك المدرسة الفضل الكبير فى نقل كثير من معارف الغرب إلى مصر .

السكان والصحة :

قدر كتاب « وصف مصر » عدد سكان مصر بـ ٢,٦ مليون نسمة عام ١٨٠٠ م ولكن أندريه ريمون ذكر أن العدد الحقيقى تجاوز أربعة ملايين نسمة ووصل إلى ٤,٧ مليون نسمة فى نهاية عهد محمد على أى بنسبة زيادة قدرها ٤ بالألف كل عام . ويرجع ذلك إلى زيادة عدد الوفيات بسبب الحروب والأوبئة . فقد ظهرت الكوليرا فى

عام ١٨٣١ م واستمرت تعاود الظهور على فترات حتى منتصف القرن العشرين فى أعوام ١٨٤٧ ، ١٨٤٨ ، ١٨٦٥ ، ١٨٨٣ ، ١٨٩٦ ، ١٩٠٣ ، ١٩٤٧ م . وحصد وباء الكوليرا الذى ظهر عام ١٨٣١م ١٨٠ ألف شخص . أما وباء الطاعون الذى ظهر عام ١٨٣٥ م فقد تسبب فى وفاة ٥٠٠ ألف نسمة . ومع ذلك ، فكانت نسبة المواليد فى عهد محمد على مرتفعه ، ونسبة الخصوبة حوالى ٥٠ فى الألف . أما الوفيات فى الأطفال فكانت مرتفعة ، والصحة بدائية والتغذية غير كافية .

وقد قدر كلوت بك الطبيب الفرنسى والمستشار لمحمد على أن حوالى ٥٠ألف طفل يموتون سنوياً من مرض الجدرى أى بنسبة ٢٠ ٪ من عدد المواليد البالغ عددهم ٢٥٠ ألف طفل . وبعد وصوله إلى مصر بفترة قصيرة قرر إجراء حملة تطعيم ضد الجدرى .

وبعيداً عن الأوبئة ، كانت الأمراض الناتجة عن التهابات المعدة والأمعاء تسبب العدد الأكبر من الوفيات ، تليها الأمراض الصدرية . كانت الحالة الصحية العامة للسكان متأخرة نتيجة نقص التغذية والفقر : فكان ٥ ٪ من عدد السكان مصابين بمرض الهزال . كما أن الإسكندرية محاطة ببحيرات ومستنقعات فكانت مرتعاً للملاريا التى تسبب ٤ ٪ من الوفيات بينما فى القاهرة كان الجو أكثر جفافاً وسجلت حالات قليلة جداً . وبخلاف كلية الطب التى أنشأها كلوت بك بتوجيهات من محمد على ، أنشأ أيضا مصلحة الصحة العمومية لإيجاد حصر صحى والبدء فى تسجيل المواليد والوفيات ثم فحص ومعرفة أسباب الوفاة .

محمد على وشعبه :

لم يهتم محمد على كثيراً بتحسين الظروف المعيشية لشعبه . فالعمال الذين يقومون بالأعمال الحقيرة تدفع لهم أجور منخفضة جداً وليس لديهم الوسائل للتغذية الصحية هم وعائلاتهم . وذكر ميشو أن الأشغال العامة كانت تنفذ بالعقاب وبضرب السياط . وقال أندريه ريمون أن الشعب المصرى يدفع الثمن غالياً نتيجة سياسة محمد على : فمن تجنيد إجبارى إلى حملات عسكرية خارج مصر وأعمال السخرة التى هلك بسببها مئات الألوف من المصريين إلى إنشاء وصيانة الترع الكبيرة للرى والصرف .

كما نسى محمد على الاهتمام بالطبقة العاملة التى عملت من أجل تكوين ثروته الضخمة . فقد بدأ من العدم وأنشأ لنفسه إمبراطوريته التى حاول نقلها لأسرته بالوراثة هى وثروته الضخمة . لقد نسى محمد على والمحيطون به بزوغ سلطة جديدة وهى سلطة الصحافة التى بدأت فى عهده .

الحياة الثقافية :

ظهر عاملان جديدان فى عهد محمد على يمثلان بداية الحياة الثقافية : الأول ، ظهور الكتب والصحافة والثانى ، التنقيب عن الآثار على أيدى العلماء والأجانب .

الكتب والصحافة :

بمجرد وصول نابليون بونابرت إلى مصر ، قرر إنشاء جريدتين فرنسيتين إحداها سياسية باسم كوربيه ليجبت Courier de l'Egypte ومعناها (الجوانب المصرية) والأخرى علمية اقتصادية باسم La Decade Egyptienne (أى العشرية المصرية) .

بعد ذلك ، قرر محمد على إنشاء مطبعة فى بولاق ، وأول كتاب ظهر من المطبعة قاموس إيطالى – عربى . وفى خلال عشرين عامًا ، أخرجت المطبعة مائتى كتاب نصفهم باللغة التركية والنصف الآخر باللغة العربية .

وأول جريدة دورية تركية ظهرت بمصر فى القاهرة فى عهد محمد على اسمها (الوقائع المصرية) Les evements d'Egypte وكانت تعتبر الجريدة الرسمية . ثم أصدر محمد على جريدة أخرى سماها « المصرى أفندى » .

التنقيب عن الآثار :

كان لوصول المستشارين الأوروبيين والدبلوماسيين إلى السلطة أثرًا غير مباشر فى البحث والتنقيب عن الآثار . وماذا كان موقف محمد على فى هذا المجال ؟

هل شجّع الباحثين والمنقّبين ؟ وهل سعى إلى تجنب سلب ونهب الكنوز المصرية المكتشفة ؟ ومما لا شك فيه أن الباشا كان فخوراً بالاستقرار فى مصر على عرش الفراعنة مما يعبر عن رغبته فى إيقاظ مصر وإضفاء طابع العظمة والفخامة على ماضيها التليد ، لكنه رجل ينشد بطبيعته البحث عن المستقبل ، لذا فهو قليل الالتفات نحو الماضى وأن أعمال البحث والتنقيب عن الآثار لم تجذبه ، وأحياناً يترك المهندسين يشيّدون مصانع تموّن حجارة من مواقع أثرية لأنه من المعروف أن الحجارة نادرة بمصر . ولكن شامبليون توصل إلى إقناعه بأهمية الآثار المتبقية من الماضى . كما أبدى الدبلوماسيون الأوروبيون اهتماماً شديداً بالتنقيب عن الآثار المصرية وأعربوا عن تقديرهم البالغ لقيمة اكتشافاتهم ، ولكن سلب ونهب الكنوز كانت تتم فى معظم الأوقات حيث يقتطعها المنقّبون لأنفسهم ويبيعونها بسعر الذهب لمتاحف دولهم . وأحدثت تلك التجارة تنافساً شديداً ، وكان لابد من حماية الحفريات الأثرية من أطماع المتنافسين الذين يحاولون سرقة المقتنيات الهامة . وقد عين قنصل فرنسا دروفيتى حرساً من الجيش لحسابه لمنع السرقات من الحفريات الأثرية والقيام بأعمال البحث فى الحفريات المجاورة .

وكثيرا ما قامت مناوشات واصطدامات بين الفرنسيين والبريطانيين حول أعمال التنقيب . وقد عين قنصل بريطانيا سولت أحد الأيطاليين حارساً وذلك لضخامة جسمه لكنه قرر أن يبحث لنفسه عن الكنوز فاكتشف عدة مقابر منها مقبرة رمسيس الأول وابنه سيتى الأول ونهب ما فى هذه المقابر لنفسه من أشياء ذات قيمة وذهب .

أما محمد على ، فقد تركهم يعملون ما يريدون . أما المنقّبون اللصوص فقد نهبوا كل شيء وأرسلوا إلى خارج مصر قطعاً لا تقدر قيمتها بثمن ونراها الآن فى متاحف باريس ولندن وجهات أخرى عديدة . أما الباشا فنتيجة لجهلة بآثار الماضى وقيمتها لم يحاول الاشتراك مع القنصل الفرنسى أو القنصل البريطانى لاقتسام الأرباح من عمليات البحث والتنقيب .

شامبليـــــون :

اشتهر شامبليون بفك رموز الكتابة الهيروغليفية . وقد اهتم منذ حداثة سنه حيث ولد عام ١٧٩٠ م بالأحجار التى عليها نقوش فرعونية والتى نقلها معهم العلماء الفرنسيون المصاحبون لحملة بونابرت ولم يستطع أحد منهم حل طلاسمها . وفى عام ١٨٢١ م ، وفى يوم عيد ميلاده الواحد والثلاثين اكتشف شامبليون فجأة بأن النقوش الموجودة على حجر رشيد هى مفتاح لأسرار اللغة الهيروغليفية القديمة حيث قارنها باللغة اليونانية التى كانت على الحجر نفسه ووجد أن اللغة الهيروغليفية ليست حروفًا أبجدية لكنها ذات طابع رمزى وصوتى .

الفصل الثانى عشر

نهاية حكم محمد على

نتائـــــج معاهــــــدة لنــــــدن

فى ١٥ يولية ١٨٤٠ م تمّ فى لندن برعاية بالمرستون توقيع اتفاقية لندن بحضور كل من إنجلترا وروسيا والنمسا وبروسيا وتركيا والتى تضع حداً للأطما ع الإمبريالية لمحمد على . ولم توقع فرنسا على هذه الاتفاقية . وبعد عدة دسائس ، قرر السلطان إصدار فرمانه الشهير فى ١٩ ابريل ١٨٤١ م والذى يبت فى مصير محمد على وممتلكاته . وفى ١٠ يونية ١٨٤١ م انتهى محمد على إلى إعطاء موافقته الرسمية على فرمان إبريل حيث حضر مبعوثوا السلطان لتسليمه إليه شخصياً وفى احتفال كبير . كانت هناك صراعات وخلافات خفية من جانب وزراء الباب العالى أعداء محمد على بخصوص وراثة محمد على ملك مصر . وانتهت المناورات والمداولات بفضل حزم جيزو السفير الفرنسى الذى مارس ضغوطاً على بالمرستون وميترنيخ وزملاءهما بأن يكون الطابع الوراثى على معظم المملكة المصرية دون قيود . وأخيراً وافقت تركيا على هذا المبدأ وكذلك القوى العظمى (الدول الكبرى) ، لتجنب وقوع حرب وسمحوا لفرنسا بالاشتراك ضمن الدول الموقعة على الاتفاقية ، على أن تبقى مصر ولاية تابعة للإمبراطورية العثمانية لكنها تتمتع بحكم ذاتى . وفى المقابل تحكم أسرة محمد على باعتراف السلطان والقوى العظمى مصر وتصبح فى غضون ذلك دولة مستقلة حتى عام ١٩٥٢ م ، وهو التاريخ الذى خلعت فيه ثورة ١٩٥٢ م آخر ملوك أسرة محمد على وهو الملك فاروق .

وبموجب الفرمان يتم تخفيض الجيش إلى عشرة آلاف رجل ولا يحق للباشا ترقية الضباط إلا حتى رتبة كولونيل (عقيد) ، والبحرية التى كان يتباهى بها محمد على لم يعد لديها أموال كافية لصيانة الأسطول القوى : وابتداءً من عام ١٨٤٢ م تتوقف عن كونها قوة بحرية ضاربة ، ولم يعد هناك ضرورة لوجودها أو التوسع فى إنشائها . وينبغى على محمد على أن يتخلى عن غزواته : الجزيرة العربية وسوريا وكريت ، وأن يتبقى له فقط السودان حيث نص فرمان ١٨٤١ م على أن يديره بمعرفته . فالقوى العظمى لم تهتم به ولم تر تركيا فيه ضرراً لها . ولم تظهر الأهمية الإستراتيجية للسودان فى ذلك العصر : إذ كان الرأى العام العالمى يعتبر السودان كأرض يسكنها سود متخلفون وكمصدر لتوريد العبيد إلى الدول العربية المجاورة أو على الأكثر قاعدة انطلاق لاكتشاف إفريقيا الوسطى .

تنازل محمد على عن الحكم :

كيف يتحمل محمد على الضربة القاتلة التى وجهت إليه ؟ وكيف خرج من هذه الأزمة بعد أن هوى من عليائه ؟

سواء رضى محمد على أو لم يرض فقد اعتزل بعد تصدع الدولة التى أنشأها وللحالة التى وصلت إليها مصر بفرمان ١٨٤١ م . لقد تعلم من التجربة القاسية وهو مدرك بعجزه حيث أصبح عجوزاً فلم يعد يفكر فى وضع الحدود موضع المناقشة والبحث واستقر فى مكانه بمصر ، فلقد انتهى عصر الحملات والغزوات والمشروعات الطموحة . فقد تجاوز عمر محمد على الآن السبعين عاماً وانهارت مقاومته الجسمانية والمعنوية نتيجة الأزمات التى مرت به عامى ١٨٣٩ ، ١٨٤٠ م فلم يعد يستطيع أن يقاوم ، ولم يعد يغمض له جفن وانتابته حالة شديدة من الإحباط وتوارى عن أعين الناس داخل قصره ولا يستقبل سوى طبيبه الخاص كلوت بك الفرنسى . وأحياناً يتغلب على التعب والإحباط ويجلس مستمتعاً برضائه عن نجاحه فى تكوين أسرة مصرية . لقد كوّن محمد على نفسه لكنه يكتفى بتصريف الأمور العادية . فالشيخوخة بدلاً من أن تجعل منه شخصاً عدوانياً وحاقداً ، عملت على تهدئة مشاعره وعواطفه .

وبدأ يتقرب من إنجلترا ويؤكد اهتمامه بحماية اتصالاته الإمبراطورية . وقد قام دوق مونبا نسييه أحد أبناء لويس فيليب ملك فرنسا بزيارة شبه ملكية لمصر عقب ترقية محمد على إلى رتبة ضابط عظيم وحصوله على وسام الشرف .

السنوات الأخيرة لحكم محمد على :

هاجمت محمد على الأزمات والمشاكل من كل جانب : فمن فقده لهيبته ونفوذه إلى تحطم آماله التوسعية فى خلق إمبراطورية إلى صعوبات مالية . ومما لا شك فيه أن الخزانة المصرية كانت تعانى إفلاساً نتيجة الإحتياجات العسكرية والمحافظة على جيش على أعلى مستوى وإنشاء بحرية ضخمة . ولأن الإدارات العسكرية أتعبته وأرهقته ، فقد اندفع يبحث عن مناجم ذهب وثروات معدنية من السودان ولكن اكتشف أن ذلك كله مجرد وهم ، فلم يجد جراماً واحداً من الذهب . كما أن فرمان ١٨٤١ م أثقل كاهل مصر بالجزية السنوية التى يدفعها للسلطان .فلابد من إلغاء نفقات التوظيف للنواحى الاجتماعية : فأُغلقت المستشفيات والمدارس وتم خفض أعداد الجيش والبحرية وأُغلقت المدارس العسكرية وأُلغى بعضها .

وفى المجال الصناعى حاولت الإدارة جاهدة صيانة عدد من المصانع التى أنشأها محمد على خاصة مصانع النسيج . ولكن الحماية أصبحت أقل فعالية الآن والأسواق المفضلة التى كانت تابعة لمصر مثل سوريا ، أصبحت مفتوحة أمام المنافسة الأوروبية خاصة البريطانية التى أغرقت الأسواق بكثرة إنتاجها . وفضلاً عن ذلك ، استمر نظام الاحتكار قائماً . ورغم أن معاهدة بلطة ليمان التجارية (١٨٣٨ م) التى وقعت بين تركيا وإنجلترا ألغت نظام الاحتكار من الإمبراطورية العثمانية بما فيها مصر ، إلا أن محمد على تجاهل التسوية مع تركيا . وفى نفس الوقت ، قرر الباب العالى إجراء إصلاحات جذرية فى الإدارة العثمانية حيث كانت الحاجة ملحة لهذه الإصلاحات منذ فترة طويلة . وهذه الإصلاحات التى يطلق عليها تنظيمات لم يطبقها محمد على .

النزاع بين محمد على وابنه إبراهيم :

كان عامى ١٨٤١ ، ١٨٤٢ م من الأعوام الحزينة التى شهدتها مصر « فكانت الضرائب تُجبى بصعوبة والأحوال المالية تسير من سيئ إلى أسوأ . ولم يجرؤ شريف باشا أن يعترف بالحقيقة لمحمد على وانتهى به الأمر إلى أن يعرف كل شيء وثار ثورة عارمة ضد شريف باشا واتهمه باختلاس الأموال . وأشرك معه ابنه إبراهيم واتهمه بأنه يجبر أباه على الاستقالة ليستولى على السلطة . أدرك نوبار السكرتير الخاص لإبراهيم سبب احتجاجه بشدة على أبيه لأنه متأكد من براءته وكان يخشى أن يغتاله أبوه . وساد توتر عنيف بين محمد على وابنه الأكبر وأخذ يزداد حدة مما أتاح الفرصة للدسائس والمؤامرة أن تنتشر .

أما عباس ابن طوسون وابن أخ إبراهيم ، فهو لا يعترف بعمه كوريث طبيعى لمحمد على واعتبر أن الفرصة مواتية له كما كان يكن حقداً مريراً على إبراهيم : كان عباس مدللاً ودساساً وكذاباً ويشعر بالغيرة الشديدة من عمه لنجاحه فى الغزوات العسكرية ولنفوذه وهيبته وصراحته القاسية ، ففى الوقت الذى كان إبراهيم أكبر سناً ويمثل الجناح السائد الذى يفضل التقدم ومتابعة أعمال محمد على مؤسس الأسرة العلوية ، فإن عباس على النقيض من ذلك رجل رجعى ينبذ الإصلاحات .

وهكذا ، شعر عباس بالسعادة الغامرة لرؤية عمّه فى حالة ضيق وحزن وأسرع إلى جده يواظب يومياً على الدس له ضد عمه . ولكن من حسن الحظ ، أن محمد على لديه من الحكمة ما يجعله يتأكد بأن إبراهيم هو الوحيد الذى يستطيع مواصلة أعماله : فلديه الكفاءة والرغبة . وتصالح الأب والابن على غير رضا عباس . ورغم أن إبراهيم يتميز بتكوينه القوى فقد بدأ يشكو من آلام مختلفة . وفى عام ١٨٤٦ م ، سافر إلى إيطاليا لمتابعة العلاج . ومن هناك اصطحبه سليمان باشا وتوجه إلى فرنسا حيث أُستقبل استقبالاً حافلاً فى باريس فى ٢٥ مايو وقدمت له عدة أعمال صناعية وكان مبهوراً جداً . ولكى لا يهمل الإنجليز ، قام إبراهيم بزيارة كذلك إلى إنجلترا .

رحلات محمد على الأخيـرة :

كانت هذه الرحلة وبالاً . فقد عاد إبراهيم فى غاية التعب وبدأ ينفث من فمه دمًا وتمّ تشخيصه على أنه مصاب بداء السل . وشعر والده بالقلق الشديد عليه للحالة التى وصل إليها وخشى أن يموت قبله فقرر الذهاب به إلى استامبول لمقابلة السلطان لشكره وإجراء مراسم نقل الخلافة لابنه .

وفى حالة الاختفاء المبكر والسابق لأوانه لإبراهيم ، فإن عباس هو الذى سيخلف محمد على . وعندما يكون محمد على بعيدًا عن مصر ، كان إبراهيم يتولى الأعمال نيابة عن والده . اُستقبل محمد على استقبالاً رائعًا فى استامبول وقرر زيارة إنجلترا فى العام الذى يليه لإجراء محادثات مع بالمرستون . ولكن تلك الرحلة لم تتم بسبب تدهور حالته الصحية .

وفى فبراير ١٨٤٨ م ، قرر محمد على القيام برحلة أخيرة : فقد أراد الذهاب إلى نابولى على ظهر الباخرة الفرنسية الإسكندر . غادرت الباخرة الإسكندرية فى ١٤ فبراير بصحبة عدد ضخم من الأطباء ووصلت نابولى يوم ٢٧ فبراير . وهناك علم بعزل لويس فيليب حيث طردته ثورة ١٨٤٨ م . وحزن محمد على عليه حزنًا شديدًا رغم أنه لم يلتق به إطلاقًا . فقد كان يقدر دائمًا موقف ملك الفرنسيين تجاهه . ويتذكر أنه بفضل جيزو استطاع الحصول من السلطان على حق توارث السلطة فى أسرة محمد على . وعين لامارتين وزيرًا للخارجية فى الجمهورية الثانية وأرسل خطابًا لمحمد على فى ٢١ مارس يدعوه لزيارة فرنسا وحدد للزيارة مدة محددة . لاحظ محمد على أن الخطاب يخلو من الحماسة ويختلف عن الخطاب الذى أُرسل إليه منذ عامين . فقد تغير الزمن . لذا فقد فضّل العودة إلى مصر فى وقت مناسب ، فعندما وصلت الباخرة أمام الإسكندرية فى ٣ أبريل ، إذا بمحمد على يدخل فى غيبوبة ويفقد الوعى ، وتولى إبراهيم رئاسة الحكومة نيابة عن والده . وإزاء عجز والده وغياب وعيه ، فقد توسل إلى السلطان أن يقلّده منصب والده واليًا على مصر . فوافق السلطان بسهولة . وقد تنبأ أحد الأطباء النمساويين أن إبراهيم سوف يموت فى خلال ستة أشهر . وأثناء عودته من استامبول إلى الإسكندرية أصيب والى مصر الجديد بحمى شديدة . وبالفعل توفى

إبراهيم قبل والده بعد ستة أشهر من وصوله مصر أى فى ١٠ نوفمبر ١٨٤٨ م متأثراً بمرض الدرن (السل) الذى هاجمه قبل عدة سنوات . وبموته المفاجئ والمبكر حرمت مصر من قائد متفتح حريص على متابعة تنفيذ مشروعات النهضة والتحديث التى بدأها والده .

أصبح إبراهيم مصرياً صميمًا وصار متمرسًا على قيادة الناس وإدارة شئون الدولة .

موت محمد على :

لهذا السبب ، لم يرجع محمد على إلى صحوته . وقد ذكر كلوت بك أن محمد على بعد موت إبراهيم كان يعيش لكنه أصيب بخلل عقلى وكان يهذى بكلمات خوفًا من موت قريب . ولم تهز تلك الحالة المحزنة التى وصل إليها ذلك العجوز الوقور شعرة لدى حفيده عباس باشا أو يرق قلبه له . وتوفى محمد على بعد بضعة أشهر فى يوم ٢ أغسطس ١٨٤٩ م عن عمر يناهز الثمانين عامًا فى قصره بالإسكندرية ، وخلفه حفيده عباس كما كان متوقعًا ، ونقل جثمانه إلى القاهرة فى مركب حتى بولاق . وأعرب القنصل البريطانى موراى عن سخطه لعدم تواجد الوالى الجديد عباس باشا لاستقبال رفاة سلفه . فهل أراد عباس بهذا التصرف أن يعبر عن عدم اهتمامه بالسياسة التى اتبعها جده ؟

وكانت الجنازة متواضعة جدًا لدرجة تدعو للرثاء . ولم يتم دعوة السلك القنصلى لحضور الجنازة ولم تغلق المحلات أو المكاتب حدادًا على وفاته . دفن محمد على فى المقبرة التى أعدها بنفسه فى مسجده بالمقطم وسط قلعة القاهرة التى تطل على النهر والمدينة . وبكاه الشعب المصرى بأكمله : الفقراء والأغنياء والتقت جميع الأديان خاصة المسيحيين حيث كان يدافع عنهم . وتحقق الشعب المصرى من الأعمال العظيمة التى أنجزها محمد على وشعر بالفخر . وكتب موارى إلى بالمرستون قائلاً إن جميع المواطنين المصريين بكوه بحرارة وعبروا عن رثائهم وحزنهم لفقده .

خلفاء محمد على :

عباس الأول :

ذكر م . صبرى فى كتابه « الإمبراطورية المصرية فى عهد إسماعيل والنفوذ الإنجليزى – الفرنسى » أن خليفة الباشا العظيم لم يكن فقط كسولاً أو طائشًا ، بل كان متطيرًا شديد التعلق بالماضى وشريرًا وكتومًا ومبذرًا وشرهًا للأبهة والملذات . ومع ذلك ، فإن ذلك الرجل ضعيف الشخصية عُرف عنه قدر من الذكاء . وإنسان بتلك الصفات لا يستطيع إلا أن يكون غيورًا من جده ٠٠ تلك الشخصية الفذة التى تفتن الجميع ، بينما كان عباس عكس ذلك تمامًا . فالنظرة الثاقبة لمحمد على تغرى محدثه أو على النقيض من ذلك تصعقه ، أما عباس ، فلا يستطيع أن ينظر فى وجه زواره ، فهو رجعى بطبيعته ومتغلغل فى التقاليد الإسلامية ويكن روح العداء لحركة التجديد والتحديث التى بدأها جده وعمه إبراهيم . ولذا فقد تحول ببساطة إلى العثمانيين ولفظ الأوروبيين خاصة الفرنسيين المفضلين لدى محمد على . ولدى عودته من القسطنطينية حيث ذهب ليحصل على موافقة السلطان ، أعلن عباس أن « مصر لم تعد بلدًا تركيًا بل مسيحيًا . فممثلى الدول الكبرى الأوروبية جاثمون على كل أوجه النشاط الحكومى ، ويعتقد جدى أنه حاكم مطلق لكنه ليس إلا عبدًا للقناصل العموميين وإذا كان من المفروض أن يحكمنى شخص ما ، فأفضل أن يكون زعيم المسلمين جميعًا وليس المسيحى الذى أكرهه » . يكشف هذا الأسلوب الفظ عن إنسان يختلف كل الاختلاف عن سلفه الرجل العظيم محمد على . كان عباس شرهًا كذلك للأموال . وإذا قرر إجراء تقشف فى النفقات الاقتصادية ، فالهدف من وراء ذلك هو وقف الأعمال والمشاريع الخاصة بالرى والصرف فى الوقت الذى يشيّد فيه قصورًا فخمة وزائدة عن الحد . وكما كان حال ملوك فرنسا فى الماضى ، فإنه كان يفضل التنقل من قصر إلى آخر ، ويقيم حفلات صاخبة كلها بذخ وإسراف ليعبر عن سخائه وكرمه ، وأهملت الاستثمارات ذات العائد . وألغى عددا كبيرا من المدارس معربًا عن تحقيره الشديد للعلم والتعليم وعدم الجدوى فى نظره من تعليم الشعب لأنه كان يؤمن بأن قيادة الشعب الجاهل أسلس من قيادة شعب متعلم . كما قلّل من عدد أفراد الجيش حتى

وصل إلى ثلاثة آلاف بينما فرمان إبريل ١٨٤١ م نص على ألا يزيد عدد أفراد الجيش عن ثمانية عشر ألفًا .

تميز موقف عباس الأول بالنسبة لسياسة جده بالمعارضة والتناقض خاصة فيما يتعلق بالمشاريع الخاصة بقناة السويس والتى دعمّها دائمًا ، وكان يحرص على التعجيل بها . إلا أنه فى أواخر أيامه ، عارض تلك الفكرة تحسبًا من موقف إنجلترا العدائى تجاهه .

وبعد وفاة محمد على ، أين صار هذا المشروع الشهير ؟ استمر السان سيمونيون فى الاهتمام به واقترح أنفانتان إشراك الإنجليز فى هذا لمشروع . ومن عادة الإنجليز أنهم عندما يعارضون فكرة ما ، يتظاهرون بتأييدها حتى يخربوها من الداخل . وهو ما حدث فى مشروع قناة السويس . فالمندوب البريطانى الرئيسى هو ستيفنسون ابن مخترع السكك الحديدية . أراد ستيفنسون أن ينسف المشروع : فهو كانجليزى ضد اتصال البحر الأبيض بالبحر الأحمر وفى نفس الوقت فضل ستيفنسون السكك الحديدية . شعر انفانتان بعدم جدية ستيفنسون وبعدم أمانته فى هذا الاجتماع الخاص بقناة السويس . وهذا ما حدث بالضبط . فبعد وفاة محمد على وإبراهيم تحمس عباس الأول بتطبيق سياسة مخالفة لتلك التى اتبعها جده . فمثلاً سعى للتقارب مع انجلترا على حساب فرنسا . فقناة السويس مشروع فرنسى وستيفنسون انجليزى ، فعهد إليه بتنفيذ خط السكك الحديدية الإسكندرية – القاهرة – السويس . وتنفيذ خط السكك الحديدية ليس سيئًا فى حد ذاته . فمصر بلد على طريق التقدم والتطور وهى فى منتصف القرن التاسع عشر عليها أن تنشئ شبكة من السكك الحديدية . ولكن الاتصال بالسكك الحديدية بين الميناء الواقع على البحر المتوسط وميناء السويس لا يمكن مقارنته بالاتصال بين البحرين الأبيض والأحمر لأن الفائدة الاقتصادية ستكون ضخمة .

ومن هنا ، لم يهمل المتحمسون لهذا المشروع تلك الفكرة . لم يجد أنفانتان ممولين وهجره رفقاؤه . حاول قنصل فرنسا اقناع عباس الأول بألا يسير وراء إنجلترا حتى لا يفشل مشروع ضخم كهذا . وأعرب عباس عن رغبته فى الإبقاء على علاقة طيبة مع فرنسا وقرر استئناف الدراسة المتعلقة بالحفر فى بداية ١٨٥٣ م .

من ناحية أخرى ، ترك عباس الأول انطباعًا لدى السكان المسلمين بالتعامل بخشونة مع الأقباط وذلك من منطلق التعبير عن الشعور المعادى للأوروبيين والمسيحيين حتى يكسب رضاء الباب العالى . فى البداية ، كانت العلاقات بينه وبين الباب العالى ممتازة ، ولكن ما لبثت أن تبدلت عندما أرادت الحكومة التركية فرض إصلاحاتها الإدارية على مصر والمعروفة باسم « التنظيمات » . فلجأ عباس إلى الطريقة التى اتبعها جده إزاء استامبول فقابلها بفتور تام ومهارة كبيرة وأرجأ تلك الإصلاحات لأجل غير مسمى لأن المصريين عبّروا عن رفضها . ولم يعد عباس يعتمد على السلطان كما كان يأمل خاصة على الصعيد الدولى ليتجه إلى أوروبا . واتخذ نوبار باشا سكرتيرًا له وهو أرمنى يتسم بالفطنة والذكاء وكان يشغل نفس المنصب مع إبراهيم باشا . وبناء على نصيحة نوبار وافق عباس على مد خط السكك الحديدية الإسكندرية – القاهرة – السويس .

لم يدم حكم عباس الذى اتسم بالضعف فترة طويلة : فقد اغتيل فى ١٣ يوليه ١٨٥٤ م فى قصره ببنها . وتنفس الشعب الصعداء عندما تلقى خبر موته حتى أقرب المقربين منه الذين كانوا يتظاهرون بالاخلاص له .

سعيــد :

خلف عباس عمه سعيد وهو ابن محمد على . وعلى النقيض من عباس ، فقد تربى سعيدَ علىَ أيدى فرديناند ديليسبس بثقافة غربية . يمتاز سعيد بالوقار والحصافة وسعة الأفق . وأول عمل قام به هو إنشاء الشركة العالمية لقناة السويس البحرية ابتداء من ٣٠ نوفمبر ١٨٥٤ بفرمان من سعيد باشا . كان عمر فرديناند ديليسبس فى ذلك الوقت ٤٩ عاما : وبدأت المغامرة الكبرى بالنسبة له . وتأكدت مصداقية المشروع على المستوى الدولى . وشعر فرديناند ديليسبس بثقة تامة لا تقارن مع أى ممن سبقوه من السان سيمونيين .

وأصبحت الفرصة أمامه مزدوجة ، فهو صديق لسعيد باشا الوالى الجديد وفى نفس الوقت ابن عم الإمبراطورة أوجينى . نجح ديليسبس فى تكوين الشركة العالمية

والتغلب على العقبات السياسية الكبرى التى أثارها الإنجليز وبعض المصريين . وتم تدبير الأموال اللازمة للعملية عن طريق الاكتتاب العام بالأسهم . ووصل الأمر إلى تنفيذ هذه الأعمال الجبارة فى جو قاتل . كما حدث تقدم باللجوء إلى استخدام تقنيات الأشغال العمومية . وسوف تفتتح القناة رسمياً فى عهد إسماعيل باشا خليفة سعيد باشا وبحضور الإمبراطورة أوجينى وذلك فى ١٧ نوفمبر ١٨٦٩ م أى بعد خمسة عشر عاماً من صدور فرمان الشركة العالمية .

تميز سعيد بروح الكرم . ومن ناحية أخرى ، تأثر بالوضع المأساوى للعبيد ، وقرر إلغاء تجارة الرقيق نهائيًا بمصر والسودان وأخذت عملية انتهاء تلك التجارة وقتًا فى السودان حيث إنها كانت تمارس منذ الأجداد واختفت عملياً فى أيامنا هذه .

فى عهد سعيد باشا تمت عمليتان إصلاحيتان على جانب كبير من الأهمية . فقد سمح للضباط المصريين بالترقى إلى أعلى الرتب وقد أدى ذلك إلى تكوين مجموعة الضباط الوطنيين وازدادت قوتها فى القرن العشرين وناضلت من أجل حصول مصر على استقلالها من الإمبراطورية العثمانية أولاً ثم من إنجلترا . وشهد عام ١٩٥٢ م قمة مرحلة الصراع بثورة ٢٣ يوليو تلك الثورة المصرية بزعامة اللواء نجيب والكولونيل ناصر وأطاحت بالملك فاروق آخر ملوك الأسرة العلوية . تمثل الإصلاح الثانى فى عام ١٨٥٨ م والخاص بتحرير نظام ملكية الأراضى بحيث أصبح التمتع بالملكية وراثيًا وليس مدة حياة الفرد المالك للأرض فقط وبذلك ظهرت طبقة جديدة من كبار ملاك الأراضى . كما حرر الإصلاح عملية بيع ونقل المحاصيل الزراعية وذلك كنتيجة لإلغاء نظام الاحتكارات الزراعية التى كان يعتز بها محمد على ولاقت نقداً مريراً .

كان سعيد باشا ذكيًا وطيب القلب ولم يكن حازمًا مثل أبيه . فلا يرفض طلبًا لأحد واستغله المتملقون الذين يريدون الحصول على امتيازات . فالأوروبيون الذين طردهم عباس عادوا وبقوة يهتمون بمصالحهم الشخصية أكثر من اهتمامهم بمصر .

إسماعيل :

هو الخليفة الثالث لمحمد على حيث تولى الحكم فى يناير ١٨٦٣ م وعمره ٣٣ عاماً ويتميز ببعد النظر والجرأة والقدرة على التأمل وذلك على غرار مؤسس الأسرة العلوية . وإسماعيل هو ابن إبراهيم باشا ، ومظهره الجسمانى غير جذاب فهو ممتلئ الجسم قليلاً أما عيناه فمعبرتان . وخلافاً لمظهره ، فإن حديثه رائع ويجذب محدثيه . عرف عنه الكرم رغم أنه وجد الخزانة خاوية نتيجة تبذير سعيد باشا . وسار على درب جده فى تنفيذ مشاريع ضخمة للتنمية .

وفى عهده كان العمل مستمراً فى حفر قناة السويس وافتتحت فى عهده أيضاً . ولكن الصعوبات المالية غير المتوقعة عرقلت تقدم المشروع ولكى يواجه إسماعيل تلك المشكلة ، اضطر إلى الاستدانه عدة مرات من إنجلترا وفرنسا . وبذا فقدت مصر حريتها فى التصرف وسقطت فى قبضة إنجلترا وفرنسا . ولا يجب أن ننسى الدور الهام الذى ساهم به إسماعيل فى النهوض بالتعليم الوطنى وفى العدالة وفى استعمار السودان . كما حاول تطبيق أول تجربة ديموقراطية بإنشاء مجلس استشارى . وأكد على الحكم الذاتى لمصر تجاه الإمبراطورية العثمانية . ولكى يطمئنه الباب العالى ، منحه لقب خديوى وهو أعلى من لقب باشا ولكن لابد من دفع ثمن هذا اللقب . بدأت مصر تمارس دوراً على المستوى الدولى ، فاشتركت فى حرب القرم بجانب الأتراك والحلفاء الفرنسيين والانجليز ضد روسيا . كما أرسل كتيبة إلى المكسيك لتحارب مع قوات الإمبراطور ماكسيميليان لارضاء نابليون الثالث . وبالرغم من ذلك ، قامت حركات وطنية أضعفت موقف إسماعيل . وفى عام ١٨٧٩ م ، رفض الرضوخ لأوامر إنجلترا وفرنسا نتيجة الديون المالية وعندئذ عزله الباب العالى بقسوة عن الحكم .

السيطرة الإنجليزية :

خلفه ابنه توفيق . أحدثت الموجة الوطنية هياجاً عنيفاً ضد التدخل الأوروبى . وفى يولية عام ١٨٨٢ م ، اتخذ الأسطول البريطانى ذريعة بحجة الدفاع عن المصالح

الأوروبية وقام بقصف الإسكندرية ونزل بها ، واحتـل الجيـش الإنجـليزى مصـر . ولم يشتـرك الأسطول الفرنسـى معـه فى هذه الحملة . وتلاشت الوصـاية المزدوجـة الفرنسيـة – البريطانية التى كانت قائمة منذ عدة سنوات وانفردت إنجلترا بالوصاية دون غيرها وأبعدت فرنسا عن الساحة المصرية .

بدأ الإنجليز يسيطرون على مصر ماليًا وعسكريًا وأصبحت امتدادًا لمستعمرات الإمبراطورية البريطانية مع المحافظة عليها كجزء لا يتجزأ من الإمبراطورية العثمانية ، وهـو تناقـض تاريخى . وسـوف يعـود الوضـع طبيعيًا أثناء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ – ١٩١٨ م) ، فالأتراك هم حلفاء الألمان مما أتاح الفرصة للإنجليز أن يعلنوا حمايتهم على مصر فى ١٨ ديسمبر ١٩١٤ . واستمر الوضع هكذا حتى نهاية الحرب العالمية الثانية .

يقظـة الأمة المصريـة :

هل كان محمد على يريد تكوين أمة مصرية أو على النقيض من ذلك ، تأسيس إمبراطورية شخصية بدءًا من مصر ؟ وبعبارة أخرى ، هل استخدم مصر كوسيلة لصعوده الشخصى أم كان يعمل لعظمة ومجد بلاده بالتبنى ولخير شعبها ؟ فى الحقيقة ، من الصعب بالنسبة لقادة الدول العظام ايجاد مثل هذا التمييز . وذكر لويس برويبه فى كتابه « مصر فى الفترة من ١٧٩٨ إلى ١٩٠٠ م » إنه شرقى قبل كل شىء ومغامر وقادر على إنشاء أسرة حاكمة بسبب مهارته وذكائه ، فالحضارة الأوروبية عندما تعرف عليها باتصالاته مع الأوروبيين المقيمين فى القاهرة والإسكندرية ، ظهرت له أهميتها لكى يرسى قواعد الرخاء المصرى ويرسخ سلطته ويعمل على توطيد وتدعيم ثروته الشخصية . فهو وصولى يحاول بشتى الطرق والوسائل الارتقاء إلى أعلى المراتب ، وكان على درجة كبيرة من الحذر والفطنة عندما أراد أن يهب مصر بنية أساسية منقولة عن الغرب لكنها كانت مختلفة ، إلا أنه كانت لديه القدرة على ممارسة دور على أعلى مستوى فى السياسة الدولية .

مفهوم الوطن المصرى :

أحد أهم الصفات المرتبطة بأمة مستقلة هى تجهيز جيش خاص بها ، ولذا فقد سعى محمد على إلى إدخال المصريين فى قواته العسكرية . وكان الدافع من وراء ذلك ، عدم ثقة فى العناصر التركية وأيضًا الألبانية . وباءت محاولته تجنيد السودانيين بالفشل لأنهم لم يتمكنوا من تحمل الجو . من أجل ذلك ، بدأ محمد على فى تطبيق نظام جديد يعتمد على التجنيد الإجبارى للمصريين . ولم يلق هذا النظام أى تأييد شعبى . إلا أن التدرج كان موجوداً على يد الأتراك ولكن محمد على كانت ثقته محدودة فى مواطنيه . وكان ذلك مجرد بداية بإنشاء جيش وطنى مصرى .

وفى نفس الوقت بدأت قدرة محمد على فى العمل على الصعيد الدولى تتجلى بفكرة جديدة هى القومية المصرية . وفى نهاية عهده ، ظهر مفهومان مختلفان عن القومية : الأول « الوطن » والثانى « الأمة » وهذا ينتمى إلى الأمة الإسلامية .

فبالنسبة للوطن ، يتم إدراك الاستقلال داخل كل دولة فى إطار حدودها ، بينما حدود الأمة تعتبر وحدة حدود الأرض مخالفة لروح الإسلام . فالأمة تقترح وحدة الدين كرباط وثيق للوطن العربى ككل وليس الوطن المصرى فقط .

ختـــــام

حفر محمد على اسمه فى التاريخ كمؤسس مصر الحديثة ، والرجل الذى أيقظها من غفوتها ليحاول بعث عظمة عصر الفراعنة . وقد يندهش المرء بأن تلك الشخصية غير معروفة على نطاق واسع لدى عدد كبير من الفرنسيين . فى الوقت الذى لازمته فرنسا دومًا فى مصيره كما أن المواطنين الفرنسيين مبهورون بمصر ويشهد بذلك الأعداد الغفيرة من السياح الذين تشدهم مصر إلى زيارتها .

الآثار الخيِّرة لعهد محمد على :

استحوذت عليه عدة أفكار تتسم بالقوة كانت المرشد لكل أعماله . فكان عليه أولا لكى يصل إلى تحقيق هدفه الذى حدده ، أن يحصل على الحكم الذاتى فى إطار الإمبراطورية العثمانية . وقد وصل إلى تحقيق هذا الهدف بطريقة رائعة ، وقد كان الاستقلال حقيقة واقعة إلى أن بدأت أزمات ١٨٣٩ - ١٨٤٠ م . فمن سوء الحظ أن سياسته كانت تزعج الدول الكبرى خاصة إنجلترا وفرنسا . وازدادت الحالة خطورة حتى كاد محمد على يفقد عرشه . ومع ذلك ، فقد خرج من هذه الأزمة بشكل مشرف فقد حصل على حكم مصر بالوراثة لأسرته ونجح فى تكوين تلك الأسرة الحاكمة التى ظلت تحكم مصر حتى مجىء الجمهورية بعد أكثر من قرن من الزمان .

أراد محمد على أن يعطى بلده بعدًا دوليًا . وقد وصل إلى هدفه هذا ولكنه فى سبيل ذلك خاص مغامرة كان على وشك أن يخسر كل شئ ، عندما تجاوز كل الحدود فى عام ١٨٤٠ م عندما صرّح بأن فى نيته إعلان الحرب على أوروبا ، ذلك الحلم الأحمق . وكان من الضرورى أن يدعم قوته ويوطدها ببناء جيش وأسطول قادرين على

فرض احترام الجميع له . وهذا أيضا ، نجح فيه ووصل إلى ذروة المجد فى عام ١٨٣٠ م وما بعده . ولكى يحقق هذا الغرض ، كان عليه أن يبنى اقتصاداً قوياً ويعمل على تنمية الزراعة وينشئ صناعات . وحقق نتائج طيبة فى مجال الإنتاج الزراعى ، أما التوسع الصناعى ، فقد عملت الدول الكبرى الأوروبية على إعاقته لشعورها بالقلق من إغلاق منافذ التصدير وتصريف منتجاتها الصناعية وذلك بظهور منافسين جدد . قام محمد على بإصلاحات ضخمة فى الإدارة والتعليم والصحة . ومن إحدى سماته العظيمة فى هذا الصدد ، كانت معرفة الرجال : فقد كان يحيط نفسه بأجانب على أعلى درجة من الكفاءة وعمل على جعل المصريين يتقبلون الإصلاحات التى يقوم بها . قاد بنفسه السياسة الخاصة بمشاريع الرى والصرف التى لا غنى عنها لتطوير وتنمية الزراعة . ولم يتعجل فى تنفيذ مشروع حفر قناة السويس لأنه كان يعتقد أن هذا المشروع سابق لأوانه وخطر فى نفس الوقت ؛ ولكنه أمر بمتابعة الأبحاث الخاصة بهذا المشروع .

وفى المجال الثقافى ، قام بتشجيع الأبحاث الخاصة بالحفريات والبحث والتنقيب عن الآثار ، مثلما فعل مع شامبليون . فكان عمله فى هذا الصدد حاسماً لأنه كشف للمصريين وللعالم أجمع عظمة تاريخ مصر القديم .

وأخيراً ، فإن النتيجة النهائية لعهد محمد على تتمثل فى مولد قومية مصرية أوجدها ذلك الألبانى الأصل بفضل إصلاحاته وموقفه المستقل .

الجوانب السيئة لمحمد على :

كان هناك عدد كبير من الذين اغتابوا محمد على وشنّعوا عليه . وإذا كان جوهر أعماله ليست حقيقة موضع نزاع أو خلاف ، وإنما الطريقة التى نفّذ بها هذه الأعمال هى التى ثار من أجلها الجدل والخلاف . لقد ظهر هذا الرجل التقدمى ، الساحر ، الذى يملك موهبة فذة وكأنه إنسان قاس ولكنه صارم وغير متردد . وهناك بعض الشهود المعاصرين أو الذين جاءوا بعده وضعوا إخلاص هذا الرجل موضع الشك . فمثلا رينان الذى اهتم كثيراً بمصر ، هاجم نظام محمد على ووصفه بأنه دمية فى

أيدى الأوروبيين وصـاح قائلاً : « أوجدت فرنسا طوال ثلاثة أرباع من القرن حلاً لهذه المشكلة الصعبة والتى ستحوز الإعجاب عندما توضح التجربة أن الحلول الأخرى سوف تجعل العالم يذرف الدمع والدم . لقد تخيلت فرنسا بأن أسرة حاكمة مسلمة فى المظهر ولكن فى الجوهر ليس لديها أى تعصب وعلى استعداد للاعتراف بتفوق الغرب وجعل الحياة الأوروبية تسود مجتمعها » . وسوف يعطى المستقبل صدق الرؤية المستقبلية لرينان : فصعود الأصوليين المسلمين يذكر بما قاله رينان والخاص بالدموع والدم ورأى آخر قريب من رأى رينان هو مارك فيرو . إذ يعتبر أن محمد على اجتاز بفعالية وصاية الإمبراطورية العثمانية عليه ، لكنه سار فى فلك الغربيين . وازدادت حركة الارتماء فى أحضان الغرب هذه على أيدى خلفاء محمد على كانوا فى منتهى القسوة تجاه هذا الرجل ومنهم الرسام فيرنيه الذى انتقد نظام محمد على قائلاً : « يموت الفلاح المصرى من العوز والجوع وبجانبه مخازن القمح التابعة لمحمد على المكتظة عن آخرها بالحبوب إن محمد على رجل تركى ويعتبر مصر بلداً محتلاً ويعامل الشعب المصرى على أنه شعب محتل ويريد أن يبقى فى ظل الظروف الخاصة بشعب مهزوم » . وهكذا ، وفى أواخر أيامه ، بدأ يفقد الرأى العام العالمى وبالذات فى فرنسا . وندم على ذلك ولكنه كان فى أواخر أيامه وقد أصيب بالشيخوخة لكى يصلح من سلوكه وتصرفاته .

وكان شامبليون عقب عودته من مصر يشعر بالرضا عن تلك الرحلة لكنه كان يحتفظ بآراء سلبية عن محمد على . ففى خطاب وجهه شامبليون إلى صديقه داسييه فى اليوم التالى لعودته إلى فرنسا قال فيه « محمد على هذا الرجل الممتاز ، لاهمّ له إلا جمع أكبر قدر ممكن من الأموال من مصر المسكينة ؛ وهو يعرف أن القدماء كانوا يمثلون هذا القطر بالبقرة الحلوب ، فهو يحلبها حتى الموت ولن يتأخر ذلك » .

وفى النهاية ...

من الصعب تكوين رأى محدد حول هذه الشخصية المعقدة ألا وهى شخصية محمد على . فهل استغل مصر واستخدمها لبناء مجده الخاص به ، أم على النقيض من ذلك من أجل عظمة بلاده بالتبنى ومن أجل الرفاهية لشعبه ؟ الإجابة غير ذات موضوع والخلط صار كاملاً بين البلد وبينه هو شخصياً .

أما عن محصلة الأعمال التى قدمها محمد على لمصر فكان له دوراً ايجابياً بجميع المقاييس . وبين الإعجاب بدون تحفظ للذين كانوا يعاصرونه والنقد العنيف الذى وجِّهوه ، لابد أن نختار موقف الشعب المصرى الذى يجب أن نضعه فى الاعتبار وذلك بعد رحيله . اتفق جميع الشهود على عصره أن الشعب المصرى رثاه وبكاه بحرقة على الرغم من أنه كان مطحوناً بالضرائب فى الوقت الذى لم يزد فيه الدخل القومى . كما أن الشعب المصرى شعر بالأمن والطمأنينة أبعد من حدوده وداخل حدوده وحصل على استقلاله واستعاد هويته مما كان لها أكبر الأثر فى تقوية الرجوع إلى الماضى العظيم .

وفى أيامنا هذه ، لم يعط محمد على انطباعاً بأنه كان طاغية ولكن محرر الشعب المصرى من الطغيان التركى . لقد أيقظ ضمير الشعب وجعله يدخل فى عصر التقدم والمدنية .

المترجم فى سطور :

محمد رفعت عواد من مواليد القاهرة حصل على ليسانس الآداب قسم اللغة الفرنسية ودبلوم التربية وعلم النفس من جامعة عين شمس سنة ١٩٥٦ ، درس فى جامعة السوربون بباريس حصل خلالها على ثلاث دبلومات عليا فى الأدب الفرنسى واللغة وعلم النفس والفن .

عمل خبيرًا لليونسكو بالكونغو كينشاسا ومترجمًا بالشعبة الوطنية لليونسكو بالرياض ومترجمًا بوزارة البترول وبوزارة الدفاع السعودية .

عمل مترجمًا برئاسة الجمهورية ومترجمًا بوكالة الأنباء الفرنسية وأستاذًا للغة الفرنسية بكلية الشرطة ، ومديرًا عامًا للترجمة بالهيئة العامة للاستعلامات .

قام بترجمة ومراجعة عدة كتب ونشرات ووثائق باللغتين الإنجليزية والفرنسية .

المشروع القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنبًا إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١ - اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢ - الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣ - التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
٤ - كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
٥ - ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦ - اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ - العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
٨ - مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩ - التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠ - خطاب الحكاية	چيرار چينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١ - مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢ - طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣ - ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤ - التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥ - الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦ - أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : بإشراف / أحمد عتمان
١٧ - مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨ - الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩ - الأعمال الشعرية الكاملة	چورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ - قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت: يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١ - خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
٢٢ - مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣ - تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤ - ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥ - مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦ - دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ - التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨ - رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩ - الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠ - الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣١ - مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢ - الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣ - التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣٤ - الرواية العربية	روجر آلن	ت : حصة إبراهيم المنيف
٣٥ - الأسطورة والحداثة	پول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت

٣٦ – نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٣٧ – واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
٣٨ – نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مغيث
٣٩ – الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
٤٠ – قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
٤١ – ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ماجد
٤٢ – عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
٤٣ – اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	ت : المهدى أخريف
٤٤ – بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	ت : مارلين تادرس
٤٥ – التراث المغدور	روبرت ج دنيا – جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
٤٦ – عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد على
٤٧ – تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ١	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨ – حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتى
٤٩ – الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
٥٠ – ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١ – مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانوبيا وخ. م بينياليستى	ت : محمد أبو العطا
٥٢ – العلاج النفسى التدعيمى	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣ – الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت : مرسى سعد الدين
٥٤ – المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحى
٥٥ – ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	ت : على يوسف على
٥٦ – الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
٥٧ – الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
٥٨ – مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩ – المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠ – التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبرى محمد عبد الغنى
٦١ – موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور – سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى
٦٢ – لذّة النّص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
٦٣ – تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ٢	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤ – برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : رمسيس عوض .
٦٥ – فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦ – خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧ – مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدى أخريف
٦٨ – نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
٦٩ – العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠ – ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١ – السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود

٧٢ – السياسى العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلى
٧٣ – نقد استجابة القارئ	چين . ب . توميكنز	ت : حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤ – صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوڤا	ت : حسن بيومى
٧٥ – فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش
٧٦ – چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
٧٧ – تاريخ النقد الأدبى الحديث ج ٣	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨ – العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
٧٩ – شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	ت : سعيد الغانمى وناصر حلاوى
٨٠ – بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم الغمرى
٨١ – الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوى
٨٢ – مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	ت : محمود السيد على
٨٣ – مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالى
٨٤ – موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
٨٥ – منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	ت : عبد الرازق بركات
٨٦ – طول الليل	جمال مير صادقى	ت : أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧ – نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العنانى
٨٨ – الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٨٩ – الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	ت : أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠ – وسم السيف (قصص)	نخبة من كُتاب أمريكا اللاتينية	ت : محمد إبراهيم مبروك
٩١ – المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
٩٢ – أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجيل	ت : نادية جمال الدين
٩٣ – محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب علوب
٩٤ – الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوى
٩٥ – مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف
٩٦ – ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت : إدوار الخراط
٩٧ – هوية فرنسا (المجلد الأول)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
٩٨ – الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	نماذج ومقالات	ت : أشرف الصباغ
٩٩ – تاريخ السينما العالمية	ديفيد روبنسون	ت : إبراهيم قنديل
١٠٠ – مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت : إبراهيم فتحى
١٠١ – النص الروائى (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت : رشيد بنحدو
١٠٢ – السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبى	ت : عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣ – قبر ابن عربى يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت : محمد بنيس
١٠٤ – أوبرا ماهوجنى	برتولت بريشت	ت : عبد الغفار مكاوى
١٠٥ – مدخل إلى النص الجامع	چيرارچينيت	ت : عبد العزيز شبيل
١٠٦ – الأدب الأندلسى	د. ماريا خيسوس روبييرامتى	ت : أشرف على دعدور
١٠٧ – صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى المعاصر	نخبـة	ت : محمد عبد الله الجعيدى

١٠٨ – ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي	مجموعة من النقاد	ت : محمود علي مكي
١٠٩ – حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
١١٠ – النساء في العالم النامي	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
١١١ – المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢ – الاحتجاج الهادئ	أرلين علوي ماكليود	ت : إكرام يوسف
١١٣ – راية التمرد	سادي پلانت	ت : أحمد حسان
١١٤ – مسرحيتا حصاد كونجي وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت : نسيم مجلي
١١٥ – غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	ت : سمية رمضان
١١٦ – امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
١١٧ – المرأة والجنوسة في الإسلام	ليلى أحمد	ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨ – النهضة النسائية في مصر	بث بارون	ت : ليس النقاش
١١٩ – النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهري سنبل	ت : بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠ – الحركة النسائية والتطور في الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت : نخبة من المترجمين
١٢١ – الدليل الصغير في كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت : محمد الجندي ، وإيزابيل كمال
١٢٢ – نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت : منيرة كروان
١٢٣ – الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نينل الكسندر وفنادولينا	ت: أنور محمد إبراهيم
١٢٤ – الفجر الكاذب	چون جراي	ت : أحمد فؤاد بلبع
١٢٥ – التحليل الموسيقي	سيدريك ثورپ ديڤي	ت : سمحه الخولي
١٢٦ – فعل القراءة	ڤولفانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب
١٢٧ – إرهاب	صفاء فتحي	ت : بشير السباعي
١٢٨ – الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت : أميرة حسن نويرة
١٢٩ – الرواية الاسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت : محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠ – الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت : شوقي جلال
١٣١ – مصر القديمة (التاريخ الاجتماعي)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
١٣٢ – ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت : عبد الوهاب علوب
١٣٣ – الخوف من المرايا	طارق علي	ت : طلعت الشايب
١٣٤ – تشريح حضارة	باري ج. كيمب	ت : أحمد محمود
١٣٥ – المختار من نقد ت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء)	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦ – فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت : سحر توفيق
١٣٧ – مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية	چوزيف ماري مواريه	ت : كاميليا صبحي
١٣٨ – عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تاروني	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩ – پارسيڤال	ريشارد ڤاچنر	ت : مصطفى ماهر
١٤٠ – حيث تلتقي الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل الجبوري
١٤١ – اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
١٤٢ – الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومي
١٤٣ – قضايا التنظير في البحث الاجتماعي	ديريك لايدار	ت : عدلي السمري
١٤٤ – صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدوني	ت : سلامة محمد سليمان

١٤٥ – موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت . أحمد حسان
١٤٦ – الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	ت : على عبد الرؤوف البمبى
١٤٧ – خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت : عبد الغفار مكاوى
١٤٨ – القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكى أندرسون إمبرت	ت : على إبراهيم على منوفى
١٤٩ – النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٥٠ – التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	ت: منيرة كروان
١٥١ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٢ – عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكُتاب	ت : محمد محمد الخطابى
١٥٣ – غرام الفراعنة	فيولين فانويك	ت . فاطمة عبد الله محمود
١٥٤ – مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت : خليل كلفت
١٥٥ – الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	ت : أحمد مرسى
١٥٦ – المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت فيرمو	ت : مى التلمسانى
١٥٧ – خسرو وشيرين	النظامى الكنوجى	ت : عبد العزيز بقوش
١٥٨ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٩ – الإيديولوجية	ديفيد هوكس	ت : إبراهيم فتحى
١٦٠ – آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت : حسين بيومى
١٦١ – من المسرح الإسبانى	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت : زيدان عبد الحليم زيدان
١٦٢ – تاريخ الكنيسة	يوحنا الأسيوى	ت : صلاح عبد العزيز محجوب
١٦٣ – موسوعة علم الاجتماع ج ١	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
١٦٤ – شامپوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	ت : نبيل سعد
١٦٥ – حكايات الثعلب	أ . ن أفانا سيفا	ت : سهير المصادفة
١٦٦ – العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليفمان	ت : محمد محمود أبو غدير
١٦٧ – فى عالم طاغور	رابندرانات طاغور	ت : شكرى محمد عياد
١٦٨ – دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت : شكرى محمد عياد
١٦٩ – إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت : شكرى محمد عياد
١٧٠ – الطريق	ميغيل دليبيس	ت : بسام ياسين رشيد
١٧١ – وضع حد	فرانك بيجو	ت : هدى حسين
١٧٢ – حجر الشمس	مختارات	ت : محمد محمد الخطابى
١٧٣ – معنى الجمال	ولتر ت . ستيس	ت : إمام عبد الفتاح إمام.
١٧٤ – صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	ت : أحمد محمود
١٧٥ – التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦ – نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت : جلال البنا
١٧٧ – أنطون تشيخوف	هنرى ترويا	ت : حصة إبراهيم منيف
١٧٨ – مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	ت : محمد حمدى إبراهيم
١٧٩ – حكايات أيسوب	أيسوب	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠ – قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت : سليم عبدالأمير حمدان
١٨١ – النقد الأدبى الأمريكى	فنسنت . ب . ليتش	ت : محمد يحيى

١٨٢ – العنف والنبوءة	و . ب . ييتس	ت : ياسين طه حافظ
١٨٣ – چان كوكتو على شاشة السينما	رينيه چيلسون	ت : فتحى العشرى
١٨٤ – القاهرة .. حالمة لا تنام	هانز إبندورفر	ت : دسوقى سعيد
١٨٥ – أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت : عبد الوهاب علوب
١٨٦ – معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل أنوود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧ – الأرضة	بُزُرْج علّوى	ت : علاء منصور
١٨٨ – موت الأدب	ألفين كرنان	ت : بدر الديب
١٨٩ – العمى والبصيرة	بول دى مان	ت : سعيد الغانمى
١٩٠ – محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	ت : محسن سيد فرجانى
١٩١ – الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت : مصطفى حجازى السيد
١٩٢ – سياحت نامه إبراهيم بك جـ١	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
١٩٣ – عامل المنجم	بيتر أبراهامز	ت : محمد عبد الواحد محمد
١٩٤ – مختارات من النقد الأنجلو-أمريكى	مجموعة من النقاد	ت : ماهر شفيق فريد
١٩٥ – شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
١٩٦ – المهلة الأخيرة	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
١٩٧ – الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	ت : جلال السعيد الحفناوى
١٩٨ – الاتصال الجماهيرى	إدوين إمرى وآخرون	ت : إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩ – تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداوى	ت : جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠ – ضحايا التنمية	جيرمى سيبروك	ت : فخرى لبيب
٢٠١ – الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٢٠٢ – تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ٤	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣ – الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	ت : جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤ – تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	ت : أحمد محمود هويدى
٢٠٥ – الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى – سفورزا	ت : أحمد مستجير
٢٠٦ – الهيولية تصنع علماً جديداً	جيمس جلايك	ت : على يوسف على
٢٠٧ – ليل إفريقى	رامون خوتاسندير	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٠٨ – شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	ت : محمد أحمد صالح
٢٠٩ – السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٠ – مثنويات حكيم سنائى	سنائى الغزنوى	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١ – فردينان دوسوسير	جوناثان كلر	ت : محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢ – قصص الأمير مرزبان	مرزبان بن رستم بن شروين	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١٣ – مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبد الناصر	ريمون فلاور	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢١٤ – قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	ت : محمد محمود محى الدين
٢١٥ – سياحت نامه إبراهيم بك جـ٢	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
٢١٦ – جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٧ – مسرحيتان طليعيتان	صمويل بيكيت	ت : نادية البنهاوى
٢١٨ – رايولا	خوليو كورتازان	ت : على إبراهيم على منوفى

٢١٩ – بقايا اليوم	كازو ايشجورو	ت : طلعت الشايب
٢٢٠ – الهيولية فى الكون	بارى باركر	ت : على يوسف على
٢٢١ – شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	ت : رفعت سلام
٢٢٢ – فرانز كافكا	رونالد جراى	ت : نسيم مجلى
٢٢٣ – العلم فى مجتمع حر	بول فيرابنر	ت : السيد محمد نفادى
٢٢٤ – دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	ت : منى عبد الظاهر إبراهيم السيد
٢٢٥ – حكاية غريق	جابرييل جارثيا ماركث	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٦ – أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	ت : طاهر محمد على البربرى
٢٢٧ – المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	موسى ماريديا ديف بوركى	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٨ – علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	ت : مارى تيريز عبد المسيح وخالد حسن
٢٢٩ – مأزق البطل الوحيد	نورمان كيمان	ت : أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠ – عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١ – الدرافيل	خايمى سالوم بيدال	ت : جمال أحمد عبد الرحمن
٢٣٢ – مابعد المعلومات	توم ستينر	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣ – فكرة الاضمحلال	أرثر هيرمان	ت : طلعت الشايب
٢٣٤ – الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	ت : فؤاد محمد عكود
٢٣٥ – ديوان شمس تبريزى ج١	جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦ – الولاية	ميشيل تود	ت : أحمد الطيب
٢٣٧ – مصر أرض الوادى	روبين فيدين	ت : عنايات حسين طلعت
٢٣٨ – العولمة والتحرير	الانكتاد	ت : ياسر محمد جاد الله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩ – العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلارافر – رايوخ	ت : نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠ – الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كامى حافظ	ت : صلاح عبد العزيز محمود
٢٤١ – فى انتظار البرابرة	ك. م كويتز	ت : ابتسام عبد الله سعيد
٢٤٢ – سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	ت : صبرى محمد حسن عبد النبى
٢٤٣ – تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ١)	ليفى بروفنسال	ت : مجموعة من المترجمين
٢٤٤ – الغليان	لاورا إسكيبيل	ت : نادية جمال الدين محمد
٢٤٥ – نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس	ت : توفيق على منصور
٢٤٦ – قصص مختارة	جابرييل جرثيا ماركث	ت : على إبراهيم على منوفى
٢٤٧ – الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	وولتر أرمبرست	ت : محمد الشرقاوى
٢٤٨ – حقول عدن الخضراء	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٢٤٩ – لغة التمزق	دراجو شتامبوك	ت : رفعت سلام
٢٥٠ – علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ت : ماجدة أباظة
٢٥١ – موسوعة علم الاجتماع ج ٢	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
٢٥٢ – رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	ت : على بدران
٢٥٣ – تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوفا	ت : حسن بيومى
٢٥٤ – الفلسفة	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥ – أفلاطون	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام

٢٥٦ – ديكارت	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧ – تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	ت : محمود سيد أحمد
٢٥٨ – الغجر	سير أنجوس فريزر	ت : عُبادة كُحيلة
٢٥٩ – مختارات من الشعر الأرمنى	نخبة	ت : ڤاروجان كازانچيان
٢٦٠ – موسوعة علم الاجتماع ج٢	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
٢٦١ – رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢ – مدينة المعجزات	إدوارد مندوثا	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٦٣ – الكشف عن حافة الزمن	چون جريين	ت : على يوسف على
٢٦٤ – إبداعات شعرية مترجمة	هوراس / شلى	ت : لويس عوض
٢٦٥ – روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصموئيل جونسون	ت : لويس عوض
٢٦٦ – مدير المدرسة	جلال آل أحمد	ت : عادل عبد المنعم سويلم
٢٦٧ – فن الرواية	ميلان كونديرا	ت : بدر الدين عرودكى
٢٦٨ – ديوان شمس تبريزى ج٢	جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩ – وسط الجزيرة العربية وشرقها ج١	وليم چيفور بالجريف	ت : صبرى محمد حسن
٢٧٠ – وسط الجزيرة العربية وشرقها ج٢	وليم چيفور بالجريف	ت : صبرى محمد حسن
٢٧١ – الحضارة الغربية	توماس سى . باترسون	ت : شوقى جلال
٢٧٢ – الأديرة الأثرية فى مصر	س. س. والترز	ت : إبراهيم سلامة
٢٧٣ – الاستعمار والثورة فى الشرق الأوسط	جوان آر. لوك	ت : عنان الشهاوى
٢٧٤ – السيدة بربارا	رومولو جلاجوس	ت : محمود على مكى
٢٧٥ – ت. س. إليوت شاعرًا وناقدًا وكاتبًا مسرحيًا	أقلام مختلفة	ت : ماهر شفيق فريد
٢٧٦ – فنون السينما	فرانك جوتيران	ت : عبد القادر التلمسانى
٢٧٧ – الچينات : الصراع من أجل الحياة	بريان فورد	ت : أحمد فوزى
٢٧٨ – البدايات	إسحق عظيموف	ت : ظريف عبد الله
٢٧٩ – الحرب الباردة الثقافية	فرانسيس ستونر سوندرز	ت : طلعت الشايب
٢٨٠ – من الأدب الهندى الحديث والمعاصر	بريم شند وآخرون	ت : سمير عبد الحميد
٢٨١ – الفردوس الأعلى	مولانا عبد الحليم شرر الكهنوى	ت : جلال الحفناوى
٢٨٢ – طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس ولبيرت	ت : سمير حنا صادق
٢٨٣ – السهل يحترق	خوان رولفو	ت : على البمبى
٢٨٤ – هرقل مجنونًا	يوريبيدس	ت : أحمد عتمان
٢٨٥ – رحلة الخواجة حسن نظامى	حسن نظامى	ت : سمير عبد الحميد
٢٨٦ – سياحت نامه إبراهيم بك ج٣	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
٢٨٧ – الثقافة والعولمة والنظام العالمى	أنتونى كينج	ت : محمد يحيى وآخرون
٢٨٨ – الفن الروائى	ديفيد لودچ	ت : ماهر البطوطى
٢٨٩ – ديوان منجوهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	ت : محمد نور الدين
٢٩٠ – علم اللغة والترجمة	جورج مونان	ت : أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١ – المسرح الإسبانى فى القرن العشرين ج١	فرانشسكو رويس رامون	ت : السيد عبد الظاهر
٢٩٢ – المسرح الإسبانى فى القرن العشرين ج٢	فرانشسكو رويس رامون	ت : السيد عبد الظاهر

٢٩٣ – مقدمة للأدب العربى	روجر آلان	ت . نخبة من المترجمين
٢٩٤ – فن الشعر	بوالو	ت : رجاء ياقوت صالح
٢٩٥ – سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل	ت : بدر الدين حب الله الديب
٢٩٦ – مكبث	وليم شكسبير	ت : محمد مصطفى بدوى
٢٩٧ – فن النحو بين اليونانية والسوريانية	ديونيسيوس ثراكس – يوسف الأهوانى	ت : ماجدة محمد أنور
٢٩٨ – مأساة العبيد	أبو بكر تفاوابليوه	ت : مصطفى حجازى السيد
٢٩٩ – ثورة التكنولوجيا الحيوية	جين ل. ماركس	ت : هاشم أحمد فؤاد
٣٠٠ – أسطورة برومثيوس مج١	لويس عوض	ت : جمال الجزيرى وبهاء چاهين
٣٠١ – أسطورة برومثيوس مج٢	لويس عوض	ت : جمال الجزيرى ومحمد الجندى
٣٠٢ – فنجنشتين	جون هيتون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٣ – بـوذا	جين هوب وبورن فان لون	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤ – ماركس	ريـوس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥ – الجلد	كروزيو مالابارته	ت : صلاح عبد الصبور
٣٠٦ – الحماسة – النقد الكانطى للتاريخ	جان – فرانسوا ليوتار	ت : نبيل سعد
٣٠٧ – الشعور	ديفيد بابينو	ت : محمود محمد أحمد
٣٠٨ – علم الوراثة	ستيف جونز	ت : ممدوح عبد المنعم أحمد
٣٠٩ – الذهن والمخ	انجوس چيلاتى	ت : جمال الجزيرى
٣١٠ – يونج	ناجى هيد	ت : محيى الدين محمد حسن
٣١١ – مقال فى المنهج الفلسفى	كولنجوود	ت : فاطمة إسماعيل
٣١٢ – روح الشعب الأسود	وليم دى بويز	ت : أسعد حليم
٣١٣ – أمثال فلسطينية	خابير بيان	ت : عبد الله الجعيدى
٣١٤ – الفن كعدم	جينس مينيك	ت : هويدا السباعى
٣١٥ – جرامشى فى العالم العربى	ميشيل بروندينو	ت :كاميليا صبحى
٣١٦ – محاكمة سقراط	آ. ف. ستون	ت : نسيم مجلى
٣١٧ – بلا غد	شير لايموفا – زنيكين	ت : أشرف الصباغ
٣١٨ – الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة	نخبة	ت : أشرف الصباغ
٣١٩ – صور دريدا	جايترى اسبيفاك وكرستوفر نوريس	ت : حسام نايل
٣٢٠ – لمعة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٢١ – تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ج١)	ليفى برو فنسال	ت : نخبة من المترجمين
٣٢٢ – وجهات نظر حديثة فى تاريخ الفن الغربى	دبليو. إيوجين كلينباور	ت : خالد مفلح حمزة
٣٢٣ – فن الساتورا	تراث يونانى قديم	ت : هانم سليمان
٣٢٤ – اللعب بالنار	أشرف أسدى	ت : محمود سلامة علاوى
٣٢٥ – عالم الآثار	فيليب بوسان	ت : كرستين يوسف
٣٢٦ – المعرفة والمصلحة	جورجين هابرماس	ت : حسن صقر
٣٢٧ – مختارات شعرية مترجمة	نخبة	ت : توفيق على منصور
٣٢٨ – يوسف وزليخة	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	ت : عبد العزيز بقوش
٣٢٩ – رسائل عيد الميلاد	تد هيوز	ت : محمد عيد إبراهيم

٣٣٠ – كل شيء عن التمثيل الصامت	مارفن شبرد	ت : سامى صلاح
٣٣١ – عندما جاء السردين	ستيفن جراى	ت : سامية دياب
٣٣٢ – رحلة شهر العسل وقصص أخرى	نخبة	ت : على إبراهيم على منوفى
٣٣٣ – الإسلام فى بريطانيا	نبيل مطر	ت : بكر عباس
٣٣٤ – لقطات من المستقبل	أرثر س. كلارك	ت : مصطفى فهمى
٣٣٥ – عصر الشك	ناتالى ساروت	ت : فتحى العشرى
٣٣٦ – متون الأهرام	نصوص قديمة	ت : حسن صابر
٣٣٧ – فلسفة الولاء	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٣٣٨ – نظرات حائرة وقصص أخرى من الهند	نخبة	ت : جلال السعيد الحفناوى
٣٣٩ – تاريخ الأدب فى إيران جـ٣	على أصغر حكمت	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٤٠ – اضطراب فى الشرق الأوسط	بيرش بيربيروجلو	ت : فخرى لبيب
٣٤١ – قصائد من رلكه	راينر ماريا رلكه	ت : حسن حلمى
٣٤٢ – سلامان وأبسال	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	ت : عبد العزيز بقوش
٣٤٣ – العالم البرجوازى الزائل	نادين جورديمر	ت : سمير عبد ربه
٣٤٤ – الموت فى الشمس	بيتر بلانجوه	ت : سمير عبد ربه
٣٤٥ – الركض خلف الزمن	بونه ندائى	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٣٤٦ – سحر مصر	رشاد رشدى	ت : جمال الجزيرى
٣٤٧ – الصبية الطائشون	جان كوكتو	ت : بكر الحلو
٣٤٨ – المتصوفة الأولون فى الأدب التركى جـ١	محمد فؤاد كوبريلى	ت : عبد الله أحمد إبراهيم
٣٤٩ – دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	أرثر والدرون وآخرين	ت : أحمد عمر شاهين
٣٥٠ – بانوراما الحياة السياحية	أقلام مختلفة	ت : عطية شحاتة
٣٥١ – مبادئ المنطق	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٣٥٢ – قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	ت : نعيم عطية
٣٥٣ – الفن الإسلامى فى الأندلس (هندسية)	باسيليو بابون مالدونالد	ت : على إبراهيم على منوفى
٣٥٤ – الفن الإسلامى فى الأندلس (نباتية)	باسيليو بابون مالدونالد	ت : على إبراهيم على منوفى
٣٥٥ – التيارات السياسية فى إيران	حجت مرتضى	ت : محمود سلامة علاوى
٣٥٦ – الميراث المر	بول سالم	ت : بدر الرفاعى
٣٥٧ – متون هيرميس	نصوص قديمة	ت : عمر الفاروق عمر
٣٥٨ – أمثال الهوسا العامية	نخبة	ت : مصطفى حجازى السيد
٣٥٩ – محاورات بارمنيدس	أفلاطون	ت : حبيب الشارونى
٣٦٠ – أنثروبولوجيا اللغة	أندريه جاكوب ونويلا باركان	ت : ليلى الشربينى
٣٦١ – التصحر : التهديد والمجابهة	آلان جرينجر	ت : عاطف معتمد وآمال شاور
٣٦٢ – تلميذ باينبرج	هاينرش شبورال	ت : سيد أحمد فتح الله
٣٦٣ – حركات التحرر الأفريقى	ريتشارد جيبسون	ت : صبري محمد حسن
٣٦٤ – حداثة شكسبير	إسماعيل سراج الدين	ت : نجلاء أبو عجاج
٣٦٥ – سأم باريس	شارل بودلير	ت : محمد أحمد حمد
٣٦٦ – نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	ت : مصطفى محمود محمد

٣٦٧ – القلم الجرىء	نخبة	ت : البرّاق عبد الهادى رضا
٣٦٨ – المصطلح السردى	جيرالد برنس	ت : عابد خزندار
٣٦٩ – المرأة فى أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوى	ت : فوزية العشماوى
٣٧٠ – الفن والحياة فى مصر الفرعونية	كليرلا لويت	ت : فاطمة عبد الله محمود
٣٧١ – المتصوفة الأولون فى الأدب التركى جـ٢	محمد فؤاد كوبريلى	ت : عبد الله أحمد إبراهيم
٣٧٢ – عاش الشباب	وانغ مينغ	ت : وحيد السعيد عبد الحميد
٣٧٣ – كيف تعد رسالة دكتوراه	أمبرتو إيكو	ت : على إبراهيم على منوفى
٣٧٤ – اليوم السادس	أندريه شديد	ت : حمادة إبراهيم
٣٧٥ – الخلود	ميلان كونديرا	ت : خالد أبو اليزيد
٣٧٦ – الغضب وأحلام السنين	نخبة	ت : إدوار الخراط
٣٧٧ – تاريخ الأدب فى إيران جـ٤	على أصغر حكمت	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٧٨ – المسافر	محمد إقبال	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٣٧٩ – ملك فى الحديقة	سنيل باث	ت : جمال عبد الرحمن
٣٨٠ – حديث عن الخسارة	جونتر جراس	ت : شيرين عبد السلام
٣٨١ – أساسيات اللغة	ر. ل. تراسك	ت : رانيا إبراهيم يوسف
٣٨٢ – تاريخ طبرستان	بهاء الدين محمد إسفنديار	ت : أحمد محمد نادى
٣٨٣ – هدية الحجاز	محمد إقبال	ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
٣٨٤ – القصص التى يحكيها الأطفال	سوزان إنجيل	ت : إيزابيل كمال
٣٨٥ – مشترى العشق	محمد على بهزادراد	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٣٨٦ – دفاعًا عن التاريخ الأدبى النسوى	جانيت تود	ت : ريهام حسين إبراهيم
٣٨٧ – أغنيات وسوناتات	جون دن	ت : بهاء جاهين
٣٨٨ – مواعظ سعدى الشيرازى	سعدى الشيرازى	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٨٩ – من الأدب الباكستانى المعاصر	نخبة	ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
٣٩٠ – الأرشيفات والمدن الكبرى	نخبة	ت : عثمان مصطفى عثمان
٣٩١ – الحافلة الليلكية	مايف بينشى	ت : منى الدروبى
٣٩٢ – مقامات ورسائل أندلسية	فرناندو دى لاجرانخا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٣٩٣ – فى قلب الشرق	ندوة لويس ماسينيون	ت : زينب محمود الخضيرى
٣٩٤ – القوى الأربع الأساسية فى الكون	بول ديفيز	ت : هاشم أحمد محمد
٣٩٥ – آلام سياوش	إسماعيل فصيح	ت : سليم حمدان
٣٩٦ – السافاك	تقى نجارى راد	ت :محمود سلامة علاوى
٣٩٧ – نيتشه	لورانس جين	ت :إمام عبد الفتاح إمام
٣٩٨ – سارتر	فيليب تودى	ت :إمام عبد الفتاح إمام
٣٩٩ – كامى	ديفيد ميروفتس	ت :إمام عبد الفتاح إمام
٤٠٠ – مومو	مشيائيل إنده	ت : باهر الجوهرى
٤٠١ – الرياضيات	زيادون ساردر	ت : ممدوح عبد المنعم
٤٠٢ – هوكنج	ج . ب . ماك ايفوى	ت : ممدوح عبد المنعم
٤٠٣ – رية المطر والملابس تصنع الناس	تودور شتورم	ت : عماد حسن بكر
٤٠٤ – تعويذة الحسى	ديفيد إبرام	ت : ظبية خميس
٤٠٥ – إيزابيل	أندريه جيد	ت : حمادة إبراهيم
٤٠٦ – المستعربون الإسبان فى القرن ١٩	مانويلا مانتاناريس	ت : جمال أحمد عبد الرحمن
٤٠٧ – الأدب الإسبانى المعاصر بأقلام كتابه	أقلام مختلفة	ت : طلعت شاهين
٤٠٨ – معجم تاريخ مصر	جوان فوتشركنج	ت : عنان الشهاوى

٤٠٩ – انتصار السعادة	برتراند راسل	ت : إلهامى عمارة
٤١٠– خلاصة القرن	كارل بوبر	ت : الزواوى بغورة
٤١١ – همس من الماضى	جينيفر أكرمان	ت : أحمد مستجير
٤١٢ – تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ج٢)	ليفى بروفنسال	ت : نخبة
٤١٣ – أغنيات المنفى	ناظم حكمت	ت : محمد البخارى
٤١٤ – الجمهورية العالمية للآداب	باسكال كازانوفا	ت : أمل الصبان
٤١٥ – صورة كوكب	فريدريش دورنيمات	ت : أحمد كامل عبد الرحيم
٤١٦ – مبادئ النقد الأدبى والعلم والشعر	أ. أ. رتشاردز	ت : مصطفى بدوى
٤١٧ – تاريخ النقد الأدبى الحديث ج٥	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤١٨ – سياسات الزمر الحاكمة فى مصر العثمانية	جين هاثواى	ت : عبد الرحمن الشيخ
٤١٩ – العصر الذهبى للإسكندرية	جون ماريو	ت : نسيم مجلى
٤٢٠ – مكرو ميجاس	فولتير	ت : الطيب بن رجب
٤٢١ – الولاء والقيادة فى المجتمع الإسلامى	روى متحدة	ت : أشرف محمد كيلانى
٤٢٢ – رحلة لاستكشاف أفريقيا جـ١	نخبة	ت : عبد الله عبد الرازق إبراهيم
٤٢٣ – إسراءات الرجل الطيف	نخبة	ت : وحيد النقاش
٤٢٤ – لوائح الحق ولوامع العشق	نور الدين عبد الرحمن الجامى	ت : محمد علاء الدين منصور
٤٢٥ – من طاووس حتى فرح	محمود طلوعى	ت : محمود سلامة علاوى
٤٢٦ – الخفافيش وقصص أخرى من أفغانستان	نخبة	ت : محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧ – بانديراس الطاغية	باى إنكلان	ت : ثريا شلبى
٤٢٨ – الخزانة الخفية	محمد هوتك	ت : محمد أمان صافى
٤٢٩ – هيجل	ليود سبنسر وأندرزجى كروز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٠ – كانط	كرستوفر وانت وأندزجى كليموفسكى	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣١ – فوكو	كريس هيروكس وزوران جفتيك	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٢ – ماكيافللى	باتريك كيرى وأوسكار زاريت	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٣ – جويس	ديفيد نوريس وكارل فلنت	ت : حمدى الجابرى
٤٣٤ – الرومانسية	دونكان هيث وجودن بورهام	ت : عصام حجازى
٤٣٥ – توجهات ما بعد الحداثة	نيكولاس زربرج	ت : ناجى رشوان
٤٣٦ – تاريخ الفلسفة (مج١)	فردريك كوبلستون	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٧ – رحالة هندى فى بلاد الشرق	شبلى النعمانى	ت : جلال السعيد الحفناوى
٤٣٨ – بطلات وضحايا	إيمان ضياء الدين بيبرس	ت : عايدة سيف الدولة
٤٣٩ – موت المرابى	صدر الدين عينى	ت : محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٤٠ – قواعد اللهجات العربية	كرستن بروستاد	ت : محمد الشرقاوى
٤٤١ – رب الأشياء الصغيرة	أروندهاتى روى	ت : فخرى لبيب
٤٤٢ – حتشبسوت (المرأة الفرعونية)	فوزية أسعد	ت : ماهر جويجاتى
٤٤٣ – اللغة العربية	كيس فرستيغ	ت : محمد الشرقاوى
٤٤٤ – أمريكا اللاتينية : الثقافات القديمة	لاوريت سيجورنه	ت : صالح علمانى
٤٤٥ – حول وزن الشعر	پرويز ناتل خانلرى	ت : محمد محمد يونس

٤٤٦ – التحالف الأسود	ألكسندر كوكبرن وجيفرى سانت كلير	ت : أحمد محمود
٤٤٧ – نظرية الكم	ج. ب. ماك ايفوى	ت : ممدوح عبد المنعم
٤٤٨ – علم نفس التطور	ديلان ايفانز – أوسكار زاريت	ت : ممدوح عبد المنعم
٤٤٩ – الحركة النسائية	مجموعة	ت : جمال الجزيرى
٤٥٠ – ما بعد الحركة النسائية	صوفيا فوكا – ريبيكارايت	ت : جمال الجزيرى
٤٥١ – الفلسفة الشرقية	ريتشارد أوزبورن / بورن فان لون	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٢ – لينين والثورة الروسية	ريتشارد إبجنانزى / أوسكار زاريت	ت : محى الدين مزيد
٤٥٣ – القاهرة : إقامة مدينة حديثة	جان لوك أرنو	ت : حليم طوسون وفؤاد الدهان
٤٥٤ – خمسون عامًا من السينما الفرنسية	رينيه بريدال	ت : سوزان خليل
٤٥٥ – تاريخ الفلسفة الحديثة (مج ٥)	فردريك كوبلستون	ت : محمود سيد أحمد
٤٥٦ – لا تنسنى	مريم جعفرى	ت : هويدا عزت محمد
٤٥٧ – النساء فى الفكر السياسى الغربى	سوزان موللر اوكين	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٨ – الموريسكيون الأندلسيون	خوليو كارو باروخا	ت : جمال عبد الرحمن
٤٥٩ – نحو مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية	توم تيتنبرج	ت : جلال البنا
٤٦٠ – الفاشية والنازية	ستوارت هود – ليتزا جانستز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٦١ – لكان	داريان ليدر – جودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٦٢ – طه حسين من الأزهر إلى السوربون	عبد الرشيد الصادق محمودى	ت : عبد الرشيد الصادق محمودى
٤٦٣ – الدولة المارقة	ويليام بلوم	ت : كمال السيد
٤٦٤ – ديمقراطية القلة	ميكائيل بارنتى	ت : حصة منيف
٤٦٥ – قصص اليهود	لويس جنزبرج	ت : جمال الرفاعى
٤٦٦ – حكايات حب وبطولات فرعونية	فيولين فانويك	ت : فاطمة محمود
٤٦٧ – التفكير السياسى	ستيفن ديلو	ت : ربيع وهبة
٤٦٨ – روح الفلسفة الحديثة	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٤٦٩ – جلال الملوك	نصوص حبشية قديمة	ت : مجدى عبد الرازق
٤٧٠ – الأراضى والجودة البيئية	نخبة	ت : محمد السيد النة
٤٧١ – رحلة لاستكشاف أفريقيا ج٢	نخبة	ت : عبد الله الرازق إبراهيم
٤٧٢ – دون كيخوتى (القسم الأول)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	ت : سليمان العطار
٤٧٣ – دون كيخوتى (القسم الثانى)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	ت : سليمان العطار
٤٧٤ – الأدب والنسوية	بام موريس	ت : سهام عبد السلام
٤٧٥ – صوت مصر : أم كلثوم	فرجينيا دانيلسون	ت : عادل هلال عنانى
٤٧٦ – أرض الحبايب بعيدة : بيرم التونسى	ماريلين بوث	ت : سحر توفيق
٤٧٧ – تاريخ الصين	هيلدا هوخام	ت : أشرف كيلانى
٤٧٨ – الصين والولايات المتحدة	ليوشيه شنج ولى شى دونج	ت : عبد العزيز حمدى
٤٧٩ – المقهى (مسرحية صينية)	لاوشه	ت : عبد العزيز حمدى
٤٨٠ – تساى ون جى (مسرحية صينية)	كو مو روا	ت : عبد العزيز حمدى
٤٨١ – عباءة النبى	روى متحدة	ت : رضوان السيد
٤٨٢ – موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية	روبير جاك تيبو	ت : فاطمة محمود
٤٨٣ – النسوية وما بعد النسوية	سارة جامبل	ت : أحمد الشامى

٤٨٤ - جمالية التلقى	هانسن روبيرت ياوس	ت : رشيد بنحدو
٤٨٥ - التوبة (رواية)	نذير أحمد الدهلوى	ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
٤٨٦ - الذاكرة الحضارية	يان أسمن	ت : عبد الحليم عبد الغنى رجب
٤٨٧ - الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية	رفيع الدين المراد آبادى	ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
٤٨٨ - الحب الذى كان وقصائد أخرى	نخبة	ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
٤٨٩ - هُسرّل : الفلسفة علمًا دقيقًا	هُسرّل	ت : محمود رجب
٤٩٠ - أسمار الببغاء	محمد قدرى	ت : عبد الوهاب علوب
٤٩١ - نصوص قصصية من روائع الأدب الأفريقى	نخبة	ت : سمير عبد ربه
٤٩٢ - محمد على مؤسس مصر الحديثة	جى فارجيت	ت : محمد رفعت عواد

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٧١٢٩ / ٢٠٠٣

المجلس الأعلى للثقافة

يطرح جى فارچيت فى كتابه «محمد على مؤسس مصر الحديثة» - ذلك الرجل الذى تضاربت حوله الآراء بين مؤيد ومعارض سواء فى الداخل أو الخارج - بين محمد على الألبانى الأصل الذى قدم لمصر فى صفوف الجيش التركى، ثم اعتلى عرش مصر وقدم أعظم الخدمات لبلده بالتبنى، وبين نابليون بونابرت الذى قدم من جزيرة كورسيكا فى البحر المتوسط وصار إمبراطورا لفرنسا، كما ركز الأضواء على محمد على فى تكوينه امبراطورية عربية تضم: مصر وسوريا ولبنان والسودان والحجاز. وقد أفرد المؤلف فصلا كاملا عن التأثير الفرنسى فى مصر فى عدة مجالات مختلفة بعيدا عن الجوانب السياسية والدبلوماسية: التدريب العسكرى، والجيش، والأسطول، والترسانة البحرية، وبناء السفن، والتعليم والصحة، وعلم المصريات والبحث عن الآثار الفرعونية، والتنمية الاقتصادية والاجتماعية، والأشغال العامة.